

العَدْوى المُقَدَسَة

التاريخ الطبيعي للخرافات

بول هنري تيري، بارون دي هولباخ

ترجمه عن الفرنسية: د. لوصيف رحومة

ABKALU

العَدْوى المُقَدَّسَةُ
التاريخ الطبيعي للخرافات

تأليف

بول هنري تيري، بارون دي هولباخ

Paul Henri Thiry, baron d'Holbach

ترجمة

لوصيف رحومة

الطبعة الأولى، 2024

ISBN: 9789922717463

تصميم الغلاف: إلهام ذبيحي

لدار أبكالو

للنشر والتوزيع /العراق -بغداد

بغداد: 009647811898461

Email: Abkallu91@gmail.com

بول هنري تيري، بارون دي هولباخ

العَدْوى المُقَدَسَةُ

التاريخ الطبيعي للخرافات

ترجمة
لوصيّف رحومة

أبكالو 2024

المحتوى

المقدمة

إنّ الدين قديم قدم الانسان على وجه الأرض، لقد سبق كل النظم من الأخلاق والثقافة والفن والسياسة، ولقد سبق في نشأته الدول.

والخوف حالة وجبلّة قديمة متأصّلة في طبيعة البشر، تهيؤه طارئات الأحداث وتبدّل الأحوال ويبعثه العجز والرغبة والنقصان.

والجهل بليّة وابتلاء ونقصان، صاحب الإنسان منذ البدء فأنشأ به الصور والأوهام وشيّد النظم والعبادات، وكان له مع السياسة الجاه والسلطان.

إن العيش وحفظ البقاء محفوفان بالمخاطر والمهالك، قوى الطبيعة من جهة ومن جهة أخرى العجز والبلاء والفناء. والإنسان بجهله يخاف، تعوزه الحيلة والمدد، يلوذ بما تهيؤّه له مخيّلته من طرق وسبل من أجل كفّ الأذى عنه أو توخّي الحيطة والحذر من قوى الطبيعة ونوائب الدهر.

لقد قام الدين إذا، كما يبيّن هولباخ في كتابه هذا۔، على الخوف وعلى الجهل قد شيّد بنيانه، فكانت الخرافات وكانت النُّذُر في البداية وأُقيمت القرابين والأضاحي لاسترضاء قوى الطبيعة وأربابها، وأُنشئت بعد

ذلك الطرائق والشعائر والطقوس والنظم، وكان لكلّ دين خدّامه ووزراءه وكهنته.

قامت الأديان وتشكّلت من رحم الخوف ومن كلّ ما أنشأه الإنسان من أفكار وأوهام وآمال، وقد أسنده تراث العادات والحكايات والنبوءات.

منذ نشأة الثقافة وتأسيس الحضارة إلى تأسيس الديانات التوحيدية، حمل الدين معه كلّ ما رسّخه الجهل في أذهان الناس من خرافات وتخيّلات وما نقشه في نفوسهم من أفكار وتمثّلات، وحمل الدين دائما لواء الخلاص ولواء الرّجاء، وفعل خدّامه وكهنته بالناس باسم الرب كلّ ما أتيح لهم أن يفعلوه.

من ظلمة الجهل خرج الإنسان إلى نور العلم والبصيرة ولكن. ظلّ الدين جصين منيع من أن يطاله العقل بالتدبّر والتصحيح، ولأنّ الدين قد تحالف خدّامه مع أصحاب السلطة والجاه والمال فقد ظلّ المقدّس دائما مقدّسا حتى ولو كان كلّ عمل دنيء ومنكر ومدنّس.

هكذا كانت رحلة فكر متمرّس، جريء ومتبصّر للمفكّر هولباخ الذي درس ظاهرة الدين وفكّ رموزها وحلّ ألغازها بأن سبر أغوار النفس البشرية وفكّك مركبّاتها عسى أن تعرف الناس نفوسها وتتدبّر في أمور دينهم ودنياهم.

لوصيّف رحومة

الفصل الأول
أصل النُّذُر

من الخوف كانت النشأة الأولى
ومن الخوف قد خُلق الآلهة الأوّلين في العالم

لا يعتقد الإنسان في النُّذُر إلاّ لأنّه يخاف، وأصل خوفه يكمن في جهله. لقد كان الأنسان يجهل قوى الطبيعة، وكان يعتقد بأنها تخضع لقوة خارقة وغير مرئية وغالبا ما كان يتراءى له ان هذه القوة غاضبة عليه تارة ومساندة له تارة أخرى. ونتيجة لذلك تخيّل أنه يوجد روابط بينه وبين هذه القوة، ترهبه وتهلكه أحيانا وتشمله بالعطف والرحمة أحيانا أخرى.

وعملت مخيّلته على اكتشاف الوسائل التي تمكنّه من جعل هذه القوة مواتية له أو من تجنّب غضبها، وبما أن مخيّلته لم تكن لتظهر هذه القوة إلاّ على شكل بشر خارقين، كانت الروابط التي يقيمها مع هاته المخلوقات الغير مرئية مماثلة للروابط الانسانية، وكان دائما ما يسلك معها سلوك البشر مع البعض من بني جنسهم الذين يخشون نفوذهم ويسعون في كسب ودّهم.

لقد أسّست هذه الروابط ووسائل كسبها، وأصبح الأنسان يتصرّف تجاه ربّه مثلما يتصرّف الأدنى شأنا تجاه الاعلى منه شأنا، والرعيّة

تجاه حاكمها والابن مع أبيه ومثلما يعامل العبد سيّده والضعيف يعامل من يخشى بطشه ونزواته.

ووفقا لهذه المفاهيم جعل لنفسه مجموعة قواعد وخطّ لها برنامج سلوك يتناسب مع الافكار الحسنة أو الافكار المرعبة التي أنتجها مخياله، الذي يوجّهه مزاجه وظروفه الخاصة، حول الكائن الغير مرئي الذي يعتقد أنه يتحكّم فيه. وهكذا فإن العبادة أي منظومة السلوك والتصرّفات تجاه الرب تتوافق لزوما مع المفاهيم التي شكّلها حول الرب الذي قد صوّره لنفسه طبقا لأحاسيسه.

لقد عانى الإنسان من الويلات والشرور فرسم لنفسه إلاها مرعب يرتعد أمامه خوفا وأصبحت عبادته له عبادة ذليلة وغبيّة. ولكن عندما يظن انه يتلقى منه النعم أو عندما يخيّل إليه أنه حقيق بها فإنه يرى إلهه على هيئة اللطيف الرحيم وتصبح عبادته له أقل وضاعة وأقل حماقة

وخلاصة القول، إذا خاف الإنسان من ربه فإنه قادر على الشطط والاسراف في كل أعماله من أجل أن يسترضيه لأنه يخاله نذل وشرير وسيئ النيّة. وعندما يطمئنّ إلى ربه ويركن إليه، يقيم له التكريم اللائق وفق الفضائل والصفات الحسنة التي ينسبها إليه أو التي يرغب في أن يجدها فيه، ووفقا للمزايا التي يظن أنه تلقّاها منه.أو التي يرجاها منه.

لقد تأسّست كل العبادات والانظمة الدينية في المعمورة على إلاها يغضب ويستكين، فالناس تجابها المصائب والنكبات كما تأتي عليها ظروف تسعدها، فتعزوها كلّها إلى هذا الكائن الذي يتخيلّه الناس بشتى أنواع التخيّلات. فتارة تفزعهم فكرته وتحزنهم وتصيبهم بالإحباط وتارة أخرى تثير فيهم الاعجاب والاطمئنان والامتنان. ونتيجة لذلك، فإن العبادات التي يقيمها الناس لهذا الكائن تطبعها الاحاسيس والرغبات التي تخالجهم عندما يتقرّبون إليه: فحسب ما تتصرّف وفقه الطبيعة، يبدوا الرب تارة مرعب ومحب تارة أخرى، وأحيانا. يكون موضع خشية وأحيانا أخرى موضع الآمال والحنان، طاغية مرعب لعبيده تارة وأب حنون يعز أبنائه تارة أخرى. وكما أن الطبيعة تتغيّر ظروفها وأحوالها وتقسوا علينا وتحنّ، لا يوجد إذا إلاها ثابت في سلوكه لا يتغيّر: فالرب كريم لكن سخطه عظيم، والناس تظن ان سخطه واقع عليها.

ولأن الطبيعة متغيّرة والمناخ لا يستقر على حالة والناس تتغيّر أحوالها بين الشقاء والرخاء، فرب الناس متغيّر في صفاته وأفعاله. هنا وجب علينا البحث في أسباب تعارض الطرق وتناقضها وغرابتها التي نرى العبادات المختلفة لنفس الدين تتّبعها. فتارة نجد الناس الفانين متراحمين فرحين يقيمون الحفلات المبهجة وتارة أخرى قد أصابهم

القنوط غارقين في الحزن لا يقدرون على النظر للسماء منشغلين بالاستغفار والاضاحي يقيمون المراسم التي تظهر الحيرة الشديدة والسعي لتسكين غضب الالاه واسترضاءه.

وهكذا فإن كل ديانات العالم ليست سوى خلط مستمر ومتواتر لممارسات تكشف لنا عن الافكار المتبدّلة التي كوّنها الناس عما يعبدون.

ولنفس العلة أيضا وجب علينا أن نعزي الاختلاف في المواقف التي يبنيها، والتي سيبنيها دائما، مختلف الافراد الذين ينتمون لنفس المجتمع ويتبعون نفس الديانة حول الالاه الذي اتفقوا على خدمته: فطائفة منهم ترى فيه إلاه مرعب شرير، ترى طائفة أخرى فيه رب كريم، يرتعد أناس خوفا منه ويسعى أخرين جاهدين في محبته، لا يؤمن أناس مكره وأناس لهم فيه كل الثقة مطمئنّين.

وخلاصة القول، كلّ بأفكاره متّبع في حكمه لهواه ومزاجه وظروفه، ويستنتج ما يضرّ وما ينفع له ولأتباع المنظومة التي أقامها ليعبد ربه. فواحد ترتعد فرائسه خوفا ورعبا من ربه يجثوا على ركبتيه في معبده يرتجي رحمته، وآخر يتقرّب إليه بالشكر والامتنان لكرمه وآخر رأى أن هذا الرب يبتهج بتعذيب البشر وبرؤيتهم غارقين في الدموع فيصيبه الحزن والحيرة ويهجر كل الملذّات.

هذا أقل تسليما رأى أن الله كريم لا يغيره أن ننعم بخيراته، وذاك ظن أن إلهه غاضب شديد العقاب، هذا يراه رحيم غفور وذاك غارق في الحزن والكآبة والعجز لا ينفكّ يهتم بربه المبتلي وذاك منشغل بدنياه يلهوا فرحا لا يفكّر في ربه إلا قليلا وسرعان ما سيصبح عنه من الغافلين.

ماذا عساي أن أقول، إن الانسان يغيّر فكرته عن ربه طوال حياته بل وحتى في يومه، ولا توجد لديه أبدا نفس الفكرة على الدوام: ففكرة الانسان عن ربه في السرّاء تختلف عن فكرته عنه في الضراء، وتختلف في الصحّة والمرض وفي الصغر والكبر، في مرحلة الشباب ومرحلة النضج.

يتغيّر مفهوم الرب لدى الانسان كذلك بتبدّل أحواله: فالناس الأكثر عرضة للمهالك هم عادة الأشد خضوعا للنذر والأكثر لها تسليما.

ما يفعله الشر في الانسان أقوى دائما مما يفعله الخير وما تخلّفه الشرور فيه من طباع أقوى من مآثر الخير والنعم: وهكذا دائما ما يشغل الاه شرير باله أكثر من الاه كريم. ولهذا نرى صورة قاتمة وسوداء تطغى على كل ديانات العالم. وإننا نرى حقيقة في كل مكان كيف يهيئ الدين الناس للكآبة، يجعلهم صارمين ويحملهم على ترك المرح والملذّات وغالبا ما يجعلهم يتّخذون نمط حياة بغيض ومضادّ للطبيعة الانسانية. ولسوف نرى في كل بقاع الأرض كل البراهين التي تؤكّد هذه الحقيقة، فأينما

سنجد أن اسم الرب يدعوا أولئك المنشغلين به إلى الحزن ويجدّد فيهم دوما مشاعر الفزع ويغذي في نفوسهم الميل للقتامة والحزن، لا يجب أن نستغرب لكذا أمر، فالمصائب هي التي تجعلنا نفكّر في الالهة ونتصوّر سبل كسب رضاها. والانسان يؤمن بالنذر لأنه جاهل وجزوع، كل الفانين يعانون ويحزنون وما من أمة لتصيبها النكسات والكوارث والمحن، ولأننا نجهل الأسباب الطبيعية، دائما ما يقع اعتبار ذلك علامات على غضب السماء[1].

لقد اعتادت الشعوب على الاعتقاد بأن كل الامور هي من صنع الالهة، وإليها كانوا يلتجئون عندما يلمّ بهم الكرب والبلاء ويتقرّبون إليها بشتّى السبل دون تمحيص لكسب رضاها واتقاء غضبها، غير واعين من فرط حمقهم وحيرتهم بما هم صانعين. فلماذا إذا نحن متعجّبين إذا ما رأينا الجنس البشري يرتجف وجلا وخوفا من أرباب قاسية، لكي يسترضيها يختلق ما لا يحصى من البدع ما يحير فيه ذوي الألباب.

---

[1] اننا نرى الدى الاغريق انه كان الفلاسفة الذين كانوا يحاولون تفسير الظواهر الطبيعية، مثل الرعد والعواصف والكوارث، بأسباب فيزيائية ينعتون بالكفار وكانوا مكروهين من عامة الشعب الذي يعتقد أن هاته الاشياء هي علامات على غضب الالهة.

وإننا لنرى على امتداد بصرنا شعوباً قد تمكّنت منهم النذر جرّاء الخوف وجرّاء الجهل اللذان هما العلل الحقيقية لمصائبهم. وقد أصاب الذعر عقولهم، قد جعلوا لأنفسهم العبادات التي قيل لهم أنها السبيل الآمن لنيل رضا الالهة التي يردّ إليها، كذبا وبهتانا، كل مآسينا. فكل شقيّ من البشر وجاهل مجبول على الغباء والغفلة، تعوزه الحيلة والمقدرة، قد وضع ثقته فيمن تراءى له أنه متعلّم واثق من نفسه، فيعتبره كائن مبجّل ومكرّم من السماء، على عزاءه وشفاءه قدير[1].

يوجد داخل الأمم المستاءة التي تعاني والتي تعوزها الخبرة والتجربة فئة من الطموحين والمتحمسين أو غيرها من المحتالين التي تستغلّ جهل وجزع بني جلدتها كي تستثمر في مصائبهم، في خوفهم وفي سذاجتهم، فتتمكّن من إخضاعهم ومن جعلهم يدينون لألهتهم ولشرائعهم ويحتكمون لفتاويهم.

---

[1] من السهل علينا أن نرى كيف كان الشعب العبراني (اليهود)، الذي كان يحتقره المصريين ويسيئوا معاملته، يميل بشدّة لسماع موسى الذي وعدهم بالخلاص والذي من أجل هذا الحلم قد صدّقه ونفّذ له كل ما يطلب. يبدوا أن الإسرائيليين كانوا مصابين بداء الجذام وبداء الفيل، مدانين أو حقيرين، شبيهين بأولئك الذين يشكّلون اليوم القبيلة الاخيرة أو الطائفة لدى الهنود، والذين يشمئزون من الأخرين. كانت الديانة المسيحية في الأصل قد تبنّتها الدهماء الأشد دناءة التي اعتقدت أن عيسى سوف يحرّرها ويكرّمها.

أما الانسان الاكثر المقدام الجسور الاكثر علما ودهاء وذي خيال واسع فيتفوّق على غيره من البسطاء الضعفاء والخائفين. ومثل الذي استعصاه المرض يلوذ لأوّل مشعوذ يعترضه، يسلّم الشقي والتعيس من الناس أمره إلى مرشده على أمل أن يجد له مورد رزقه ويستطيب له العيش وتلين له قسوة الدهر.

إن الذي يعاني من الألم والخوف لا يعترض على أمر من يعده بتخفيف آلامه وأن يبدّد له شكوكه ويمكّنه من درء الكرب عنه وتبديد مخاوفه.

وهكذا يتضّح لنا كيف يهيّئ الألم والحيرة الانسان إلى أن يسلّم نفسه للنذر، فعندما تشتدّ بالقوم المصائب يعلوا صوت الافّاكين والنصّابين الذين يعدون الناس بالشّفاء والفرج، وفي الملمّات تكون الحظوة للملهَمين والأوصياء، للأنبياء وكهنة الآلهة، تعلوا مكانتهم كلما أشتدّ بالناس الحزن والعجز والالم. ويسلّم المرضى والمكرَبين من الفانين أمرهم لمن يخاطبونهم باسم الألوهية، فللديّن يسلّم من كان على فراش الموت أمره وعقله.

من الطبيعي إذا أن نرى الدجل ينتصر على السذاجة والغباء، وذوي الخبرة والكياسة والعبقرية يقوى سلطانهم ويمتدّ على الأمم الجاهلة الغارقة في الحيرة والشقاء. مثل القطيع الخائف، يجتمع العوام

حولهم يأخذون بنصحهم ويقبلون يشغف على مواعظهم، يسلّمون لهم أموهم بلا رويّة، يؤمنون بالعجائب التي يأتون بها، فينصّبونهم في أعلى المقامات. بالوعود الكاذبة والعطايا يكسبون هؤلاء ثقة الناس الذين من أعمالهم يتعجّبون ةو بالشكر والامتنان إليهم يرتهنون ويدينون.

ويعلن من أتى للناس بالأرباب ومن شرّع لهم القوانين وبيّن لهم العبادات للجاهلين أنهم قد جلبوا لهم اكتشافات عظيمة ذي نفع كثير، يكسبون ثقتهم قبل أن يحكمونهم، وحين يحيون فيهم الأمل والرجاء في كف البلاء يدينون يهم بالطاعة والولاء. ولكن هؤلاء الذين حسب الناس أنهم أتوهم بكنز ثمين قد ارتأوا أن يبقوهم في الحيرة معلّقين بين الرجاء والريبة لا يطمئنون، ووجب الإبقاء على فزعهم لكي يبقوا لأسيادهم طائعين.

وهكذا كان المشرّعين قد أمّنوا سلطانهم وأمدّوه وأضفوا عليه القداسة بالإشارة لأتباعهم على إلاه مرعب يتحفّز لمعاقبة كل من لا يلبيّ طلباتهم: فالمشرّع كان دائما الحامل لقضيّة الله، إنه المرسل وإنه الترجمان.

وهكذا مارس الدجالون المنتسبين للألوهية الحكم المطلق وأصبحوا مستبدّين وبالرعب يحكمون: تبارك الألهة إسرافهم وجرائمهم، فقد نُصّبوا طغاة الالهة نفسها وخدّامها، وهي التي باسمها يُغفر لهم الجرم والحماقات ووعد السماء يؤيّد ويبارك أهواء أولئك الذين يعلنون أوامرها

للفانين. ولقد أتى لأسماع هؤلاء الفانين أن الطبيعة المدجّجة بآلهة غيورين قد تآمرت ضدّهم وأن هذه الآلهة العظيمة مثل ملوك الارض تراقب دوما رعاياها وتعدّ أشدّ العقاب لكل تململ أو عصيان لشرائعها التي يعلنها طغاتها.

ولقد قيل إن هذه الآلهة المتحوّلة في هيئة الملوك والطغاة مثلهم شرهة غريبة الأطوار مهتمّة بممتلكات رعاياها وتحسدهم على هناهم، ولقد كان يُعتقد أن هذه الآلهة تفرض الإتاوات والهدايا والإعانات و تطلب التكريم وأن يُتضرّع إليها بالتمنيّات، وأن ترضي غرورها بالتسميات والطقوس.

كان الترجمان لهؤلاء الملوك المخفيّين وحدهم المفوّضين بالرعاية بتلك الأمور التي جعلوها على غاية من الغموض: ومن هنا أصبحوا الحاكمين الفاصلين في شريعة العابدين، المسطّرين لما يسلكه الناس تجاه آلهتهم، ذلك أنهم وحدهم من يعرفون المقاصد الإلاهية، يرون الآلهة رأي العين، ينعمون بمخاطبتها ويتلقون منها بدون وسيط الأوامر والمنهج الذي وجب إتباعه لتسكين غضبها الظفر بنعمها وكسب رضاها.

ولأن الناس كانوا قد نُبِّهوا بأن الرب ملك جبّار عليم سريع العقاب وعلى ملكه غيور، فقد اعتادوا معه دائما كما يتعاملون مع أسياد

الأرض: فقد كان هذا الكائن دائما ما يُعامَل كإنسان مميّز ومفضَّل، قوّته تجعله فوق كل القواعد المألوفة، فلا قانون فوق فضوله ومشيئته، لقد كان السلطان الحقيقي لكل الناس وكان كهنته أشدّ منه استبدادا.

إنّنا نرى أن كل ديانات العالم لم تُعمّر" أولمبوس" في حقيقة الأمر إلاّ بآلهة فاسقة قد ملئت الأرض فجورا وتلهوا بهلاك البشر، آلهة تحكم الكون بطيش نزواتها. لا يليق بها أن ينازعها أحد سلطانها، وكانت الأمم تؤمن بأنه من الحكمة أن يكون كل شيء مسموح به ومشروع لما يعبدون من الأسياد السّماويّين. لم تكن الأمم ترى في أربابها سوى أسياد فجرة مخوَّل لهم أن يفعلوا ما يشاؤون، حتى أنهم يلهون دون حساب بشقاء عبيدها من البشر فتسلّط عليهم العذاب وتصيبهم اللعنة إذا ما استنكروا أفعالها.

لقد جعلت هذه التصوّرات المظلّلة والمهلكة للاستبداد البغيض كل العبادات ذليلة وحقيرة وتافهة، ولقد كانت قد جعلت من كل الآلهة الكائنات الأكثر عداوة لمكارم الأخلاق، الأشدّ جنونا وهدما للفضائل: وهكذا تحوّلت الآلهة إلى ملك ظالم متقلّب المزاج يحظى بولاء وإجلال الشعوب التي تسعى في تملّقه بشتّى الأفعال الخسيسة ولكسب رضاه بالهدايا والأضاحي والتضرّع إليه بالصلوات: فمثله مثل كل الملوك وكل بني البشر الذين تحرّكهم المصلحة والرغبة في امتلاك أموال الآخرين وجني ثمرة أتعابهم.

وكانت قد سادت فكرة أن ملك الملك يطلب الإتاوات ويحسد مخلوقاته على ما يملكون ومن هنائهم قد يغار، و بل يمكن أن يصيبه الندم على الميزات والنعم التي وهبها لهم. وخلاصة القول، فإن هذا الإله قد حمل صفات الملك الغريب الأطوار الذي ينزع بيسراه ما قدّمت يمناه.

ونتيجة لهذه المفاهيم الغريبة، كانت قد تكوّنت لدى كل الديانات صورة لآلهة نهمة وشرهة، تجذبها رائحة اللّحم والشواء[1]. ولكي يشُبع الناس شهوات آلهتهم، يذهبوا غيرتها، ويشبعوا شجعها ويسكّنوا جوعها، كانوا يقدّمون لهم الأضاحي والقرابين بمالهم ومن أزكى الطعام، ويبنون لها قصورا تليق بمقامها.

لابد أنّ كل السمات المفجعة التي رسم بها مؤسّسي الديانات آلهتهم كانت قد جعلت من هذه الآلهة شريّرة وقاسية ولا يمكن لعبّادها أن يكونوا انسانيّين مسالمين. وإذا ما اعتادت الأمم ألا ترى في آلهتها سوى وحوش متعطّشة للدّماء، فكان لا بد لها أن تعتقد أن بالدم يمكن كسب

[1] نلوم على آلهة الوثنية شراهتها وجشعها إلاّ أن إلاه اليهود منشغل أكثر من الالهة الأخرى بالمأكولات التي يجب أن تُقدَّم له، فهو يصرّ مطوّلا وبإلحاح على الأضاحي التي أشدّ ما تبهجه وعلى الطريقة التي يجب أن يقدّم بها شعبه له المأكولات. وأخيرا إنه يشترط على الإسرائيليين ألا يتقدّمون له خالية أياديهم. الإصحاح الخامس (الشتات)، الفصل الثالث والعشرين، الآية الخامس عشر

رضاها؛ اعتقدت الأمم أن خدمة الآلهة يكمن في إشباع شهواتها، بتقديم الأضاحي من البشر قرابين لها، وبإبادة شعوبا بأكملها لاسترضائها، والتعذيب والاضطهاد والتدمير باسمها.

هكذا كانت قد سالت دماء الناس في كل الهياكل، والذبائح المشمئزّة والأكثر وحشيّة وإيلاما قد أُعتبرَت الأكثر إمتاعا للآلهة التي تتغذّى على لحم البشر؛ شعوبا قد جعلت من آلاف البشر قرابين لآلهتها، وشعوبا أخرى تسكّن غضب آلهتها بدماء ملوكهم أنفسهم، وحتى الأمهات، نعم الأمهات، تنتزع أطفالهنّ من صدورهنّ وتقدّمها طعاما للآلهة. فمن شدّة التفكير في الإله المرعب والتدقيق في صور القسوة لديه، كانت قد وصلت أمم مستنيرة إلى حدّ الخبال في الاعتقاد بأن إلاه الكون قد أقتضى موت ابنه من أجل أن يغفر للجنس البشري خطاياه؛ أفلم يوجد ما هم أقل من موت ابن الإله لكي يستكين غضبه؟!، لقد كان ذلك أقصى درجة في الإسراف اللاّهوتي، فمن الصعب أن يذهب اللاّهوت في إسرافه إلى أبعد من ذلك.

تلك كانت تبعات الأفكار المشؤومة التي صاغتها الأمم لآلهتها؛ فلقد صوّرها المشرّعون بسمات الخبث والجنون، أما الناس فقد كانوا يتصرّفون تجاهها مثل العبيد التائهة التي تسعى جاهدة في إرضاء أسيادها والتكهّن برغباتهم وخدمتها. ولقد جعل المشرّعون الناسَ متواطئين معهم في خدمة الآلهة وتحقيق شهواتها.

ولقد كانت الأمم تعتبر أن الله دائما ما كان منزعجا مغتاظا من الجنس البشري وأنّ ذلك هو سبب كل آلامه ومصائبه، وهذا ما جعلها تلتجأ إلى ممارسات شنيعة وبغيضة؛ وشيئا فشيئا اقتنعت بأن المراسم والاحتفالات جديرة بأن تُقام وبأن للوحشية الدينية وللجنون المقدّس قدر من الصواب والحكمة والفضيلة، وبالتالي وجدت نزوات وشهوات الآلهة في هذا الهراء دعامة قويّة، وأصبحت لعبادتهم من الفظاعة ما تنتفض لها القلوب الأشدّ قسوة.

إن أثر الملمّات على الفانين أكبر من أثر النعم، يصيبهم الذعر كلمّا واجهوا ملكهم السّماوي المتربّص بهم، ومثلما رأينا، فإن المشرّعين كانوا يعتنون برسم إلاها قاس ومنتقم ومخيف، فلقد أحسّوا أن الإله المرعب يلائم مصلحتهم وهو القادر وحده على جعل الشعوب طيّعة وسهلة الانقياد خلافا لإله ليّن ومتساهل تُعصى أوامره دون عقاب، وإذا ما نُسبت الطيبة لهذا الاله فإن القسوة لديه أشدّ وأعظم، قسوة محيّرة تجلب الانتباه.

لقد ولدت الآلهة من رحم الخوف ولكن مكر وخداع المشرّعين واضعي القوانين جعل هذه الآلهة أكثر رعبا؛ لقد لمسوا في أنفسهم الحاجة لتغذية الخوف والرعب في قلوب الناس واستدامتها. لم تكن لهذه السياسة الخسيسة أن تجعل من الناس أخيارا تُلزمهم بالفضيلة وتجعلهم

في توافق وتناغم مع قوانين الطبيعة، ولكن لتجعلهم منصاعين لمرشديهم منقادين لا يتدبّرون أمورهم ولا يعقِلون، لقد كانت قد جعلتهم يحتقرون ذواتهم ويحطّون من شأن أنفسهم، وأخمدت كل طاقة فيهم وكل جرأة وقتلت فيهم كل إحساس بالنخوة والعزّة والكرامة، كسرت همّة الرجال وصرفت أنظارهم عن كل ما من شأنه أن يبهجهم ولا يكدّرهم. بتشويش أذهانهم وتهييج وإثارة فضولهم دون إشباعه، وبمداعبة خيالهم واسكات صوت العقل فيهم أمكن إبقاءهم تحت نير العبوديّة.

إنه لمن المحتمل أن يقال لنا أن المشرّعين المستنيرين كانوا قد اعتقدوا أنهم وجدوا أقوى باعث يدفع الناس للعيش المشترك عندما أتوا لهم بإله مرعب مخيف ومروّع. لكن إذا أردنا للفانين أن يكونوا عقلاء لا يجب أن نخدعهم ولا يجب أن نكرههم على التّخلي عن العقل والحكمة، لا يجب أبدا أن نخبرهم بوجود تعاليم أهمّ وأصفى من تعاليم الطبيعة ومبادئها.

يجب أن نعرض عليهم الحقيقة ونحسّسهم بالروابط التي تصل بينهم، يجب أن يتلقّوا التربية والقوانين التي تحثّهم وتعوّدهم وتجبرهم على العيش في تناغم مع الطبيعة؛ فخداع الناس وإخفاء الحقيقة عليهم وتشويهها هو من أقوى السبل لتظليلهم وجهلهم أشرارا مثل منعهم من استعمال عقولهم وأمرهم بالمنكر باسم السماء.

هكذا كان نهج كل من أدخل الآلهة والديانات والقوانين للأمم، وعوض أن ينيروا عقولهم ويصقلوا أذهانهم ويعلّمونهم مكارم الأخلاق ويدرّبونهم على مسالك الطبيعة، لم يكونوا ليخاطبوهم إلاّ بالأحاجي والرموز ويعرضون عليهم الألغاز ولا يحدثونهم إلاّ الخرافات، وما كانوا بذلك إلاّ يزيدونهم من شكوكهم ويضاعفون حيرتهم ومخاوفهم، لقد استوجبوا على أنفسهم استغفال الناس وثنيهم على التفكّر والتدبّر في أمور دينهم ودنياهم.

وبسبب سذاجتهم وثقتهم العمياء في هؤلاء المشرّعين تطبّعت الشعوب على العبوديّة تتملّكهم الحيرة ليس لهم منها مخرج، فدائما ما كانوا تحت رحمة مرشديهم الذين لا يدينون بمبادئ الأخلاق بعيدين عن كل الفضائل من الأعمال، لم يكن لهم رادع لا يخافون عقاب، جشعين، أفّاكين لا إنسانيّين، باسم السماء كانوا قد جعلوا الأمم شركاء لهم في شططهم وإسرافهم وأدوات لتحقيق نزواتهم.

إن الخوف والجهل مصدران متلازمان لضلال وضياع الجنس البشري؛ فليس من الغريب أن آلهة وُلدت من رحم المآسي والذعر والمحن، وجعلها الدجل والسياسة أكثر رعبا كانت قد قادت الناس شيئا فشيئا إلى الهذيان المقيت. وإذا كان الرعب السابق لنشأة الآلهة قد صرف الناس عن التدبّر، وإذا كان الجهل بقوى الطبيعة كان قد جعلهم

ينكرون فعلها للآفات وللكوارث التي تقضّ مضاجعهم، كان من اللازم أن تكون الوسائل التي اخترعوها لتلافي هذه الشرور ولتلطيف الأقدار التي ينسبون إليها هذه الشرور أن تكون غريبة وسخيفة مثل الآلهة التي كانوا قد صنعوها لأنفسهم.

فكلّ متبّعُ في هاته النزوات مخيّلته أو مخيّلة مرشديه، وكلما كانت الآلهة مسرفة وشرّيرة كلما كانت الشعائر التي يُظنّ أنها تشرّف الآلهة وتكرّمها مسرفة وغريبة. فليس للفكر مكان في كل ما نشأ وتأسّس على غير تعقّل وتدبّر منذ البداية، ولقد كانت بالتالي كل الشعائر والطرائق التي تُقام للقوى الخفيّة التي أُعتِقد أنها تحكم العالم تهين الطبيعة والحس السليم. وإذا كان الشقاء والضعف وانعدام الخبرة يؤهّلون، كما رأينا، الانسان للسذاجة والحمق، فالسلطة والثقة العمياء والعجز والتعوّد يلزمونه بآراء وعادات لم يكن له أبدا أن يتفحّصها ولا أن يتجرّأ على أن ينقده. وهكذا وبدون أن يعي يمتلئ الانسان بالأصوام، ويعتاد على ترك الحكمة وإهمال العقل ويصبح ألعوبة لخباله وخبال الآخرين. ولا يمكن أن نرى إلى أين يمكن أن يحمله العمى والجنون، فالضلالات التي نراها مكينة ومقدّسة تأتي تباعا، متشعّبة وممتدّة.

الفصل الثاني
ديانات مختلفة
(كلها باطلة ولا توجد ديانة صحيحة)
الوحي
(الوحي في غياب الدين الحق)

لقد كان على الآلهة التي صنعها الخيال على هيئات متنوّعة أن تتبّع أهواء ونزوات من أتى بخبرها، ولم تكن طرق عبادتها سوى ما أنتجته هذه النزوات. وإذا ما أُلزم كل فرد بأن يجعل لنفسه إلهه الاها خاص به بتنظيمه الذاتي ووفق ظروفه الخاصة، وإذا كان من المحال أن تتلاقى أو تتشابه أفكار اثنين من البشر حول آلهتهما. فليس من الغريب أن تتنوّع محتويات هذه الأفكار وتعدّد؛ ولهذا يمكن أن نقرّ أنه لا يوجد شخصين في العالم لهم نفس الديانة، و كل الديانات في العالم تتلاقى في عدّة جوانب لكن كل فرد في نفس البلد له رؤيته الخاصة وتصوّراته لدينه لإلهه؛ فهو يتقبّل دين بلده برمّته ولكنه يبني الجزئيّات فيه بطريقته الخاصة و يؤسّس عليها أفكاره ومفاهيمه الذاتية، فلا يوجد إذا من الأديان ما يتناسب ضرورة مع كل البشر.

ومثلما يختلف البشر في أفكارهم ومزاجهم وانفعالاتهم وانتظاراهم، لا يستطيعون أن يعبدوا نفس الآلهة ولا يمكن أن تناسب نفس الشعائر التي تُقام لها كل بني البشر، ولا المفاهيم والتصوّرات حول هذه الآلهة

يمكن أن تكون نفسها؛ فلا يمكن للجبان و للشجاع والمقدام نفس التصوّر لنفس الاله ولا إلاه العبد المحكوم بالاستبداد يمكن أن يكون نفس إلاه المواطن الحر الواعي بحقوقه وواجباته، والإله في بيئة خصبة ومناخ معتدل لا يمكن أن يكون الإله نفسه في بيئة قاسية ومناخ جاف، وإله رجل قويّ ومتعافي لا يمكن أن يكون نفس إله رجل سقيم أشتدّ به المرض والعجز والوهن.

وكنتيجة لازمة، على الدين أن يتّبع المفاهيم التي نكوّنها نحن البشر حول الآلهة، ولن يكون للناس المقاييس نفسها التي يبتوّن على أساسها في المسائل التي أنتجتها مخيّلتهم؛ وبالتالي فإننا مجبَرين على استخلاص الحقيقة التي مفادها أنه ليس هناك دين حقيقي وأن الجنس البشري لا يمكن أن يتّفق على نفس المفاهيم وأن يعالج نفس المسائل التي هي أصلا محض خيال لكل انسان له فيها نظر ورأي.

إنه لمن الحماقة المفزعة أن نتجرّأ على تقرير مَن هم البشر أو من هي الأمم التي حلمها أفضل أو من أحلامه تصلح أن تكون قواعد لسلوك الآخرين. لا يمكن أي ديانة أن تكون صحيحة إلاّ إذا كانت قد تأسّست على إلاه حقيقي، لكن كيف لنا وسط هذا الحشد من الآلهة المتنوّعة التي تعبدها الأمم أن نميّز ونتبيّن الإله الحقيقي؟ ومن سيكون الأقوى وكل الآلهة لها نفس السلطان، وهل يكون المكتمل بالكرم والحكمة والكياسة ونحن كل الأمم تأنّ تحت وطأة آلامها ومآسيها الحسية والمعنويّة!

هل هو الإله الأشدّ حكمة ونحن، وحسرتاه، نرى الآلهة في كل مكان لا يتكلّمون إلاّ هراء!

هل هو الإله الذي يجعل عُبّاده من الناس الأكثر سعادة، ونحن أينما حللنا نرى الدين العلّة الأولى لاسترقاقهم ومصدر الأحكام الدينية والسياسية وصراعاتهم الدموية وحقدهم المتأصّل الدفين وعلّة عذاباتهم الداخلية وأحزانهم ومآسيهم الأشدّ لوعة؟

هل سيكون الإله الأنقى في أخلاقه التي تتناسب أكثر مع طبيعة الإنسانية الحقيقية، ونحن نرى في كل مكان كيف تتبع الطبيعة والعقل والأخلاق نزوات إله متبدّل أو لأهواء من نطق على ألسنتهم؛ هؤلاء الذين استعاضوا عن موجبات العقل ومصلحة المجتمع بفروض سخيفة وحتى بجرائم حقيقية. وأخيرا، هل هو ذلك الإله الذي يجعل البشر أخيارا؟!

ونحن لا نرى في كل مكان سوى الفانين من البشر ناسين لدنياهم ولمآسيهم يسعون في تحقيق رغبات آلهتهم وشهواتها، تربّيهم على ذلك العادات والظنون وتطبّعهم الحكومات وتعدّل مزاجهم وفق ما تقتضي أمزجة الألهة؟! وعلى هذا الحال لا يمكن للدين أن يقرّر للناس أفكارهم، ولا يوجد دين يعمل على إسعادهم.

ربما سيُقال لنا أن ديانات العالم تتفّق على تقديس آلهة شريرة، ولكن يمكننا مع ذلك أن نتجنّب المساوئ الناتجة عن هذا التصوّر الخاطئ بالفرضيّة القائلة أن الله خيّر، أُجيب بأن هذه الفرضيّة في غاية الاستحالة وأنها غير ممكنة في جملتها؛ فعندما نفترض أن الله هو خالق كل شيء، سيكون من اللازم إذا أن نعزو إليه الخير والشرور التي تحدث في مسرح هذا العالم، وإذا ما امتنعنا أن نردّ إليه غير الخير، ونحن نرى العفاف و الفضيلة تهدّدهما الشرور في هذه الحياة الدنيا من كل جانب، فسنجد أنفسنا مُجبَرين على تقبّل حقيقة إمّا أن هذا الإله الخيّر لا يستطيع منع هذه الشرور، وإما أنّ هذا الإله ذي الكمال يوافق عليها و يسمح بحكمته بحدوثها. ولا تتماشى كل هذه الأفكار مع فكرة الإله القدير الحكيم؛ فإذا كان الله الخيّر هو خالق الطبيعة وسيّدها، فالفوضى الشاملة والعميقة التي نجدها تعمّ العالم تكذّب في كل حين صفة الخير التي نصفه بها. فليس بالإمكان إذا أن نقدّم للبشر إلاها يكون باستمرار نموذجا لسلوكهم وموضع حبّهم الخالص.

سيقال لنا أن الدين هو منظومة الواجبات التي يدين بها الانسان لربه؛ إذا سلّمنا بهذا فيجب أن تكون هذه الفروض قد تأسّست على روابط دائمة وثابتة تجمع بين الله والانسان، ولكن سيكون من اللاّزم معرفة طبيعة هذا الإله قبل البحث في هذه الروابط، كما يجب أن نتأكّد

من صفاته الجوهرية ومزاياه وعلى دراية بمشيئته، كما يجب علينا أن نكون على قناعة أن أمره يصدر عن ذاته وليس موضوع أو محرّف من طرف أولئك الذين يتكلّمون باسمه.

ومن جهة أخرى، ماهي الروابط الحقيقية التي يمكن أن تصل الله بالبشر؟، فلنكفّ عن تكرار القول بأن الله لا يدين للإنسان بشيء؛ وهو سيد نفسه في منحه رحمته أو حبسها عنه، وهو الحقيق بأن يحرمه من رحمته ونعمه التي قدّر ألا يهبها إيّاه، وهو القادر بعدله أن يعاقبه على خطاياه التي يقدر أن يمنع نفسه على ارتكابها؟! ماهي الروابط التي يمكن أن توجد بين البشر وبين قدير مستبدّ لا يراعي سوى نزواته؟

لا تفترض، مع ذلك، كل الأديان روابط بين الله و البشر فحسب، بل تفترض أيضا بعض الوحي والتجلّي له من أجل سنّ قوانينه، ولكن من ضمن كل الوحي المُنزّل على الشعوب الأرض، ما هو الوحي الذي وجب علينا إتّباعه؟، وهل سنتقيّد بالوحي الذي يعطينا الفكرة الاوضح عن الإله، والحال أن كل ما أُنزل من الوحي على البشر قد أجمع على تكبيل العقل وتصفيده، على منع التدبّر والقياس، وعلى عرض المعجزات علينا ورمي أذهاننا في غياهب الحيرة والذهول؛ فكل التنزيلات تقدّم لنا آلهة غامضة و ألغاز مبهمة ووحي لا تدركه العقول وقوانين تعارض الهدى والحس السليم والفطرة السليمة.

فكلّها تقودنا لحكم البشر، لكن لكي ندين بهذا الحكم علينا أن نجد ما يدفعنا لأن نثق في أولئك الذين يدّعون أنهم أكثر رشادا منّا وعلما بالمقاصد الإلهية التي يخبروننا بها، وإذا ما تفكّرنا قليلا، فسنكون مُجبرين على التسليم بأنه لا يمكن لفانٍ من البشر أن يُكوّن فكرة على إله يُقال إنه مطلق لا محدود، وأنه لم يكن للبشر ولن يكون لهم أي مفهوم واقعي للكائن الذي خُيّلَ لهم أنهم مُجبرين على تقديسه وتشريفه بعباداتهم وشعائرهم.

ونتيجة لذلك، فإنّنا إلى أن نخلص إلى انه لا يوجد دين حقيقي فوق الأرض، وأنه ليس للبشر سوى النذر والأماني، أي أنه لا يوجد سوى أنظمة سلوك سخيفة وغبية ومتعسّفة وأراء ليس لها من الحق شيء. لا يوجد إطلاقا أي تنزيل يهدف إلى زوال الجهل والخوف والريبة التي يعاني منها البشر، ولا يوجد تنزيل ينير بصيرتنا حول هذا الكائن، بل يوجد من التنزيل ما يرمي الفكر الإنساني في ظلمات كثيفة من الحيرة والذهول والخوف، وما يصيبه بالإرباك جرّاء التناقضات الجليّة التي ينطق بها.

يُقال لنا، في واقع الأمر، بأنّ التنزيل هو دليل على أن الله خيّر، وهو الذي برحمته تواضع بأن ظهر لأناس معيّنين قد أختارهم ليظهر إليهم ويعرّفهم بمشيئته ومقاصده، وليدلّهم على أسباب نيل رضاه ورحمته

وكسب نعمه، ولكن ألا يُقيم هذا أيضا الدليل على أن الله الذي يتجلّى لبعض البشر المعيّنين ليس بخيّر ولا منصف؟ فإذا كان كل البشر يحتاج أن يتعرّف على الذات الإلهية وأن يتصرّف وفقا لغاياتها ومقاصدها، فوجب أن يطال الوحي والبرهان كل بني البشر؛ إن الوحي المخصوص يعلن عن إله يرعى شعبا مخصوص أو شعبا مختارا، ولكنه مجحف وقاس على باقي الشعوب الأخرى التي أراد أن يتركها على ضلالاتها؛ وبالتالي فإن كل وحي حصري ومخصوص ينزع عن رب البشر الفانين الواحد كل الخير وكل العدل.

إن كل تنزيل لا يزدري بالضرورة الحكمة الإلهية وبالمثل لا يشمئزّ من الطبيعة الإنسانية، وحتى إذا كان هذا التنزيل قد جُعِل لتيسير معرفة الخالق وفهم قوانينه ومقاصده للناس، فإن هذا السبب لا يعدوا كونه لحظي ومؤقّت وخادع.

يصيب كل ما يسري بين أيدي الناس وألسنتهم التحريف والتشويه باختلاف الروايات وتبدّل اللغات، وبحب كل ما هو عجيب وبالميل للكذب وللمغالاة، وباختلاف وجهات النظر وسعة السمع والفهم والإدراك، وبالتنوّع اللامحدود للذوات والمصالح والآراء.

وهكذا، ولكي يكون التنزيل ثابت وصالح لكل زمان ومكان، وجب على الانسان أن يتغيّر في طبيعته وأن يتطوّر نحو الكمال، ولكن

نظرا لما تتميّز به الطبيعة البشرية كان لابد لكل الوحي والتنزيلات أن تصبح بمرور الوقت عبارة على نسيج من الخرافات وأضغاث أحلام أو تخيّلات تتبدّل بتبدُّل الراوين والمفسّرين وبتغيّر من يتلقّاها.

هل نجد صعوبة اليوم في أن نلاحظ ما يحدث اليوم كل يوم في المجتمعات التي نعيش فيها؟! ألا نرى أن كل ما يحدث في حيّ من المدينة يُحرّف إذا تناقلته الأفواه، ويصبح كتلة من التناقضات والأكاذيب قبل أن يصل إلى مسامعنا؟، وكم من الأشخاص الذين لا يروون إلاّ ما رأته أعينهم وأتى إلى مسامعهم؟، كيف لنا بوحي يصمد أمام الزمن، أمام الأمم والشعوب الجاهلة، أمام الكهنة الشغوفين المتحمّسين أو المفترين أو الأفّاكين بمقتضى مصالحهم المتبدّلة؟

ونتيجة لذلك، إذا كان هناك منذ القدم تنزيل ووحي حقيقي، فإنه قد أصابه لا محالة الفساد والتحريف وأصبح شيئا فشيئا نسج من المغالطات يصعب أن نتبيّن داخله الحقيقة الأولى الأصلية؛ سوف لن يكون أذا سوى أداة ووسيلة مشينة ومخزية لا تتوافق مع طبيعة الانسان ولا تتماشى مع المقاصد الإلهية الثابتة التي لا تتغيّر.

في حقيقة الأمر، إذا كان الإله قد تجلّى في وقت من الأوقات، فإنّه قد كفّ على أن يكون الصمد الذي لا يتغيّر؛ فقد يشاء في زمن ما لا يشاء في زمن غيره، فقد حرم الناس من كل ما هو ضروري في عصر من

العصور لكي يهبه لهم فيما بعد؛ فهو إمّا أنه قد وجد المقدرة فجأة على أن يهبهم الأنوار والمعرفة التي كانوا يحتاجونها فيما سبق، وإمّا أنه كانت له المقدرة على ذلك ولكن لم يشأ، بحكمته، أن يهبهم إيّاها في ذلك الزمن، وهذا يمسّ من مقدرته ومن عدالته وكرمه[1]

ومن جهة أخرى فإن التنزيل المتبدّل والواقع في التحريف لا يمكن أن يكون متوافق مع الصفات الإلهية؛ إذا كان الله على العرش قد استوى، من أعالي السماء يعلن باستمرار أحكامه ومقاصده لشعوب الأرض المختلفة التي تقبع تحت أقدامه، وإذا كان يعلنها بكل لهجات الشعوب المختلفة، فلا يمكن أن يحملهم على الإيمان به وعلى التوحيد إلاّ إذا ما غيّر في طبيعة الانسان ذاته.

---

[1] يقول لنا اللاّهوتيين أن الوحي العبراني(اليهودي)كان قد أُنزل لكي يُصلح الدين الطبيعي بين الناس، وأن الوثنية قد مُحيت من على وجه الأرض. لكن الوحي اليهودي، ورغم أنه وحي إلهي، فإنه لم يكن وحي على نحو من الكمال، وكان قد عوّضه التنزيل المسيحي الذي أعلن عنه المسيح، والذي أتى لاستدراك النقائص التي وضعها الله أو تركها في تنزيله السابق.

وبكل إيمان صادق، هل تتطابق هذه المفاهيم مع المفاهيم التي علينا صياغتها لإله غير محدود في كماله؟، هل هو قدير ولم يجعل فجأة من اليهود الذين كانوا أمناء السجلاّت وشهوانيّين، متقبّلين لوحي أكثر كمالا من ذلك الذي وهبه لهم في السابق؟

يضلّ بني البشر على حالهم ويضلّ الناس يفهمون ويفسّرون وحيه بطرق مختلفة، وتنزيله لن يكون سوى مناسبة دائمة للجدال فيما بينهم، وربما في كل ثورة على كل كوكب الأرض سيجدهم الله يتقاتلون من أجل معرفة على أي نحو تُفهم أوامره وتعليماته التي أُعطت لهم في اليوم المنصرم.

ماذا سيكون بالنتيجة؟، إذا كان وحيا وقتي وعابر فسيكون عبثي ومجرّد سخافة، وأما إذا كان وحيا ثابتا ومستمر لا يتغيّر، سيصير بلاء عظيم لجنسنا إذا ما تركناه على حاله، وإذا ما حافظنا على ترتيبه.

وهكذا فإنه كان من الأفضل من على القدير أن يكون قد أعاد صنع الانسان من جديد لكي يعطيه تنزيل يفيده، على أن يتكبّد عناء تعليمه باستمرار وبنفسه. كل التنزيلات الموجودة على وجه الأرض كانت قد وُضعت بواسطة البشر، ولقد استخدمت الإرادة الالاهية في كل بلد أحد بني البشر الفانين لكي تُعرّف بمشيئتها ومقاصدها السامية.

لكن لماذا وضعت الألوهية على لسان أحد الفانين من البشر الخطّائين والأفّاكين ما يمكن أن تُلهمه مباشرة في صدور المخلوقات التي تريد هدايتها؟، ما الفائدة من كل هذه المعجزات المزعومة التي جُعلت لتُعاضد قول البشر، في حين أنه ليس في حاجة سوى لتدخّل الإرادة الإلهية لتغيير الطبيعة البشرية ولإقناع كل المعمورة بها تحتاج أن تعرفه

وأن تفعله. فإله حاضر في كل مكان وحاضر في كل الأرواح ليس له أن يحادثها مباشرة؛ فلماذا ينحوا هذا المنحى السيئ والمشبوه والمعرّضِ للخطأ، والحال أن له الوسيلة الفضلى والآمنة للتعريف بمشيئته وبمقاصده.

لماذا يتصرّف كإنسان وهو القادر على أن يتصرّف كإله؟! لماذا يلتجأ إلى الوسيلة المشبوهة والغير موثوقة على الوسيلة الآمنة والموثوقة التي لا لبس فيها؟!، إنه كائن غريب هذا الإله الذي يدعوا له اللاّهوتيّين، فهو يتّصف بكل الصفات الإلهية التي لا يفهمها الانسان، ومع ذلك دائما ما يتصرّف كإنسان. لكن وبالرجوع إلى كل التنزيلات التي نعزوها إليه في كل بقاع الأرض، هل سيسلك سلوك إنسان حكيم وغاية في الطيبة والعدل، القوي القدير، والحكيم البصير والثابت؟ بدون أدنى شك لا، إنه يتكلّم لكيلا يُسمَع، إنه يختار ثلّة من البشر ويغضب على ما سواهم، وإنه يسلك سلوك سلطان متجبّر لا يدين بشيء لأحد.

إلاّ أن قوّته ومقدرته التامّة لا تمنع فشل مخطّطاته؛ فالإنسان له القدرة على انتهاك النظام الذي يرتضيه الإله والإخلال به، كما يستطيع أن يعصيه ويثور على أحكامه. وأخيرا ورغم أنه صمد ثابت لا يتغير فإن هذا الإله دائما ما يكون منشغل بخلق عالمه وتثبيت قوانينه وبهدمه وإعادة إنشائه من جديد، والإنسان يدعوه في كلّ حين بأن يبدّل أحواله

ويسخّر له الكون ونواميسه؛ فالجنس البشري الذي خُلق ليقدّسه ويعظّمه لا يفعل سوى أنه يزعجه تارة ويبهجه تارة أخرى، يثير غضبه بأعماله المشينة الدائمة لكي يسترضيه ويسكّن غضبه بالصلوات والتضرّع والطقوس الحقيرة اللاّمتناهية.

بكل اختصار، لقد كان الخالق قد أصبح الإله الأكثر تبدّلا والأكثر حزنا بين الكائنات بسبب الحريّة المشؤومة القاتلة التي وهبها لمخلوقاته العاقلة التي تعيق سير مقاصده وغاياته. أبدا لم يتوصّل القدير الحكيم إلى إلهامهم لا الأفكار ولا المؤهّلات التي يريدها لهم !؛ هيّن عليه أن يربك عناصر الطبيعة ويقلبها وأن يوقف سير الطبيعة ونظامها وأن يفعل المعجزات، ولكن يصعب عليه أن يبدّل قلوب البشر التي كان يحملها بكفّيه؟!

هل تكون القوانين التي احتوتها كل التنزيلات والتي سُنّت باسم الحكمة الإلهية جديرة بإنسان حكيم؟، إنها قوانين صبيانيّة وغبيّة أينما وُجدت؛ فهي تدل على إله غريب الأطوار منشغل بأعمال متهوّرة وبالاحتفالات السخيفة المسرفة، إنها تُشير إلى إله شره يطمع في الهدايا والقرابين. إنها قوانين تقدّم لنا إله مجيد يزدري الدناءة والخزي والعار وتملّق أحبابه والمفضلّين لديه، ولا يهب شيئا لعباده إلاّ ما انتزعوه بقوة الصلوات والتذلّل والالحاف.

هل تعرض علينا هذه التنزيلات إلهً خيّر كريم ومثالا يُحتذى به لدى بني البشر ؟، إنها تُشير إلى إله غاوي يحيك المكائد، مثل قاضي جائر يعاقب الناس على الذنوب التي سمح بها ودعي إلى ارتكابها، إنه المهلك والفاتك بالشعوب التي ينتقم من جهلها ويعاقبهم على افتقادهم الانوار والقوة التي لم يشأ ان يهبها لهم. إنه مثل العدوّ اللدود للعقل البشري ومثل الطاغية الأشد خبالا.

وبقلوب قد أُحكمت أقفالها عن كل مكارم الأخلاق، خُيّل إلينا أننا مُجبَرين على أن نمدح في الله ما نذمّه عند الانسان ونكرهه، وأن نعيب في الانسان ما نمدحه ونجلّه فيه؛ تُحدّثنا كل ديانات العالم عن إله تدّعي أنها تعرفه حق المعرفة وتشدّد على أنه الإله الوحيد الحقيقي، والجدير بالمحبة والتقديس، ولكنه حالما يريد العاقل منّا تدبّر عقله والنظر في الألقاب والأسماء وادعاءات هذا الإله، فلن يجد سوى هكذا جنون وحماقة. في كل مكان سيرى التناقضات الأكثر إرباكا للأذهان والأثار الجليّة للعيان والسلوك الأكثر تخبّطا، سيجد العاقل أن الدين القائم في كل البلدان منذ عهد الجاهلية والهمجية ليس سوى ما ورثه الأبناء من آثار لحماقة الآباء؛ سيرى الحماسة والسلطة والدجل الذي يعضده الطغيان يُخرسون كل صوت للحقيقة ويعيقون الخبرة والعقل والفطرة السليمة. وصفوة القول، إذا أردنا ونحن متحرّرين من كل وصم وتحيّز،

أن نتأمّل في هذه الديانات التي تأخذ بألباب الناس ومن يحكمونهم، فإننا نلمس في كل الآلهة الخرف والخبال والخداع؛ إننا لا نرى سوى الظلمات والعجائب في المعتقدات التي ننسبها إليهم ونجد الغريب من النعوت والصفات التي نصفها بهم. لا نرى سوى الهذيان في الطقوس؛ فالكلّ يتآمر ويتحّد لكي يثبتوا لنا أن الدين، بعيدا على أن يكون الوسيلة الفضلى لتحقيق السعادة والخلاص للبشر، هو النبع المشؤوم الذي منه أتت كل آلامنا ومآسينا.

الفصل الثالث

كل الديانات تُعطينا أفكار متناقضة وكئيبة للرّبوبية
في الوثنية والشرك
وفي التوحيد وعقيدة اللّٰه الواحد

لقد كان لكل شعب مشرّعيه ومبشّريه، وكان كل مشرّع قد أتى بإله مخصوص وبعبادات وطقوس قد صنعها وغيّر فيها وفق ما ارتأى ووفق الوصم الذي تربّى عليه هو أيضا، وفق مصالحه وأحاسيسه التي أراد أن يبعثها فيمن حاز ثقتهم واحترامهم. وغالبا ما يتحمّس ويخادع المشرّع في رسمه للربوبيّة، وفي الأساطير والخرافات التي يأتي بها، وفي الأوامر التي يأذن بها وفي السبل التي يشير بها كي يُرضي الآلهة؛ إنه لا يعتمد في ذلك سوى على مخيّلته وتخيّلاته ولا يراعي سوى مصالحه ولا يرجع في أحكامه إلاّ لآرائه المغلوطة التي يُقنع بها أولئك الذين يحملونها آنفا.

فبقدر ما كانت هناك آلهة وديانات كان هناك مُشرّعين ومُلهَمين؛ لم تكن الآلهة سوى شخصيّات من صنع أولئك الذين أتوا بها للشعوب، ولم تكن لها من قواعد سلوك وقوانين إلاّ ما قرّرته هؤلاء الملهَمين. لقد كان للمشرّع الطموح والمُخادع والقاسي أن يهدي العبيد واللصوص الذين اختاروه قائدا لهم لإله كان قد هيّأه على شاكلته البغيضة[1].

---

[1] أي من كان سيقرأ التوراة نفسها سوف يجد أن الشعب اليهودي لم يكن سوى أمة من اللصوص وقُطاع الطرق (....) التي استطاع موسى أن يجعلها تثور ضد حاكمها، والتي أعطاها، من شدّة قساوتهم، إلاها مُتوحّشا وشرّير مثلها يتشابه معها في طريقة التفكير.

لقد صنع المُشرّع العدواني البغيض ذو المزاج المتقلّب الإله على شاكلته، أما المحارب والفاتح والمُحتل فقد تمثّلوا الكائن الأسمى مثل ملك باسل جسور شجاع لا يعتدّ سوى بالشجاعة. ولقد جعل الدجّال والشبقي من إلهه صديق الشهوة والمتعة، ولقد جعل المُلهَم الزاهد والمتوحّشة آدابه من إلهه عدوّ اللذّات.

لقد وجب أيضا الرجوع إلى مؤهّلات وطبائع الشعوب وطرق تفكيرها؛ فالشرقيّين الذين اعتادوا على

وانصاعوا دائما إلى مستبدّيهم قساة، محصّنين وعديمي الرحمة، الذين لا يغفرون أدنى عصيان ويقابلونه أشدّ العقاب، كان لهم آلهة أشدّ قسوة من ملوكهم. لقد كانوا عبيدا لكهنتهم ولأسيادهم الذين أصابوهم بشتّى النذر والوصم المهين. أما شعوب الغرب الشمالية التي كانت شعوبا عدوانية، قوية وسليمة، فكانت لها آلهة محاربة ذلك أن الحرب هي عنصرهم.

خلاصة القول، لم تكن للآلهة والعبادات والشعائر التي احتوتها النذر، التي كانت قد انتشرت في كل بقاع الأرض، من أساس سوى طباع الناس وخصالهم؛ فالناس هي من استنطقت هذه الآلهة التي كانت في الأصل متلائمة ومتوافقة مع ظروفهم الخاصة وميولهم واستعداداتهم والحتميّات المناخية والبيولوجية لديهم.

إن الميول والمؤهّلات كانت نتيجة للأمزجة، للمناخ، لنوع الأغذية، للمناخ، للحاجيات، للحكومات، للأخلاق وللأحكام المُسبقة لمختلف سكان المعمورة؛ وبما أن هذه المؤهّلات غالبا ما كانت تختلف، فإن الآلهة والعبادات كانت بالضرورة متنوّعة. إلاّ أن، وكما سبق أن لاحظنا، فإنه يوجد تشابهات عامة فيما بينها. ففي كل مكان، كانت الآلهة ملوكا وكانت الناس تخشاها، وكان الدين حقير ووضيع ومتفشّي.

كانت الشعوب الأكثر جهلا والأشدّ تعاسة هي الشعوب التي تؤمن أكثر بالنذر والخرافات، ولكن في حقيقة الأمر، كانت النذر الأكثر سخافة والأكثر دقّة هي النذر التي كانت الأكثر رواجا؛ هكذا يمكن أن يُنظر إلى مصر، سورية، يهودا، فينيقيا وهندستان على أنها أكبر الورشات الكبرى التي أنتجت الآلهة والأديان؛ لقد كان يخرج من هذه المناطق أسرابا من المبشّرين (التبشيريّن) الذين حملوا معهم آلهتهم وشعائرهم وعجائبهم وخرافاتهم إلى أقاصي البلدان.

لقد كانت قد ولدت في مصر جنون علم الفلك والسحر والتعاويذ وفن الخداع والتنبؤ وأضغاث الأحلام وأخيرا الميتافيزيقا أو ما وراء الطبيعة وعلم الأرواح وعلم اللاّهوت؛ فبلد غير نقيّ مثل مصر الذي كان سكّانها عرضة لعديد كبير من الأمراض المستعصية، كان من الطبيعي أن يكون مؤهّلا ليؤمن بالنذر. فالمناخ الحار كان لابدّ، مع وجود كهنة عاطلين، أن

يُثمر عدد غير محدود من المنظّرين، السحرة والعرّافين والمتنبّئين والمُلهمين والحالمين الذين فرضوا جنونهم على شعب تعيس ومجبول بمزاجه الكآبة. ونتيجة لذلك نرى ان مصر البلد الأكثر غرابة والأكثر تديّنا والأكثر انصياعا للكهنة الذين أفسدوا شيئا فشيئا الكون بسخافاتهم وبنذرهم[1].

هكذا كانت وهكذا سوف تكون دائما الطبائع والاستعدادات لدى الشعوب التي تولد النذر والأفكار اللاّهوتية والتي تدفع إلى تبنّيها، لكن

[1] يثبت كل التاريخ القديم بكلّ وضوح أن مصر كانت مهد كل الأديان. فآدم لدى العبرانيين أو يهوى الذي تمتدّ إمبراطوريته إلى أبعد الحدود، هو كما يبدوا نفس الإله أدونيس لدى السوريّين والفينيقيّين والإله أراسAris لدى الفريجيين phrygiens. كانت كل هذه الآلهة قد قُدّت على شاكلة أوزيريس المصري الذي كان في الأصل علامة الطبيعة النائمة في الشتاء والمنبعثة في الربيع. إنه السبب الحقيقي وراء التطابق الموجود بين الأساطير القديمة (الميثولوجيا) والأساطير الحديثة.

ففي مصر كان أورفيس Orphée قد غرف لاهوته؛ ووجب علينا أن نعتبر التلاشين والكريت Curètes والتكتلين Dactyli idei مبشّرين كانوا قد جلبوا إلى اليونان آلهة وعبادات وأساطير ولاهوت. وعن عجلة قد تبنّوها اليونانيّن الذين كانوا متوحّشين غير متمدّنين ولم يكونوا قد أسّسوا بعد المجتمع. يبدوا جليّا أن اليهود كانوا قد استلهموا دينهم واحتفالاتهم من المصريّين. فلم يكونوا سوى مصريّين معارضين (بروتستانت). والمسيحيّين ليس سوى يهود منشقين قد تبنّوا بكل شراهة الميتافيزيقا المصرية واللاّهوت المصري الذي أعاد أفلاطون إحيائه كما قام مجموعة من اللاّهوتيّين المتعمّقين بتنقيته.

هذه الأفكار التي لم تكن لها من أسس سوى الخيال وأحلام اليقظة لفئة من الناس، وكذلك الجهل والسذاجة وقلّة التنوّر لبقية الناس التي تتقبّلها لا يمكن أن تكون ثابتة؛ مثلها مثل الأشجار التي أُعيد زراعتها، تعتاد الديانات على البيئة الجديدة وتأخذ طعم ومذاق التربة المحليّة. تُغيّر الآلهة البدائيّة وجهها وتُجبرُ النظم الدّينية على أن تتكيّف مع ظروف الشعوب ومع أفكارها التي تتغيّر مع تغيّر الأخلاق لديها ومع تغيّر عاداتها ومبادئها السياسية وآراء مُرشديها.

وهكذا اتّخذ إله المصريّين شكلا جديدا على أيدي المشرّع لدى العبرانيّين، وهكذا اتّخذ نفس الإله هيئة جديدة لدى المسيحيّين وطالبهم بعبادة جديدة مختلفة عما كانت تُرضيه فيما مضى. أصبح لدى نفس الإله خصائص متباينة لدى مختلف الأمم؛ فالإنجليزي لا يرى اليوم نفس الإله بنفس النظرة التي كان يراه بها في السابق، ولا يحمل تجاهه نفس الأفكار الفظيعة التي كان يحملها آباؤه أو جيرانه الّذين لا يزالون يئنّون تحت كرباج (سوط) كهنتهم.

وخلاصة القول فإن مقاصد إله الكون الأعلى الثابتة قد تبدّلت وكان عليها أن تتوافق مع تغيّر الأحوال وارتقاء النفوس ومع ثورات البشر؛ إن الظروف الراهنة والمُتغيّرة تُشوّه على الدوام مذاهب الناس وشعائرهم والفتاوي الدينيّة، وهي أقوى بكثير من تنظيراتهم الرائعة،

وكهنتهم الذين لم يتّفقوا فيما بينهم كانوا أيضا قد ساهموا في تغيير نظمهم الدينية، وهذا هو السبب وراء تغيير الآلهة لهيئتها. ولا يمكن للناس أن تحمل نفس الأفكار والآراء التي لم تكن لتتأسّس على التجربة والخبرة والعقل، فأوهامهم متنوّعة لزوما. لا يجب علينا ان لا نتفاجأ إذا كان الدين، الذي أولدته الحماسة والذي يخضع لأهواء البشر الفانين ولمصالحهم، يتغيّر بتغيّرهم؛ فغير العقل ليس هناك ما يقاوم نزواتهم، وليس غير الحقيقة ما يظلّ على حاله.

رغم كل هذه التغيّرات التي طرأت على الأفكار الدينية ورغم التنافر في آراء الناس وتوجّهاتهم، فإن كل النذر كانت، كما رأينا، تجتمع في كل الأوقات على رسم كل الآلهة على شكل كائنات غاضبة من السهل إثارتها ودائما ما تدعوا للحيرة؛ لقد كانت الربوبية دائما عدوّة لراحة الانسان ودائما ما كان كهنتها وقسيّسيها وشيوخها يصوّرونها صارمة وقاسية.

لقد كان الدين دائما مملكة الظلمات والعواصف والأعاصير فلا يمكن المشي إلاّ تحت ضوء البرق، وعبيدها قد كانوا عميان وقراراتها كانت نافذة رغم أنها كانت قاسية وحمقاء ومناهضة للطبيعة والعقل والفطرة السليمة ومقلقة براحة الجنس البشري.

والأمم المخمورة لا تتجرّأ أبدا على معاينة أوامر آلهتها وقراراتها كانت تعتقد أنها مُلزمة بالطاعة؛ فلقد كانت تتبجّح بتطويعها لهذه الأوامر حتى ولو دنّسوا في ذلك الطبيعة وانتهكوا قوانينها الأشدّ قداسة وحتى ولو قضوا على سعادتهم نعيمهم.

" أنا الإله الغيور، يقول يهوى (يهوذا)، المنتقم، - والقاسي، أيها العبرانيّين، إني لم أخلّصكم من العبودية إلاّ لكي أُرضي غيرتي الساخطة، إني لغضبكم أسلّم شخص وأملاك الكنعاني الكافر. أنهبوا وأفنوا كل الأمم التي تثير غضبي بعباداتهم. أقتلوا كل فانٍ لا يعرفني، وليبكي الطفل الرضيع وتحزن كل أم، وليُذبَح الشيخ المعتوه وحتى بهيمة الأنعام بلا رحمة. إني أتقدّمكم وأوجّه ضرباتكم فلا تخافوا شيئا، وإني أُشيد بهمجيّتكم وأجازيها. إني أنا إلاه الجيوش وإني أنا من خلق العدل والظلم وبيدي الموت والحياة، كل الأرض ملكي، فأطيعوا وارتعدوا فإني أنا السيّد أصبّ نقمتي على الأبناء الأبرياء لمن يعصيني من الآباء.

أنصتوا، يصرخ مولوخ، أيّها السوريين وأيها القرطاجيين، إني إله دموي فأغرقوا في الدم محاريبي لكي أباركم، ولتلتهم النيران أبنائكم وبعيون غير دامعة، لتُقدّم الأم لي ابنها المرتعش. إن أذني يفتنها صراخ الأبرياء وشمّي يطربه دخان اللحم المحروق، وبوأد الطبيعة تفلحوا في إرضائي.

أيّها الرومانيّين! فلتحاربوا بكل سخط، تخاطبهم آلهة ظالمة قد سلّمت لهم الأرض لكي يخرّبوها، فليفتدي المحارب بنفسه وليموت بشجاعة، ولتكن الوحشية فضيلة الفضائل لديكم، إن آلهتكم تُقرّ القتل والنهب، فلتتمّموا وحيها القاسي. ولتجعل أياديكم من العالم بأسره مقاما للمجازر والمذابح، وليُسفحَ الجنس البشري على مذبح الوطن ولتُحرَق الطبيعة نفسها بلا شفقة.

يا أيها المكسيكيون، يخاطبهم الإله المتوحّش، أسرقوا وأنتم تغزون، اعتدوا على جيرانكم المسالمين، اقبضوا على الأسرى لتذبحوهم أمامي، وليكن قلوبهم المدخّنة قربان لي؛ إني أتضوّر جوعا للحم البشر، فلا تنسوا إشباعي واحذروا غضبي.

أيها الفانين المخلوقين من غضبي، (يقول إله المسيحيّين)، عفّروا جباهكم في التراب، اجعلوا من العقل قربانا ومن ميولكم الرقيقة أضاحي، هاجروا ملذّات الحياة، تجرّدوا من ذواتكم ومن كل ما حبتكم به الطبيعة، إني أغار على قلوبكم فأكرهوا هذا العالم الفاسد؛ كونوا بؤساء ولتسمّم مرارة الحزن أيامكم، فأنا لم أبعثكم للوجود إلاّ لكي أتغذّى على آلامكم. هذا العالم ليس سوى طريق عبور أمتحنكم فيه؛ تعذّبوا وصلّوا وتذمّروا ولتغرقوا في هذا الواد من الدموع. إني أحب أن أرى دموعكم تسيل، وأتلذّذ بسماع نبرات أنينكم وشكواكم وتأوّهاتكم؛ ربما توقف

صرخاتكم رعدي، ويا لسعادتكم أن تعرفوني، ولتعلموا أني أدّخر لمن أنكر مشيئتي الخفيّة عذاب مخلّدا فيه. إن العقل ليرعبني وإني لأحرّم عليكم إعماله. ففي الذعر فلتعيشوا وعلى الفزع والهلع تُطعَمون. تأمّلوا في أحكامي فنقمتي القاسية والباقية لا يهلكها الدهر ولا يفنيها."

هكذا كانت، تقريبا، اللهجة التي كانت كل النذر تنسِبها إلى الآلهة؛ فمبدئها الثابت كان إخماد التدبّر والتعقّل لدى الناس وتكبيلهم بالخوف وإثنائهم عن التفكير. فعندما يكون الانسان مضطرب حيران يكون من السهل علينا توجيه معتقداته وسلوكه كما نشاء دون الحاجة لإقناعه.

ومهما يكن من الأمر، لم يفعل أولئك الذين أتوا بالآلهة والعبادات للأمم في البداية سوى أن جسّدوا الطبيعة ووظائفها وتلبيسها بلباس العجائب والرموز. لم يكن يكفي من الشعر ليرسمها، بل كان من اللاّزم أيضا عليهم مخاطبة حواس الشعب وملامسة أحاسيسه، وإظهار الأشياء المادية التي تشدّ بصره وأن يظهروا له القوى الخفيّة التي يحدّثونه عنها.

هكذا إذا كانت الآلهة قد أخذت صورا وأشكالا وجعلت كل أمّة من الشعار أو الصورة التي تمجّدها إلها لها، وبالتالي كل هذه الوجوه التي نراها كانت تمثّل محتوى عبادات الشعوب؛ فنجد فيها دائما الطبيعة بمختلف نشاطاتها كالزمن والفصول والانقلابات الدورية للنجوم والأرض والخصوبة والنشوء الخ...تلك كانت العناصر الاوليّة التي

جُعِلت منها الآلهة التي كانت وستكون دائما مفزعة للجنس البشري الذي يتعنّت في أن يبعث الحياة والذكاء والأعمال لكل ما يبعث على الانبهار ولكل العلل التي لا يستوعبها عقله.

وهكذا كان الناس ينسبون الصفات الإنسانية للقوى والعوامل الخفيّة التي يجهلون طريقة عملها؛ فمن السهل إذا أن نتصوّر لماذا كان الذين يأتون الناس بالآلهة يقدّمونها عادة على هيأة بشرية؛ وهكذا فإن المادة الأثيرية على كوكب المشتري كانت تُمَثَّل في هيأة ملك الصواعق المسلّح والذي يمتطي نسر يجنّح في أعالي السماء، وهكذا كان الزمن يمثّله كوكب زحل الذي يأخذ شكل شيخ مسنّ لا يرحم الذي لا يسلم من منجله أحد؛ وهكذا كان الخلق والنشوء، متحوّل في هيأة كوكب الزهرة، قد أصبح امرأة مُحبّة وقد تزينت بكل صفات الجمال، الخ....

لكن العاميّ لم يكن يعرف شيئا أو على الأقل كان قد نسى الشيء الذي كان قد مُثِّل له بالشعارات والصور المختلفة؛ لقد كان قد صدّق أن الألوهية نفسها أو بعض خصائلها الخفيّة التي تصدر عنها تسكن في المادة الكثيفة أو في الصورة التي يقدّمونها له؛ لقد قدّس دائما الغابة، الخشب، الحجر، الرخام (المرمر) والنحاس. كانت يتوجّه بأمنياته إلى هذه الأشكال الرمزية دون أن يعود بفكره إلى الأشياء التي تمثّلها هذه الصور.

هكذا كانت قد ولدت الوثنيّة، وكان العدد الأكبر من البشر وثني وسيظلّ كذلك دائما. إذا كان بعض المفكّرين المتمرّسين لم يكونوا يروا في الصور التي تُعرض عليهم سوى علامات أو إشارات للآلهة، فقد كان الشعب يرى فيها الآلهة بذواتها؛ إذا توصّل بعض المتأمّلين في الديانات المهّذبة إلى تنزيه الألوهية عن المادة وإعلائها إلى مرتبة الكائن الروحي الصرف، فإن الشعب دائما ما كان يراها ويوقّرها ويعبدها على هيئتها من الصور والعلامات التي قُدّمت لهم. فالناس الذين يناصبون بيننا العداء للوثنية يقدّسون قلبا وقالبا نفسا وروحا الخبز المقدّس الذي يرمز إلى أين احتجب إله الكون نفسه.

أما أولئك الذين استطاعوا أن ينبّهوا العوام إلى أن الرموز والصور التي نراها ليست هي الآلهة نفسها، لا تملك أية فضيلة أو ميزة ولكنها جُعلت لتُجسّد بطريقة محسوسة العلل والأسباب الخفيّة، العوامل الطبيعية، فإنهم إما كانوا هم أنفسهم ينسون ذلك وإما أنهم كانوا يحذرون من أن يكشفوا لهم الحقيقة؛ لقد كانوا دائما مهتمّين بتضليلهم وبمضاعفة أخطائهم وبإقناعهم بأنهم المالكين، الوزراء والترجمان ليس لنصبٍ لا يتحرّك أو لعرف من الأعراف بل للألوهية نفسها ولكائن قدير مخيف وللقوة التي لابد أن يوجبها. فمصلحة كهنة الآلهة هي دائما

مضاعفة عمى الناس وزيادة دهشتها لكي يبدوا مهميّن وذي شأن عظيم في نظرهم[1].

لا يخوّل قُصر النظر للعامّي أبدا أن يرى الصورة الكاملة؛ فهو لم يكن ليقدر على أن يتخيّل أن في الأصل كان إله واحدا قدير بيده أمر كل شيء. ومن أجل الولوج لأفكاره كان من اللاّزم أن تتعدّد الآلهة وتتنوّع شعاراتها ورموزها؛ فلقد كان الهواء والأرض والبحار والنار والكواكب والفصول كلّها قد وقع تأليهها، شخصنتها، وتمثيلها؛ إما أن السلم والحرب، المرض والصحة، السُّكر والشهوة إضافة للحزن والندم كانوا يرجعون لآلهة معيّنة وإما أنهم كانوا يُعتَبرون نتيجة لمؤثّرات فوق طبيعية.

وأخيرا فإنه كان لكل مدينة وكل عائلة وكل انسان آلهتها الخاصة، ملائكتها المُوكّلة (أو الحافظة)، أربابها وقدّسيها.

[1] بدون أدنى شك، لقد كانت هذه السياسة التي نجم عنها كل الرعب جرّاء اضطهاد كهنة الكنيسة الرومانية في بداياتها أولئك الذين تجرؤا على التدقيق في معتقدات ومسلّمات الحلول الفعلي للألوهية في الخبز المقدّس أو في علم الآخرة (eucharistie). فمصلحة الكهنوت هي التي تُقرّر دائما الرأي الملائم لمصالحها. ففي البلدان التي لا يمثّل فيها علم الآخرة سوى شعارا أو رمز، تكون الكنيسة فيها أقلّ نفوذا من البلدان التي يُعتبر فيها هذا الخبز الإله نفسه.

ومع ذلك، فإن قلّة من المشرعين الذين كانوا قد أمروا بعبادة إلاها واحدا، كانوا قد حرّموا أيضا أن يتمّ تمثيله تحت أي شعارا أو وجه خوفا من أن تعبد الشعوب صورته بدلا منه. ولقد وجد ثُلّة منهم صعوبات لا متناهية في إجبار أتباعهم أن لا يعظّموا ويقدّسوا إلاّ كائن ميتافيزيقي خفّي لأن ذلك من شأنه أن يجعلهم يُعمِلوا عقولهم دون فائدة، ولأنه أعظم من أن تدركه عقولهم وأبصارهم.

لم يستطع قائد العبرانيّين ثني قومه عن عبادة الآلهة المصرية إلاّ بعد عناء شديد وبعد مجازر متكرّرة؛ فالسجلاّت المقدّسة لهذا الشعب المادّي والهمجي تبّين أن هذا القوم كان يميل دائما للعودة للوثنيّة. إلاّ أن العقل البشري لم يكن ليستفيد من وجود إله واجدا منزّها ومتجرّدا من كل صورة أو رمز؛ فهذا الكائن الغامض لم يفعل سوى أنه عذّب فكر البشر وأتعبه. فمن عبدوا هذا الشبح الخفيّ انتابتهم أفكار غريبة ومتناقضة يلازمها الجدال الأبدي؛ فالشعوب لم تكن ترى فيه سوى سيّد غيور ومتعجرف تُحرّكه نفس النزوات التي تُحرّك طواغيت الأرض. فأولئك الذين لا يعبدون إلاّ الواحد الأحد، كانوا قد استنتجوا من واحديّته استنتاجا خطيرا؛ لقد أرادوا ألا ينازع حكمه أحد ولقد أقاموا الحروب لكي تمتدّ امبراطوريّته وكانوا، وهم يعتبرون أن وحده الإله الذي

يعبدونه الملك الشرعي الوحيد، يظنّون أن الآلهة الأخرى مجرّد لصوص مغتصبين ولقد عاملوا عُبّادها كمتمرّدين وجب سحقهم.

أما المشركين فقد كانوا أكثر لين وتفهّما، فقد كانوا يعتقدون أن لكل إله حوزته وحرمه الخاصيّن به، وكانوا يرون أنه من الممكن الإقرار والسماح بوجود آلهة أخرى في نفس مرتبة آلهتهم؛ لقد جعل مُعتقَد وحدانيّة الله من هذا الكائن ملك أو سيّدٌ غامض ومرتاب وعدوّ طبيعي لكل من يريد أن يتقاسم معه العرش. كان تعدّد الآلهة (أو الشرك) يفترض أن آلهة الأمم تُشكّل جمهورية من الأسياد أو الحكّام الذين يتقاسمون حكم العالم مع احترام عقول من يسكنوه من المخلوقات، ودون أن يتعدّى أحدهم على ملكية جاره من الآلهة؛ فعندما كانت تقوم الحرب بين أتباع هذه الآلهة المختلفة، لم تكن هذه الحرب دينية بل كانت حربا سياسية، وإله القوم الخاسر يتلقّى الأوامر من إله القوم المنتصر، كما كان غالبا ما يتلقّى إله القوم المهزوم في الحرب أيضا التكريم من القوم المُنتصر.

لقد كان المشركين عموما أقل حماسة وأكثر تسامحا من الذين يعبدون الإله الواحد؛ ليست الحماسة لدى الانسان سوى الرغبة في معاضدة الطموح بالتكبّر والجبروت اللذان ينسبهما لإله يريد أن يحكم العالم دون منازع. إن التعصّب والحقد والاضطهاد هم نتيجة حتمية

لمنظومة دينية لا تسمح إلاّ بوجود إله واحد أكثر من الدين الذي يسمح بتعدّد الآلهة[1].

سواء كان للدين إله واحدا أو آلهة متعدّدة، فدائما ما كان هذا الإله أو هذه الآلهة تُعتَبر ملوكا؛ لقد كان الاحترام والتبجيل، اللذان أُقيما لهؤلاء الأمراء الذين لا يقهرون أو إلى الرموز والتماثيل التي تدلّ عليها، أن جعلهم منعزلين على المجتمع؛ لقد أُقيمت لهؤلاء السادة المخفيّين القصور التي تُدعى هياكل أو معابد، ولقد اعتلوا العروش في بنايات سريّة لا يجرئ العامي أبدا على الاقتراب منها، وهي التي تُسمّى أضرحة ومقامات وحرم وهياكل.

لقد قُدّمت لهم الموائد والقرابين، وكان يؤسّس لهم البلاط المتكوّن من الوزراء وأصحاب الدواوين والخدم، وكان يُطلَقُ على هؤلاء اسم

---

[1] إن المجوس، اليهود، المسيحيّين والمحمّديين، وباختصار كل الموحّدين كانوا دائما حقودين غير متسامحين وتحرّكهم الرغبة في نشر الدين وتجنيد أتباعا جدد لدينهم. لقد كان الدافع الديني وراء تدمير الكامبيز Cambyse لهياكل مصر وقتل ثور أبيس، ولقد أوقد السكر حماستهم.

لقد كان الروم المشركين ينصاعون إلى آلهة البلدان التي يمرّون عليها أو البلدان التي كانوا قد أخضعوها. ولابد أنهم ألزموا على أنفسهم احترامها وعدم اهانتها. وعندما غلب الجشع على النذر لديهم، كان البعض منهم قد سمحوا لأنفسهم أن ينهبوا الهياكل والمعابد.

الكهنة أو القساوسة أو الشيوخ، وأخيرا كان يتم اغراق هؤلاء السادة وأولئك الذين كانوا تُقاتهم تحت حظوتهم بالهدايا.

ونتيجة للأفكار الفظيعة التي بنوها حول الألوهية، ولبعث الخوف والوجل في قلوب الناس وابقائهم في الجهل والغفلة والاذعان، كانوا قد وضعوا جميع الآلهة أو صورهم في أماكن حليّة بأن تُذكي في أرواح الناس هذه المشاعر من الخوف والرهبة؛ لقد كانت في الكهوف المظلمة، أعماق الغابات وفي الأماكن الموحشة أن حملوا البشر الفانين على عبادة الآلهة وعلى أن يتم فيها تلقّي الوحي.

وإن من شأن النذر التي تغذّيها الحيرة والخوف والكآبة أن تُبقي هذه الآلهة في الظلمة لا تخرج إلى وضح النهار. لا يجب أن تختلط الآلهة بالناس ولا يجب أن يألفوها؛ فلا تُكلّمهم إلاّ من وراء حجاب وفي أماكن تبعث فيهم الوجل. وليس إلاّ في الدجى يمكن عبادة كائنات لا تدركها عقول ولا تستوعبها أذهان، مُحرّم النظر في كنهها وفي مراسيمها[1].

[1] تختصّ كنائسنا القوطية كثيرا في تغذية النذر، فلقد قال كاتب إيطالي عن حق " بأن الرعب القدسي الذي يبعثه كهف مقدّس، دين غامض لا يختلف نهاره على ليله كثيرا، هي أمور خليقة بأن تبعث الاحترام لدى المتعبّد وأن تزيد في العظمة السديمية للشيء الذي لا نراه ملء العين". يتم تلقّي الوحي في أماكن مظلمة تبعث الرعب. انظروا أوغستينو ماسرسي، الفتنة الأخلاقية، الجزء الأول.

وبعد أن أقام الناس في الأرض سكن للأشياء التي يخافون منها وعليها يُعلّقون آمالهم، كانوا قد أرادوا أن يجنوا ثمار ما قدّمت أيديهم من أعمال ومساعي طلبا للمنفعة. وعندما حازوا على الألوهية، أي القوة التي لها يخضع لها كل شيء، كانوا قد اعتقدوا أنهم بإمكانهم حيازة كل الأشياء التي يرغبوا فيها، ودفع كل ما يؤذيهم، بتبديد شكوكهم وبإمكانهم حتى معرفة الغيب بمعونة الأرواح التي بأيديهم أقدار البشر الفانين.

لقد كان كهنة الآلهة وحاشيتها يسارعون في إرضاء الناس الذين كانوا يستشيرونهم في كل شيء؛ فلقد كانوا يفترضون أنه لابدّ للأشخاص الذين ينعمون بحضرة السيّد الخفّي وبأُلفته أن يكونوا على علم بمقاصده وبمشيئته، ولأنه يخبرهم بمخطّطاته فإنهم لن تصعب عليهم معرفة نواياه في المستقبل.هكذا كان الكهنة في كل مكان ترجمان الآلهة، يعلنون وحيهم وتنزيلاتهم ويتنبؤون بالغيب، يشاركونهم في جبروتهم، يأتون بالعجائب التي تذهل لها أذهان العوام وتحتار.

يقول لوكين عن سكان مرسيليا: إن الآلهة خائفة ولا يفعل هذا سوى أن يزيد من رعبهم.

فليقلقوا لأنهم لا يعرفون الله.

فابسال. الكتاب الثالث (PHAPSAL.LIB.III)

تنصاع الأمم دون تردّد مرتعدة للأحكام التي تتلقّاها، لقد كانت خاضعة تأخذ دون تدبّر بالطرائق التي يرسمونها لهم لكي تستجيب السماء. كانت الأعمال، التي قد خيِّل للناس أنها خوارق لأنهم يجهلونَ كيف كانت تُدبّر، قد أضفت المشروعية على الأوامر التي كانوا يعلنونها ويزعمون أنها عقاب إلاهي.

هكذا كنّا نشهد ولادة مجموعة من الفنون الغامضة القائمة على تجارة الكهنة الحميمة مع الآلهة والتي تُعرف بعلم الفلك، السحر، استحضار الأرواح، التعاويذ، المعجزات والعرافة والرجم بالغيب؛ لقد كان جميع كهنة العالم يمارسون هذه الفنون، ولقد كانت هذه الأعاجيب تُلقى على الشعوب الساذجة، ولقد حملهم دائما جهلهم وخوفهم وحبّهم لكل ما هو عجيب وفضولهم على الاستماع إلى الدجّالين الذين يخدعونهم وعلى الاعجاب بهم، وكانوا بذلك يجدون الربوبية فيما لا تستوعبه أذهانهم.

لم يتجرّأ أبدا العامّي المتشبّع على الدوام بفكرة أن ملكه السماوي كائن مرعب مخيف على الاقتراب من إلهه، كان يخشى أن يراه بأمّ عينيه؛ مثله مثل العبد الذي يخشى أن ترمقه النظرات الحانقة لسيّده الغاضب والمتقلّب المزاج، يُكلّف كهنته وقسّيسه، الذين يُرجّح أنهم أحبّائه، بأن يرونه عوضا عنه؛ فالله الذي لا تدركه الأبصار لا يتجلىّ بدايةَ لهؤلاء

الكهنة إلاّ من فوق الجبال الملتهبة، وسط البرق والرعد، في الخلوات المروّعة، في الأدغال المظلمة، داخل مغارات وأوكار وكهوف. فيما بعد لا يتجلّى إلاّ لكهنته الذين وحدهم استطاعوا الولوج إلى حرمه.

لقد كانت الآلهة تضع في هذه الأماكن المحجّرة على عامة الناس قوانينها، تعلن عن عقائدها، تُسوّي مراسيم عبادتها، تأمر بطقوسها، بالكفّارة والغفران، بالأضاحي وتحسم خاصة في مصير وزراءها وكهنتها الأعزّاء. لقد كان تحت الرعد يُلقّن الناس نهج خدمة ربهم وبالغموض كان يتمّ إبقاءهم تحت نير العبوديّة.

تتباهى كل النذر والوعود في العالم بأنّ لها رب مؤسّس؛ فهي تتأسّس كلّها على مرجعيّة ربانيّة، وتحرّم كلّها اعمال العقل عندما يتعلّق الأمر بالبراهين التي تستند عليها. وأخيرا كلّها تهدّد بالعقاب الأشدّ رعبا كل من سيتجرّأ على التشكيك في الحقائق المزعومة التي تدّعيها.

وخلاصة القول، كل الشخصيات التي وضعت الشعائر والعبادات قد خوّلت لنفسها الحق الغريب في تقليد نفسها الألقاب ومنع الناس من النظر فيها. ولأننا قليلا ما نسمع صوت العقل فينا، سوف لن نرى في كل الأديان سوى الأعمال الفَضّة والزّائفة للتعصّب، للجشع، والخداع لأولئك الذين نصّبوا أنفسهم وسطاء بين الجنس البشري وآلهته.

الفصل الرابع

فـــــــي الكهنوتيّة

لم يكن أكثر شيئا مفيدا للأمم إلاّ توجيهات بعض المواطنين الشّرفاء الصادقين الأوفياء الذين كرّسوا وقتهم لدراسة الطبيعة والتأمّل في مسالكها ومساراتها لإقامة التجارب وتحصيل العلوم الصحيحة وكسب المعارف النافعة، وأولئك الذين قاموا بإيصالها بأمانة وصراحة للذين يمنعهم عملهم من الاهتمام بمثل هذه المسائل.

لو أن جمع من الناس، عوض أن يقتاتون على الخرافات الغريبة والخطرة، كانوا قد اهتموا بالأخلاق وبالروابط الموجودة بين الكائنات الحية وبلن الجنس البشري وما يتبعها من واجبات، واهتموا بالحكومات والآداب وتشريع القوانين والفيزياء، كانوا سيكونون مصلحين مثاليّين وكان قد تضاءلت آلام وشرور الجنس البشري على وجه البسيطة.

إن الفيزياء والأخلاق المشيدة على قوانين الطبيعة وسُننها هما المسألتين الوحيدتين الجديرة باهتمام الناس ونظرهم؛ الأولى تُعلّمهم مضاعفة الخيرات التي سينعمون بها وتلافي، أو على الأقل تسكين، الآلام التي ترهقهم وتهدّد وجودهم، أما الثانية فتُلقّنهم الفضيلة وبُرهن

لهم أنها السند الوحيد للإمبراطوريات ودعامتها، وبأنها المصدر الوحيد للسعادة والهناء لعامة الناس وخاصّتهم.

ولكن، عندما ارتأى الناس أن لهم نفع أكبر من أن يبتغوا السعادة لحياتهم الدنياوية الحاضرة، وعندما اعتبروا أن هذا العالم مُجرّد ممرّ عبور يقودهم إلى حياة أُخرى أهمّ من التي ينعموا بها في حاضرهم، وعندما أصبحت الاشباح أولى اهتماماهم وآخرها، أُهمِل الواقع المعيش وأصبح جريمة مجرّد اغفال النظر ولو لحظة عن الأوهام الباهرة التي نبني عليها آمالنا ومخاوفنا.

ما إن ارتئي للبشر الفانين أن أمرهم بيد الآلهة وهي من تُقرّر لهم مصيرهم، خُيِّل لهم أنهم أتمّوا ما عليهم من أجل سعادتهم بإتباع السبل التي أُشير لهم بها على أنها من شأنها أن تجعَل هذه القوى الخفيّة موائمة ومن شأنها أن تُكسبهم رضاها.

وهكذا كان قد أصبح الكهنة المُعلّمين الوحيدين والمرشدين للشعوب؛ لا يشغلونهم سوى بالكائنات الخفيّة التي كانوا هم تُرجُمانها، فلا يُعطونهم إلاّ معارف غامضة ومبهمة، والأمم التي أثملتها النذر والأوجال لم تُقدّم خطوة نخو السعادة والهناء. وعندما كان يُصادف أن تعرف السعادة، يقولون لهم أن السعادة كانت هبة من السماء وأن عليهم شكرها.

هل كانت هذه الأمم تعيش في الشقاء وفي المحن؟، لقد كانوا يقولون لهم بأن هذه المصائب هي عقاب من الآلهة ويجب الامتثال لأحكامها والفرائس ترتعد. وعندما كانت تريد الأمم أن تسعى في تحقيق سعادتها وتزيح العراقيل في وجه رفاها وراحتها، كان يُقال لها أنها تعصي حكم العليّ وأنها تردّ قضائه.

وعندما شاء مواطنون فُضوليّين أن يهتمّوا بالعلوم المفيدة، قالت الكهنة أن هذه العلوم تافهة وسخيفة لا قيمة لها وغير ضرورية للفانين من البشر الذين عليهم أن يضعوا الآخرة نصب أعينهم. وأخيرا هل كانت هناك أمم سعيدة قد أرادت أن تسعى في تحصيل متعة الحياة وملذّاتها؟، كانوا يقولون لهم بأن كل ما يبهجهم يثير غضب ربهم الذي حكم عليهم بالدمع والتنهدات.

هكذا كان الدين قد أراد، وهو يغار من كل ما من شأنه أن يشدّ انتباه الناس، أن يستفرد بهم لنفسه؛ لقد استحوذ على التربية وأثّر في التشريعات والقوانين وخضعت له السياسة وضُبطت الآداب والأخلاق حسب نزواته. لقد كان السلام بين المجتمعات غير مستقرّ على الدوام بسبب الانقسامات والخلافات التي يخلقها، ودائما ما كان العقل والتجربة مُستبعدان ووُضِعت العراقيل أمام العلوم الصحيحة التي تم حظرها بكل ازدراء. لقد وقع حبس الأمم المحرومة من الأنوار

ومن الأعمال والنشاط في الجهل والخمول اللذان لا تخرج منهما إلاّ لكي تتحارب فيما بينها ولكي تدعم القرارات السخيفة لزعمائها الدينيّين.

وخلاصة القول، لم تقدّم النذر المنشغلة فقط بأشباحها وأحاجيها للناس أشياء من شأنها أن توقظهم وتُنبّههم، ولم تجعل تعليماتها منهم سوى عبيد جهلة وجبناء جزوعين محتارين لا يتّخذون عملا إلاّ ليُؤذوا أنفسهم وهم جاهزين لأن يدوسوا على الفرائض الأشدّ قداسة في كل مرّة يُقال لهم أن ذلك من أمر السماء.

تلك هي الثمار التي جنتها الأمم من تعاليم شيوخها المُبجّلين؛ هؤلاء هم الأعداء بالسليقة للحقيقة، للعقل البشري وللعلم. لقد ادّعوا، وهم أنفسهم كانوا عميانا، ارشاد الناس الأكثر عمى منهم الذين قد عملوا على تضليل أنفسهم أكثر فأكثر. فلو كانت تُراعى مصلحة الناس والعقل والحكمة لكانت قد أُتقِنت الفنون ويُسِّرت الأعمال وتمكّنت الأمم النشطة من تحصيل أسباب الراحة والرفاهية. لو كنا تأمّلنا في السياسة لكنا شعرنا سريعا بأنه على الحكومة أن تكون عادلة لكي تكون مفيدة، وبأنه لا يمكن للمجتمعات أن تكون سعيدة إلاّ إذا تنعّمت بالحرية والأمان والسلام.

لو أنّنا استرشدنا بالعقل لكنّا وجدنا أنه بدون أخلاق وفضيلة لا يمكن للأمم أن يدوم بقائها، وبأنّ والحكومات والقوانين سيكونون دائما

غير ذي نفع في احتواء نزوات الناس وكبحها عندما تعمل التربية والعادة والآراء والطغيان الديني والسياسي جاهدين في افسادهم وفي تضليل العقول وفي تكبيل الأبدان.

إنه حليّ للذين تفكّروا في هذه المسائل أن يُعلّموا الشعوب؛ فهم وحدهم الذين يستحقّون لقب "الحكماء"، والحكماء وحدهم الذين يجب أن يكونوا كهنة الأمم، فتعاليمهم تصنع مواطنين كُرماء أهل صنائع ومتنوّرين عقلاء، عوض أن تصنع المتطيّرين والمتناذرين.

وبهذه الطريقة تَنشر التربية شيئا فشيئا المعارف والأنوار والفضائل الصلبة وتكوّن الشبيبة التي ستنجب ذريّة صالحة ومتنوّرة وحرّة؛ كل رب بيت ينقل لأبنائه الأصول والمشاعر والفضائل التي كان قد اكتسبها بنفسه، فينمّي عقولهم ويرشدهم إلى ما ينفعهم، سوف يتعوّدون مُبكّرا على جعلِ أنفسهم نافعين ويجعلهم يتحسّسون ثمن الشرف الحقيقي، سيلهمهم الرغبة في أن يكونوا جديرين بكرم من كان قد تلقّى عونهم وتقديرهم في يوم من الأيام. سيجعلهم مهتمّين بخدمة وطنهم وبالانتماء إلى العائلة الكبيرة التي تأسّست بفضل تعاون وتكافل أهلها وبفضلهم كانوا هم أعضاء فيها، سيعلّمهم أن يحترموا القوانين التي تخدم الخير العام. وباختصار، سيعلّمهم كيف تكون أسماء الفضيلة المقدّسة والوطن عزيزة عليهم.

في وسط مواطنين مُتشبّعين بهذه الثوابت ستُعطي الحكومة المنصفة، بالعقاب والجزاء، قوّة جديدة للتعاليم الأسرية والأبوية، وهكذا ستعضد التشريعات التربيةَ وستساهم في تدعيم مبادئ الأخلاق الحميدة وستشجّع المواهب وتجعل من الفضيلة ضرورةً، وسيكون الحاكم المهتم بفعل الخير كاهن وخادم العقل والقائد الحقيقي لشعبه ومحور تحرّكات الوسط الاجتماعي.

لم يكن هكذا الحال البتّة بالنسبة للشعوب التي كان قد عمّ فيها الرعب وسادت النذر؛ فالذين درسوا على أيديهم الدين كانوا قد أثبطوا عزائمهم ولم يُعلّمونهم سوى كيف يرتجفون خوفا أمام الآلهة وكيف يسترضونها بالهدايا وكيف يعاملونها مثل الملوك التي يُخشى بأسهم وسطوتهم.

وبعد أن تشكّلت المجالس لسلاطينهم السماويّة، اقنعت الأمم التي تشبّعت بهذه الأفكار نفسها، مثلما رأينا، بأن آلهة السماء تُشبه ملوك الأرض وأسيادها يميلون للذين يخدمونها ويتقرّبون إليها. وهكذا خُيّل إليهم بأن حاشية الآلهة وكهنتها وخدّام قصورها وأعضاء مواكبهم لا بدّ أن يكونوا أُناسا مُميّزين ولطفاء ليس كباقي البشر الفانين وأنهم يستطيعون بفضل حظوتهم أن ينالوا من أسيادهم ما يشاؤون.

كان المشرّعين منذ بداية نشأة المجتمعات الانسانية هم الكهنة الأوائل وهم من جلبوا للناس الآلهة وجلبوا الأديان والأساطير، وكان لهم أن يُعلنوا مشيئة آلهتهم ومقاصدها ويُفسّروها. ولقد عاد حق الكهانة لهؤلاء الطموحين الخيّرين أو المحتالين الذين وُكّلت لهم مهمّة تعليم الشعوب بعد أن حازوا على ثقتهم.

لقد كانوا يستعينون في أداء مهاهم بأشخاص مُختارين ومُمتحنين يقومون بأعمال ثانوية وجزئيّة للوزارة المقدّسة، وكانوا يحظون معهم باحترام الأمم؛ وشيئا فشيئا شكّل الكهنة مع بعضهم البعض نظام تراتبي هرمي، وساهموا في اشعاع العظمة الإلهية. ونظرا للدواوين التي أسّسوها في حضرة الذات الربانية فقد ألّفوا في كل أمّة طبقة متميزة لا تختلط أبدا مع العوام لكيلا تُنقص مخالطتهم درجة الاكبار والتقدير لديهم.

لقد كان أناس معيّنين وحدهم المقدّر لهم خدمة الآلهة، يُنظر لهم على أنهم مقدَّسين وربّانين؛ لقد كانوا أعلى مقاما من الآخرين الذين كانوا يعتبرون أنفسهم مدنّسين وأقل شأنا. وكان الكهنة المنشغلين فقط برعاية آلهتهم يختلون معهم في معابدهم، يعيشون في عزلة ولا يقتربون من العوام وأصبحت محاريبه منيعة. ولكن سوف لن يستمر الأمر دائما

على هذا الحال، وسيصبح ما كنا نراه كل يوم عاجزا على فرض نفسه وعلى الاستمرار[1].

وشعب، محطّمُ أمام إلهه واثق من أنه حاقد وساخط، رأى أنه غير جدير بأن يُقدّم بنفسه القرابين والولاءات لهذا الملك المرعب، الذي يراه منزو مع كهنته في عمق معبده؛ لقد اعتقد هذا الشعب أنه عليه أن يلتجأ إلى وساطة وشفاعة من أختارهم واصطفاهم ربّهم، فلهم وحدهم الحق أن يكلّموه وأن يقدّموا له هبات العوام وعطاياهم وأن يصلّون له ويقدّمون له الاضاحي لعلّه يغفر لهم خطاياهم. وحدهم الكهنة المصطفين من يضعون القوانين التي تلقوّنها من الآلهة أنفسهم، ووحدهم من له الحق في ترجمتها وفي تأويلها.

(1) لا يدخل كبير الكهنة لدى اليهود سوى مرة واحدة في السنة، يتقدّم إليه لوحده وكلّه خوف حقيقي أو متصنّع من ظان يموت داخله. فما الذي يمكن أن يظنّه شعب إسرائيل حتى الحبر الأكبر نفسه بإلهه المرعب؟ لقد كان للوثنيّين معابد لا تُفتح كذلك سوى مرّة واحدة في السنة.

وفيما يتعلّق بالدين، فكان الناس دائما ما يُعاملون كأطفال؛ "فلترتعدوا أمام حرمي، يقول يهوى"، سفر اللاّويين، الاصحاح الخامس، الفصل 19.

سيُقتل كل من سيقترب من خيمة الرب، سفر العدد، الاصحاح18، الآية31

إلهكم نار آكلة، سفر التثنية، الاصحاح الرابع، الاية24. الخ.....

من كان لهم الامتياز الحصري في رؤية الألوهية ومن تنعّموا برعايتها وبتلقّي الوحي منها كانوا بلا شكّ الوحيدين الذين قد عرفوا نواياها الحقيقية ومقاصد تعليماتها. لقد قسّم هذا الكائن الخفّي على الكهنة شريعة عبادته من المسؤوليّات والوظائف والمهمّات النبيلة؛ وسطاء بينه وبين الناس، يتحكّمون في مصير الأمم ولا يعترض على حكمهم أحد. من كان يجرؤ على مقاومتهم ومقارعتهم؟ والملوك مثلهم مثل رعاياهم الأحطّ شأنا ينصاعون إلى امبراطورية الخالدين ومجبَرين على الانحناء تحت نير الكهنوت. هل يستطيع شعب قد سلّم أمره للنذر والتيمّن أن يُخشى أمره ويُحسب له حساب وهو بين يدي معلّميه السماويّين ومرشديه المقدّسين وتحت حكم أسياده المُدنّسين الذين خسفت بمجدهم عظمة العليّ القدير[1].

تعطي المعارف والمهارات والعلوم التفوّق والأفضلية لمن يمتلكونها؛ فلقد كان المشرّعين يحوزون على ثقة الأمم الجاهلة والمتوحّشة لأنهم كانوا يأتونهم بالاكتشافات المفيدة كما جلبوا لهم الآلهة والعبادات

[1] لا شيء يمكن أن يكون ناجعا في حكم الجماهير أكثر من النذر؛ فإذا كانت عاجزة، همجيّة ومتقلّبة، وحيثما تكون مغرورة مزهوّة بدينها فهي تُفضّل أن تدافع عن نفسها تحت مظلّة خدّامه على أن تصطفّ مع قادتها. Quint.Curt. Lib. IV. Cap.10

والقوانين والشرائع. لقد توصّلوا إلى اخضاع الأمم عندما أُقيمت العبادات وفُصِل الكهنة عن عامة الناس، واكتفى هؤلاء بالعناية بالمعابد لا يحملون همّ تدبير معيشتهم وتوفير رزقهم بفضل كرم الناس وعطاياهم.

لقد كان لهم الوقت الوفير للتفرّغ للتأمّل، فقد كانوا يتأمّلون من أجل الآخرين ومن أجل أن يكتشفوا أشياء مفيدة للمجتمع. يدرس بعضهم الفوائد والخصائل الخفيّة للنباتات ويدرسون الأمراض التي تصيب الجسم البشري وطرق معالجتها، بينما يراقب آخرون مجرى الكواكب والنجوم ليدّعوا فيما بعد القدرة على قراءة مصائر الناس وأقدارها. ووجد آخرون في الطبيعة من وسائل ما يذهل له أبناء جلدتهم ويحير فيه، فيكنّون لهم بحكم سذاجتهم الاعجاب والتقدير.

كان الكهنة أوّل الاطبّاء، أوّل المستشارين القانونيّين وأزّل القضاة، وباختصار كانوا أوّل العارفين وأوّل العلماء في المجتمعات الناشئة[1]. فنراهم يمتهنون الشعر، الموسيقى، الطب، الفلك، السحر والفيزياء

[1] كان الكهنة في مصر قضاة، ويحمل رئيسهم حول عنقه الحجر الكريم (السفير) الذي يسمّونه "الحقيقة". V.Aelian.Var.Histo XII. Chp.34

كما اشتغل الكهنة الدرويديين Les Druides وظائف القضاء لدى الشعوب السلتيك Celtes

وأحيانا يشتغلون في الفلسفة والأخلاق؛ لقد جلب لهم علمهم التقدير والاحترام من كافة الناس، ولقد استخدمهم الحاكم في أشغاله وأجلّهم الجندي حتى وهو في قلب المعارك الطاحنة. احتاج الناس جميعا إلى عونهم، ووجد كل انسان في كاهنه الوسيلة والسند فظنّ أنه بشر ربّاني لأنّه لم يكن يدرك أسرار فنّه وأساليبه.

لقد عملت البابوية جاهدة على ألا يُنقَل العلم أبدا خارج الكنيسة وألا يصل للعوّام، فتحوّلت المعارف البسيطة بين يديه إلى ألغازا وعجائب وتأخّرت بالتالي في التقدّم والنمو؛ لم يقبل الكهنة أبدا أن تُكشَف الحقيقة وتصبح ظاهرة جليّة للعيان، وتحت غطاء الرموز والاستعارات والايحاءات غطّوها وبضلال العجائب حجبوها وصوّروها بالرسوم الهيروغليفية.

لقد كانت مقصورة على عدد قليل من الناس الموالين والمُختَبرين وشُوِّهت للآخرين بالاستعارات المحبوكة بالأكاذيب والعجائب[1].

---

[1] يقوم الإيحاء (أو الاستعارة) على الفصح عن شيء ما بطريقة يُفهَم منها غير الذي قُصِدَ؛ تشهد العصور القديمة بأن الإيحاء أو التشبيه كان من اختراع المصريّين مثله مثل النقوشات الهيروغليفية. لقد اعتقد الكهنة الغيورين على اكتشافاتهم أنها وسائل تمكّنهم من تمرير اكتشافاتهم لخلفائهم دون أن يعلمها العوام. كان يكتنف كل الكهنة الغموض، فكان محرّما لدى آلهة الشعوب السالتية أن يُدوّن مذهبهم المُقدّس --

لن يثير هذا استغرابنا عندما ندرك أن كل مألوف ومعروف يفقد اعجاب الناس، فعوض أن تثير الألغاز فضولهم ويُحفّز كل ما هو عجيب مُخيّلتهم، ظلّوا مذهولين مبهورين لرؤية أشياء لا تستوعبها عقولهم؛ فكل من يدّعي أن في حوزته سر خطير يصبح في نظر العوام ذو شأن عظيم، مُتميّز ويُنظر إليه ككائن تُبجّله السماوات. وبطريقتهم صنع الكهنة لأنفسهم الحظوة والتقدير ولم يبوحوا بأسرارهم للذين أثاروا فضولهم إلاّ بعد أن تأكّدوا من موالاتهم وتكتّمهم بالاختبارات المتعدّدة[1].

بما أن الآلهة قد عُرفت بأنها صانعة لكل الاحداث التي تقع في العالم، كان من الطبيعي أن يُستشارَ كهنتها وقساوستها في كل الأمور وأن

مخافة أن يقع النظر فيه ودراسته. وعلى نفس المبدأ أراد الكهنة المسيحيّين الأكثر دهاء أن يرفعوا أيدي الشعب على الكتب التي تتأسّس عليها معتقداتهم؛ فمن البديهي ألا يوجد شيء أكثر سخافة وحمقا من تصوّر إلاها خيّر حكيم يريد أن يكشف للناس مقاصده ومشيئته ويلتجأ إلى الايحاءات وإلى لغة غير مفهومة للعدد الأكبر منهم.

[1] يقول سترابون Strabon في كتابه السابع عشر أن أفلاطون ويودوكسوس Eudoxe لم يستطيعوا، بعد الإقامة في مصر ثلاثة عشر سنة لم يكفّوا خلالها من مقابلة كهنة مصر الجديدة (Héliopolis) ومن اذلال أنفسهم، أن ينالوا سوى الاكتشاف الذي علموهم من خلاله أن القياس الحقيقي للسنة هو أطول بستة ساعات من القياس المعمول به لدى الإغريق. ترجع اللهجة الغامضة والمتعصّبة لمذهب فيثاغورس وأفلاطون إلى كهنة مصر الذين كانا قد تعلّما على أيديهم.

يحدث أمر دون موافقتها وأخذ الإذن منها؛ وعلى هذا النحو كان قد أصبح الكهنة يتحكّمون في مصائر الدول، فأحيانا يشحذون همم الأمم بالنبوءات والتباشير المؤيدة وأحيانا أخرى يُثبطون عزائمهم بالتكهّنات والنذر النحسة.

وتحت أسماء العرّافين، الرائيين أو المكشوف عنهم الحجاب، الأنبياء، المنجّمين وقارئي البخت، كان لهاته الجماعة المُلهَمين الحكم في كل الأمور فجعلوا المشاريع التي تنفع الناس عديمة الفائدة، وكانوا واثقين دائما من تحكّمهم في سذاجة الشعوب وحماقتهم يهيّجون المشاعر الأكثر عداوة للخير العام والمضرّة بمصالح المجتمع وكل ما ينفعه[1].

لقد جعلت المعارف البديعة والمتنوّعة من الكهنة عزيزين وقيّمين ومحل احترام وتقدير؛ خُيّل للأمم أنهم وجدوا في هؤلاء الكهنة العون الدائم، فهم ينعمون بثقة الآلهة كما جعلتهم التجربة والخبرة متفوّقين على كل بني بلدهم الآخرين. ولهذا كان الكهنة يعتبرون أنفسهم الفئة الأهم في المجتمع. كانت تساعدهم كل عجائب الأمور التي يأتون بها في الحفاظ على مكانتهم المتميّزة؛ فلقد درس العديد منهم الطبيعة واستفادوا

---

[1] يقول يوربيديس Euripide بأن أفضل الأنبياء هو الذي يتنبّأ أفضل من غيره. كان الأنبياء العبرانيّين بطبيعة الحال بهلوانيّين، عرّافين وحكواتيّين مثل أولئك الذين نجدهم في كل بلدان العالم يقتاتون من بساطة الشعوب.

من ظواهرها وقواها كي يذهلوا العوام ويبهروهم، أمّا العوام بجهلهم فقد آمنوا بهذه الخوارق ولم يبصروا بمخيّلتهم الضيّقة إلاّ ما أراد الكهنة لهم أن يبصروه[1].

من هنا كانت تأتي هذه المجموعة من المعجزات، من الأوهام ومن العجائب التي اعتبروها العوام علامات لا لبس فيها لمشيئة السماء التي أفصحت عنها الآلهة على لسان الكهنة، والتي يدلّ عليها اضطراب قوانين الطبيعة.

لقد ثبّتت ودعّمت هذه المعجزات المزعومة سلطة الكهنوت وأربكت عقول الناس وأعمتهم فهم محمولين على تصديق كل ما يُعرض على سذاجتهم؛ كيف لهم، في الحقيقة، أن يعترضوا على أُناس قد أُجبرت الطبيعة نفسها على طاعتهم؟ كيف يشكّون فيما يقولون في حين أن السماء

[1] يبدوا أن كل الحيل والمعجزات التي تنسبها التوراة لموسى وإلى سحرة فرعون تثبت أن كهنة مصر كانوا يمتلكون عددا كبيرا من أسرار الفيزياء والكيمياء التي أتلفوها بعبقرتيهم الغامضة منذ ذلك الزمن. ربما كان موسى، الذي بدى متألّقا في أعين الاسرائيليّين، على علم "بفسفور جيدفروى". ماهي المعجزات التي لم يستطع كهنة الوثنية الاتيان بها بالاستعانة ببارود المدافع والمغنطيس الخ...؟ لقد كان لموسى، بدون شك، مع الإسرائيليين لعبة لطيفة إذ جعلهم يعتقدون أن عمود سحاب يوجّههم في حين أن هذا العمود لم يكن في واقع الامر سوى مدخنة كان يحملها في مقدّمة الجيش طبقا لعادات الشرقيّين.

والأرض قد اجتمعتا على أن تشهدا لهم بجلاء بصدق ما يدّعون؟ كيف لهم أن يرفضوا تسليم عقولهم لأبطال قادرة على أن تأتي بالعجائب المحيّرة التي تأخذ بالألباب؟

هل بقوّة المعجزات يمكن التوصّل إلى اسكات العقل؟، سيبقى العمل الخارق، الذي ليس سوى نتاج لفعل لا يعرف الشعب علّته وأسبابه الحقيقية، دائما البرهان الأقوى من كل الاستدلالات الأكثر منطقية. والعقل غالبا ما يُخاطب أُناسا تأبى سماعه واتّباع بيّناته، أمّا المعجزات فتكلّم عيون الناس الأشد فضاضة وتُفحم عقولهم ثم تذهب حاملة معها ايمانهم واعتقادهم.

أغلب الذين أتوا للناس بالأديان قد برهنوا على رسالاتهم بالمعجزات والآيات، إلاّ أن كل أديان العالم ترجع إلى عصور الجاهلية؛ كلّما كانت الشعوب جاهلة كلّما كان للعجائب سلطان عليهم، وهو ما يعطينا الحق في أن نردّ عليهم ادّعاءاتهم إلاّ أنه حالما ينتابنا الشك في حقيقة دين من الأديان، يُغلقون أفواهنا وهم يذكرون العجائب والمعجزات التي أتى بها المؤسّسين لهذه الأديان أمام أعين الحشود التي يُشهدُ لها بالحماقة والجهل. فنحن نرى كيف أن الحيل التي آمنت بها الجماهير الجاهلة كانت تُمثّل حجّة قويّة ضد الناس المتنوّرين الذين أيقضهما التفكير والتجربة من خداع هذه العجائب والحيل.

في عصور الجاهلية والظلمات وحدها استطاع الكهنة أن يُنزلوا الألقاب من السماء، لكن هذه الألقاب والرتب تذهب وتندثر ونادرا ما استطاعوا أن يستعيدوها عندما تنهض الأمم وتتعلّم، لأنّه في المجتمعات المتعلّمة لا توجد معجزات ولا يستطيع الكهنوت أن يأتي بمعجزات جديدة ويضطّر إلى إعادة استعمال المعجزات القديمة[1].

[1] اننا نرى من هنا لماذا كان الكهنة دائما أعداء العلم والاكتشافات الجديدة؛ فبقدر ما تصبح الناس متعلّمة بقدر ما تنقص بالضرورة سلطة الكهنوت وكان لابد لدراسة الطبيعة أن تُزعج الكهنة، فهي القادرة أن تقوّض نظمهم الميتافيزيقية وتجعلهم عاجزين دائما على الإتيان بالمعجزات. وبالنظر إلى الغموض الذي نراه يكتنف كل الديانات القديمة والحديثة، نجده يقوم، مثلما بيّنّا، على ما كونّه الناس جميعا من فكرة عظيمة حول كل ما لا يفهمونه وحول الأشياء التي تستفزّ عقولهم ولا يقدرون على فهمها.

يقول سينيزيس Synésios عن حق " بأن الشعب يزدري دائما ما يسهل ادراكه وبأنّه، بالنتيجة، على الدين أن يأتي له بشيء مفاجئ وغامض لكي يجلب أنظاره وإثارة فضوله"

إن الدين الروماني أشهر من الديانة البروتستانتية لأنّه أكثر عبثيّة وتملأه الأسرار. بينما لم يتسامح الدين البروتستانتي مع المعتقدات الغبيّة الغير معقولة بالرغم من أنه يتبنّى العديد من المعتقدات الأخرى التي لا يقبلها العقل السليم.

وربما يرجع القبول الواسع للمسيحيّة إلى الغموض والغرابة والتفاهات التي احتوت عليها ؟ !. وفيما يخصّ الدين عموما، فإن الدين الأكثر ربوبيّة هو الدين الأكثر غرابة وسحرا وغموضا. إن خير الدين للناس هو الدين الذي لا تستوعبه العقول ولا تدركه الأذهان.

الفصل الخامس

فـــي الدولة الدينيّـــة
أو
فـــي حكومة الكهنـــوت

تلك هي الأسلحة التي استعملها الكهنوت في تركيع الأمم وفي تخويف الناس من الآلهة التي تربّع بجانبها على عرش الكون. لقد تنوّعت أخطاء الجنس البشري، فتخلّى على النذر القديمة التي أصبحت محلّ ازدراء لتحلّ محلّها حماقات أُخرى جديدة أكثر جنونا، لقد تغيّرت الآلهة نفسها ولكن مهما كان مصيرها فقد بقت الخدع والحيل والموارد والنفوذ ووزراءها على حالها؛ لقد ظلّوا الكهنة في كل زمن أسياد الأمم ومرشديهم بفضل مخاوف الشعوب وآمالهم، سذاجتهم وشغفهم بكل ما هو عجيب، سيّروا مخيّلتهم وغلّوا أذهانهم وتقاسموا القوة والعظمة مع الآلهة التي كانت تحكم العالم. ومثلما رأينا في الفصل السابق، إذا كان الكهنة أوّل المشرّعين للأمم فإنهم بالنتيجة قد كانوا أوّل الأسياد الحاكمين.

كلّما أوغلنا في تاريخ العصور الغابرة كلّما رأينا كيف أن نفس الناس هم من كانوا يمارسون الكهنوتيّة والسلطة العليا في نفس الوقت. كان الخضوع الكلّي وبدون تحفّظ لسلطة هؤلاء الأشخاص المجترمين أمر

طبيعي؛ فهم الذين قد منّوا علينا بكل النّعم وهم من خُيِّل إلينا أنهم أحبّاء الله وأصفياؤه المُميّزين، الذين يأتون بالعجائب والخوارق والذين بحكمهم يتمّ فينا أمر السماء وحكمها.

أ فبالألقاب دون سواها يدِينون لهم الناس بالطاعة المطلقة والثقة العمياء والتقديس والإجلال!!، ما الذي يُعطيهم العلويّة على الحشود الجاهلة ولا يتقاسمونه معهم!!: معرفة أسرار الطبيعة، فن الخطابة، موهبة إلهاب المُخيّلة وسرّ اخماد الروح وميزة استنطاق الآلهة!

لا شيء، بدون أدنى شكّ، يمكن أن يضاهي نفوذ نفس ماكرة وقويّة تعرف كيف تبسط نفوذها بالحماسة والسحر والحيل والخوارق على النفوس الضعيفة المُرتعشة التي تعوزها التجربة وتنقصها ملكة التفكير. لا يجب أن نتفاجأ إذا ما وجدنا أينما حللنا آثار ظاهرة نسبيّا لحكومة الكهنوت؛ لابد أنها كانت حكومة مطلقة ومطلقة لأنه كان على الناس أن تلتزم لإرادة الآلهة ولا يجب أن يعرقلونها. لابد أن القوانين الجزائية كانت مُفزعة لأنه لا يوجد جرم أعظم من عصيان الإله أو الانتفاض على حكمه. لابد أن تلك الحكومة كانت عنيفة ومستبدّة لأن حكمها كان قد قام على الرعب. لابد أنها كانت غبيّة لأن حكمها كان مرجعه كائنات متهّورة وغريبة قد نُسخت عن أشدّ الناس شرّا. وأخيرا، ولأن الافلات من العقاب يُقوّي جنونها كان لهذه الحكومة أن تسمح

لنفسها فعل أي شيء وأن ينبعث منها كل الانتهاكات الصارخة. وبما أنه لم يكن للحكومة الكهنوتية ندّا، فقد اعطيناها اسم الحكومية الربانية، وكان الحكم لله وحده في كل المرّات التي لم يُمثّله فيها سوى وزراءه وكهنته الذين كانوا ترجمان لمشيئته ومقاصدها.

إلاّ أنه وبمرور الزمن توصّل في كل مكان أُناس غير متديّنين طموحين ولا يعترفون بحقوق الكهنوت إلى انتزاع قسط من السلطة الإلهية؛ لقد أفرط بدون شكّ مُمثّلي الألوهيّة في استغلال سلطتهم، كان وهن الكهنة الحاكمين وتعجرفهم ومغالاتهم قد دعوا الشعوب والجيوش إلى القبول بهذه القسمة لسلطة الحكم[1].

---

(1) تُظهر لنا الكتن العبرانيّة القديمة أن المُشرّع المبعوث من الإله ينتمي إلى المنظومة الكهنوتية وأنه غير مهتمّ سوى بكهنته ويطلب من شعبه ألاّ يطيع سوى هؤلاء الكهنة. وبمرور الزمن وبعد أن أصبحوا محاربين انتزع العبرانيّين من المهنة نفوذهم وحملوا الإله ونبيّه على أن يُعطيانهم ملك يُقاتل على رأسهم. كان الديري Dairi في اليابان الأسقف والملك لهذا البلد لفترة طويلة من الزمن، وفي النهاية انتزع جنرال طموح من يده السلطة المدنيّة. لقد تواصلت الدولة الدينيّة طويلا لدى المُحمّديّين (المسلمين) وكان للخُلفاء أو أتباع محمّد سلطة روحيّة وزمنيّة مستبدّة إلى أن أُنتزعَت منهم السلطة المدنيّة بعد أن أصابهم الضعف والوهن في ممارستها. في اندو ستان (اندونيسيا) ادّعت طبقة البرامين Bramines أو كهنة اندونيسيا أنها أعلى من طبقة الراجا Raja أو الأمراء، وظلّ الصولجان بيدي هؤلاء الكهنة لفترة من الزمن. لقد استمرّت الدولة الدينيّة طويلا في أوروبا، ومارس فيها البابا الحكم باسم إلهه ==

لقد أخطأ الكهنوت خطأً فادحا عندما لم يجمع بين قوّة السلاح وقوّة الإفتاء الذي كان من شأنه أن يجعل من حكمه أبديًا. وهكذا دمّر الطغيان الكهنوتي بنفسه جزء كبير من سلطته؛ فقد انتزع مُحاربون حيويين، مُتمرّسين، طموحين وأشدّاء الصولجان من أيادي إمّا ضعيفة لا تقوى على حمله أو أنّها أفرطت في استعماله. لقد جرّد هؤلاء المُحاربين الآلهة ووزراءها من سلطان مُمتدّ وتركوا لهم مهمّة حكم النفوس، ومن هنا كان قد أُقيم مشرّعان اثنان وسلطتين لدى كل الأمم. لكن الكهنوت احتفظ دائما بحقّ التكلّم باسم الآلهة فجعل الملوك أنفسهم دائما ما يتأرجحون من على العرش، فلقد كان سلطته الروحيّة القائمة على الفتاوي قويّة بما يكفي لتهُزَّ عروش الامبراطوريّات من أُسُسِها.

وبالرغم من ذلك، حاول الكهنة المغتاظين من انحسار نفوذهم أن يعتلوا العرش الذي أزاحته عنهم قوة دنيويّة غريبة عنهم؛ كانت السلطة الروحيّة لدى كل الأمم النّدّ والعدوّ اللدود للسلطة الزمنيّة (أو الدنيويّة)، لم ينسى الكاهن أبدا أن حقوقه قد وهبتها له السماء ولم يكن

الذي إدّعى أنّه وزيره فكان حكمه على ملوك طائفته حكما مطلقا. أثارت وقاحته وجشعه شيئا فشيئا حفيظة الحكّام وضجرت الشعوب من نيره، ومع ذلك من الثابت أنّه لاتزال الحكومات المسيحيّة في كل مكان تخضع بشكل مفضوح لسلطة الكهنة.

ليرضخ لأسياد الأرض الجدد. وفي كل مرّة شعر فيها بالوهن على مقارعة السلطة السياسية بوجه مكشوف، تآمر سرًّا ضدّها واعتبر دائما أن الملوك مدنّسين ومحتليّن ولم يكن ليسامحهم إلاّ إذا أذعنوا له وسمحوا له أن يحكمهم.

تُقدّم لنا السجلاّت التاريخية لكثير من الشعوب العديد من الأمثلة التي لا تُنسى على السلطان التي عرف كيف يبسطه الكهنوت على الملوك؛ يُخبرنا ديودور الصقلّي Diodore De Sicile بأنّ كهنة ميروا Méroë يأمرون ملكهم أن يقتل نفسه عندما لا يسعفه الحظّ في إرضاء الآلهة، وكان الملك مُجبرا على الامتثال دون معارضة لهذا الأمر الفظيع.

إننا نشهد صراع دائم لدى العبرانيّين بين الملوك من جهة وبين الكهنة المُلهَمين والأنبياء من جهة أخرى؛ كل أمير لا يُذعن بشكل أعمى لوزراء العليّ وكهنته كانت تُنسفُ عادة وتُعطّل كل إنجازاته ولم يكن له في الغالب إلاّ أن يأمل نهاية مأساويّة. ولقد أعطى الكهنوت لدى المسيحيّين في كل العصور البراهين المسترسلة على سلطانه ونفوذه، وغالبا ما قاضى رجالات هذا الجهاز الحكاّم وأزاحوهم عن الحكم. حتى في أيامنا هذه وفي البلدان التي تتبجّح بأنها متنوّرة، فإنّ خميرة (رشح) النذر لاتزال دائما قويّة لكي تُلهِب مُخيّلة الشعوب المتعصّبة والمستعدّة للانتقام لربّهم من السلطة العليا إذا ما انتهكت حرمته. فشأن

هذا الإله هو نفس شأن كهنته وقسّيسيه، ونادرا ما يتسامح مع الاهانات التي تلحقه أو مع الاستهزاء والاستخفاف بأحكامه.

كانت كل العوامل تلائم الكهنوت في كل أعماله وادّعاءاته وفي جرائمه؛ فالوصم (الأحكام المُسبقة) الذي التزم به العوام أقوى وأشدّ رسوخا من تلك الأحكام التي بمقتضاها انصاعت هذه العوام إلى أسيادها الدنيويّين، ومن أجل مصلحة الكهنة وغاياتهم أُهرقَت في كل بقاع الأرض دماء الناس أنهارا، وكانت الشعوب الغارقة في الجهل تثق كلّها ثقة عمياء إلى حدّ التزمّت في مرشِديهم الروحيّين، ثقة تقضّ مضاجعهم لا يهنئ معها بالهم. فمصلحة الكاهن كانت هي نفسها مصلحة الإله وحقوق القساوسة والحاخامات كانت هي نفس حقوق هذا الإله.

لقد أُعتبرت آراء الكهنة وفتاويهم، بمُقتضى السلطة الربانيّة القائمة على ادّعاءات باطلة، في كل الأوقات وحي من السماء، حتى جرائمهم كانت مقدّسة والقوانين المدنيّة ليس لها أن تعاقبهم أو تردعهم. وعلى هذا النحو تحالفت الأرض والسماء لحماية مصالح الكهنوت وحتى الملوك أنفسهم لم يكن لهم أن يتجاسروا عليه دون أن ينالوا أشدّ العقاب؛ مثلهم مثل باقي الرعايا كانوا مُجبَرين على أن يُذعنوا وينصاعوا إلى قراراته، وكلما أرادوا أن لا يمتثلوا لها كانوا يلقون الخسران المُبين. فما هي الحقوق

التي لا يمكن انكارها عدى تلك التي وهبتها وصاغتها الآلهة بكلّ دقّة وإحكام؟!، وهل من قوّة تقدِر على أن تصدّ سيف الرب؟!

في كل مرة حاول فيها الملوك أن يلجموا هؤلاء الناس الذين لا شكيمة لهم، أن يهزؤوا من فتاويهم التافهة أو أن يتصدّوا إلى مغالاتهم ويحدّوا من عنادهم. وفي كلمة، كلّما تراءى لهم أنه من واجبهم أن يمنعوهم من سوء استغلال سلطتهم، كان ذلك بمثابة إهانة لجلالة الكائن الأعلى وتعريض العقيدة للخطر، فالمعبد قد أُهتزَّت أركانه والأمم أصبحت تُهدّدها الكوارث والمصائب المهلكة. كانت النعوت مثل: كفار، مُدنِّسين، أعداء السماء، معتدين تنهمر على الملوك الذين لم يكنّوا للمؤسسة القدسيّة الاحترام الذي تقتضيه.

سوف تُهلكون كلّكم !، السماء غاضبة!، هُوجِمت الآلهة!، دُنّس الهيكل!، السلطة المدنيّة قد وضعت يدها على المبخرة!!، هكذا كان يصرخ الكهنوت صرخات الحرب، وهكذا كانت الكلمات المرعبة في عصور الجهل والتيه؛ يشحذ المتعصّب خناجره وتنتفض الشعوب مُتّبعة تحت إمرة مُرشديهم الروحيّين راية الثورة، وألف يد تمدّ لكي تنتقم لوزراء المعبد من العرش.

كانت السماء دائما على أهبة الاستعداد لأن تنحاز لخُدّامها الهائجين؛ كل أمير يعارضهم قد ثار ضدّ الإله نفسه، وقد أصبح حينئذ غير جدير

بالحكم وقد قُضي عليه بالموت. فلا يجب أن تُفاجئنا هذه القواعد الثابتة (السنن) التي تقضّ مضاجع الدول وتعيق راحتها واعمالها، ولا كل ما ينتج عنها. يجب على السلطة الزمنية (الوقتية) أن تكون تابعة للسلطة الروحية حالما تكون الآلهة أسيادا للملوك ولرعاياها وحالما لا يوجد شيء أهمّ من عقيدتها ويكون الدين نظام ربّاني وحالما يكون الكهنة والأحبار هم الأوصياء الوحيدين على مشيئة العليّ وأحكامه.

يُعتبر كل أمير ثائراً وأحمق عندما يعارض السلطة الدينية لأنّه يصبح بذلك ناكراً لمصدر سلطته؛ ولمن أتى له بالحكم؛ إذا كان حكم الملوك، حسب خباط كثير من الحكّام المطلقين، ليس سوى فيض من حكم العليّ، وإذا كانوا لا يدينون بحكمهم إلاّ إلى الله وحده، وإذا كان الكهنة من جهة أخرى الترجمان والناقلين الوحيدين لمشيئة هذا الإله وأحكامه، فلا ريب إذا بمُقتضى هذه المبادئ أن يُعزَل ملك عن الحكم حالما تُصرِّح السماء بحكمها على أفواه وزراءها وممثّليها. سوف يكون مغتصب ومعتدي إذا لم ينصاع لأوامرهم ورفض تسليم الصولجان والتاج.

إذا كان الله وحده من يهب الملك للسّلاطين فله الحق في كل وزمن أن يخلعه عنهم؛ ومن هنا نرى أن الحكّام كانوا قد وضعوا أنفسهم في تبعيّة تامّة لنزوات الكهنة الذين وحدهم من كان له الحق في مخاطبة الآلهة والذين كانوا يدّعون أنهم لا يدينون بحكمهم إلاّ للخالق وحده وأنّه لا

حسيب لهم على فعالهم سواه. ولكن عندما يفسّرون قول الله وحكمه الذي أمر فيه بلفظ الحاكم المغضوب عليه وحظره، فإلى أيّ جانب تنحاز الشعوب؟!اهل سيخاربون ضدّ الله نفسه؟!، وهل سيُعرّضون أنفسهم لغضبه الأبديّ؟!، من الأجدر بدون شكّ أن يُطيعوا الله لا أن يُطيعوا البشر. فالملوك لا تُخشى شوكتهم وبلاءهم إلاّ في هذا العالم السفلي، أمّا نقمة الرب فتُلاحقهم إلى ما بعد الموت.

لا تستطيع الشعوب وفق هذه المفاهيم إلاّ الإعلان عن انحيازها لكهنتها، وعلى كل متديّن مُتعصّب غيور على دينه اقناع نفسه أنه يقوم بعمل نبيل عندما يتخلّص من الأمير الذي أشاروا له كهنته. ففي بلد يُؤمن فيه الناس بالنذر ويحتكمون إليها يكون مصير الملوك في يد الكهنوت، ولو ظلّت الشعوب مُتّسقة في أفعالها مع مفاهيمها لكان رجال الديّن الحكم الوحيد الدائم للإمبراطوريات وحكّامها. فمن ينطقون باسم الآلهة مخلوقين ليكونوا القادة الفعليّين للأمم دون أن يتعرّف عليهم أحد في هذه الحياة الدنيا أو دون أن يظهروا في العلن(1).

(1) لا يحمل الكهنة في الأمم الحديثة السلاح أبدا؛ لقد اتخذت البابوية، أي الطائفة الأكثر كهنوتيّة والأكثر دمويّة في المسيحيّة مبدأ " الكنيسة تمقت الدم" شعارا لها. صحيح أن كهنتها لا يهرقون الدم بأنفسهم، فتحت إمرتهم الأمراء والقضاة الذين يعفونهم من هذه المشقّة؛ فهؤلاء يسرّهم كونهم المُنفّذين للانتقام الإلهي الذي يأمر به ــ

لقد تأسّس سلطان الكهنة ونفوذهم في حقيقة الأمر وفي كل مكان على أسس صلبة؛ فقد نشأ من مخاوف الناس ومن آمالهم وعضدهما باستمرار كلّ من التربية والعادة، الجهل والخوف والضعف الذين ثبّتوا سلطانه وبسطوه.

يعرض علينا سيباس Cébes الخداع على شكل امرأة جالسة في مدخل الباب الذي يؤدّي للحياة وهي تسقي من كأس الخديعة كلّ من يتقدّمون إليها، هاته الكأس هل النذر؛ استولى الكهنة على السنوات الأولى للشباب، وتكفّل ترجُمان الآلهة بتربية المواطنين. لم يكن همّ هذه الكأس سوى إصابتهم بالوباء العظيم وتحذيرهم من البحث عن الدواء لجعلهم تابعين طيلة حياتهم لدجّاليهم الروحيّين. وهكذا اعتاد الانسان منذ نعومة أظافره على لا يرى العظمة والرفعة إلاّ في كاهنه. اقتصرت رعاية المربّين للشبيبة على الهامهم التعلّق المهين والمخزي بأوهام تخدم الكهنوت وتُعلّمهم الانصياع التام لأوامره والثقة العمياء في قراراته وأحكامه، والتقدير الغبيّ لأسراره والحقد الدفين للعقل والفكر السليم. لقد شعر هؤلاء المعلّمين بأنه عليهم أن يزرعوا الأفكار، التي ستقوم

كهنتهم. يُعدم الدرويد Druides في بلاد الغال ولدى الجرمان المجرمين ويحرقونهم ويُقدّمونهم قرابين للآلهة. لقد كان الكهنة الوثنيّين والكهنة اليهود جزّارين فعليّين، ما جعل أضاحيهم المُقزّزة توائمها القساوة.

عليها يوما سلطة الكهنوت، منذ الصغر يكون فيها الناس ليّنين خالين من التجربة وتعوزهم الخبرة. وهكذا أسّس الكهنة في كل البلدان لأنفسهم منبت للعبيد الذين سيكونون في سن الرشد مستعدّين أن يتبنّوا قضيّتهم وأن يُؤيِّدوا رغباتهم ويميلون معهم كلّ الميل فيقيمون الثورات التي سيُخيَّل إليهم أنهم معنيّين بإشعالها. بفعل السياسة الحمقاء والرعناء ليست التربية سوى فن خلق مواطنين سيّئين أشرار، متناذرين (يؤمنون بالنذر) ومتعصّبين[1].

لم يكن تعظيم الشعوب واجلالها للوزراء الربّانيّين بلا جدوى؛ فهذه الشعوب لم تتوانى في إغداق الهدايا والعطايا على الذين اصطفتهم السماء، واسناد المكافآت لهم على تعليماتهم وتدخّلاتهم وشفاعتهم وعلى الخدمات العظيمة التي خُيِّل إليهم أنّ لها الفضل في ازدهار الدول ونمائها. لا يجب أن نتعجّب إذا من حجم الثروات التي جمعها الملوك ورعاياها من كل مكان وفي كل العصور، بسخاء تنذّرهم وتطيّرهم، لصالح الكهنة. كانت أُضاحيهم وصلواتهم وتأمّلاتهم، وماذا أقول أيضاً!، وخمولهم وعطالتهم وفراغهم أسباب كسب رضوان العليّ وسنده.

[1] تتمتّع، كما نعرف، جامعة أكسفورد وجامعة كمبريدج بمداخيل ضخمة، لنقل إنها تصل إلى مِئتي ألف ليرة إسترليني، ومع ذلك لا أحد ينكر أن مبادئ هذين المدرستين لا تتماشى مع مصالح أمّتنا، وأنّهما حاضنتان إما لليعاقبة Jacobites أو للعبيد.

لقد كنّا نعتقد أنّنا نشري الله نفسه عندما نغدق على خلاّنه وخدّامه التكريمات والنفوذ والعطايا وعندما نُغرقهم في الوفرة والبذخ. لم يكن في نظرنا أكثر شيئا شرعيّة من جعلهم يعيشون في التألّق الذي يليق بعظمة السيّد الذي يخدمونه ومجده[1].

لقد وفّرت العطالة وأوقات التفرّغ والراحة الوفيرة التي أنعم بها الملوك والشعوب على الكهنوت الوقت الكافي للتأمّل. لابدّ أن الحياة الخالية من الاهتمامات والاشغال كانت مُلائمة لأحلام اليقظة والاوهام وشرود الذهن؛ كانت أوهام الكهنة تدور، بدون أدنى شكّ، حول الألوهيّة التي يدينون لها بوجودهم وبمكانتهم بالثروات التي يتمتّعون بها، فكان من الواجب عليهم أن يركّزوا تفكيرهم عليها وينصتوا إليها لكي ينقلوا للناس ما أُمروا أن يفعلوه وفيما وجب عليهم أن يفكّروا.

[1] أغلب الدير التي نجدها في أوروبا، وتلك التي لا تزال قائمة إلى ما قبل الإصلاح، كانت قد تأسّست في عصور الجاهلية والتطيّر (النذر) على يد المجرمين النّافذين الذين اعتقدوا أنهم يكفّرون عن خطاياهم عندما يغدقون على الكهنة الكسولين بعدما عاشوا مثل الطغاة ومثل الحيوانات الضارية. ونجد بيننا أوسّا Ossa أمير السكسون الشرير الذي عُرِف بالتبرعات والعطايا الكبيرة التي تبرّع بها للكنيسة. كان الإمبراطور قسطنطين مجرما وغدا ومن أكبر المتبرّعين للقساوسة المسيحيّين، وبالمقابل أشار القساوسة عليه بالقدّيس.

لكن كيف سيتّفقون على أشياء تخصّ مسألة غامضة ومُبهمة كمسألة الدين، التي تختلف حولها تصّورات الناس وتعدّد مفاهيمهم لها؟!، لم يكن إذا هناك أي توافق بين المنظومات التي انبثقت عن التأمّلات الكهنوتية؛ لقد كانت محلّ نزاعات وخلافات أبدية، ولم يتوصّلوا إلى أي اتفاق حول أي شيء، وكانت القوّة وحدها القادرة على أن تحسم الخلاف.

وضع الكهنة نذرهم المختلفة وتجادلوا على الدوام فيما بينهم حول الإله الذي أتوا به لبني البشر الفانين، حول صفاته وحول الطريقة التي تُسمَعُ بها نبوءاته، حول العقيدة التي تُرضيه أكثر وحول نهج عمله وتدبيره الخ...، ولقد غيّر الناس في هذه المسائل كلّ حسب طريقته وفهمه ممّا جعل وجهات النظر والمواقف من نفس المسألة متعدّدة ومُختلفةً. لم يستطيع الكهنة أن يتّفقوا حول أيّ شيء ما عدا حول حظر إعمال العقل، ولم تُقدّم فرضيّاتهم التافهة في كل الأوقات سوى بحر من التخمينات والاحتمالات التي يضيع فيها الفكر البشري ويتوه.

تعود الانقسامات والبدع والنزاعات بين الطوائف الدينيّة إلى الغرور والانتهازية والعناد؛ فاللصوص وحدهم عادة الذين يتقاتلون هندما يتعلّق الأمر باقتسام الغنيمة. كان يمكن لهذه المساوئ أن تكون أقلّ إضرار لو لم تمسّ هذه النزاعات، التي لا تخصّ سوى أعضاء

الكهنوت وطوائفه، براحة الأمم وأمنهم. لكن كلّ أمر يهمّ السماء وجب أن يهتمّ له بني البشر الفانين؛ هكذا ظنّ الحكّام ورعاياهم أنهم مُلزَمين قطعا بالمشاركة في نزاعات مُرشديهم الروحيّين وصراعاتهم وإلاّ سوف يرتكبون جرما كبيرا لو التزموا الحياد وبقوا مُتفرّجين غير مبالين بمعاركهم. لقد ظنّوا أن الأمر يتعلّق بسعادتهم والحال أنّ الأمر يتعلّق بطموح الكهنة وغرورهم الصبياني وبعطاياهم. لقد ظنّنّا بحماقتنا أنّ خير الدول ورخاؤها يعتمد بالأساس على فتاويهم وارشاداتهم.

كانت الكلمات الغير مفهومة حتى لمن ابتدعوها والتفسيرات الجزافية والواهية والاحتفالات السخيفة كفيلة بأن تخلق المشاكل والاضطرابات في كلّ وقت وكل حين؛ لقد سالت دماء بني الأوطان لتُثبّت وتوطّد النظم الغريبة والعجيبة لبعض الماكرين المحتالين الجهلة الذين لم يستطيعوا أبدا أن تقاسموا بهدوء وسلام رفات الأمم.

لقد خُيِّل للحكّام الورعين أنّه من واجبهم أن يؤيّدوا فتاوي كهنتهم وأن يمتثلوا لتوجّهاتهم، فانصاعوا لرغباتهم ورضخوا لعجرفتهم وانتقموا لهم من رعاياهم المتعنّتين والثائرين الذين لا ينفعون في شيء. وكانوا يقدّمون لهم القرابين البشرية عن طيب خاطر وأصبحوا حماة لحماقاتهم وأبطال في نزاعاتهم وخدّاما لنزواتهم، مضطهدين جلاّدين لعدد كبير من المواطنين الصالحين الشرفاء المُسَالمين الذين كان جرمهم

الوحيد أنهم رفضوا أن يمتثلوا للقرارات المتغطرسة، للمراسيم المستهترة وللفتاوي الغريبة التي يريد الكهنوت المتجبّر والمتعجرف ان يُمليها عليهم.

ثارت الإنسانية عند رؤيتها الاهانات، النفي والاقصاء، الاستعباد والمذابح التي نتجت عن طموح وتكبّر وعناد الكهنة في هذا العالم؛ يذهل العقل ويحار عندما نتصفّح سجلاّت هؤلاء الناس المُبجّلين الذين، تحت العناية الربانية ومنذ آلاف السنين، أزعجوا ثم اضطهدوا ثم أبادوا سكان الأرض الأشقياء. لقد كانوا على الدوام آفة على الحكّام والمحكومين.

من قرن إلى قرن كنا نشهد متأمّلين مُتوهّمين يخرجون من صدر الجماعة الكهنوتية مُدّعين أنهم توصّلوا إلى اكتشافات جديدة تخصّ الربوبية ومساراتها، ولم يحصل سوى أن تشعّبت أخطاء الجنس البشري وتفرّعت أوهامه وضلالاته. ودفعت الأمم بدمائها ثمن النظم المُضلِّلة التي قِيل لها أنها من أشدّ الأمور أهميّة. لم تكن الشعوب أبدا سوى أدوات عمياء وقذرة للكهنة الذين أسكروهم بدهائهم وبدجلهم وطوّعوهم لأهوائهم ولأوهامهم.

لقد ظنّت هذه الشعوب أن قضيّة الكهنة قضيّة نبيلة وسيكونون مسرورين بأن يهلكوا في سبيلها؛ لم تلحظ أبدا بأن الوحي الذي قدّموه

لهم لم يكن في الحقيقة سوى خباط بعض المواطنين السيئين، المتحمّسين، المتعنّتين، الطموحين والماكرين المخادعين.

ومن أجل أن تظلّ الشعوب تحت نيره، لم يكن هناك من سبيل فعّال للكهنة سوى الجهل وازدراء العقل وهذا العته المشين الذي عملوا جاهدين أن يحبسونهم فيه؛ كان الشيء الوحيد الذي اتّفق حوله وزراء الآلهة وكهنتها هو أن يُظِلّوا أولئك الذين أملوا في أن يرشدوهم ويُوجّهونهم. كان شجب العقل وادانته هو أوّل مبادئهم ومن ثمّة حظر استعماله واخضاعه لسلطتهم؛ فالكهنوت في حاجة إلى عبيد لا يروا إلاّ بأعينه. ولأنّه لم يكن يراعي سوى مصالحه وغاياتهن كان يُشكّل للجنس البشري ورم خبيث أو مرض عُضال.

هذا الجنس البشري الذي كان قد كفاه أن يتعلّم أن يشكّ في النور الوحيد الذي وهبته له الطبيعة لكي يعجز على أن يتبيّن الخطأ من الصواب، الخير من الشرّ والصالح من الضارّ، ولكيلا يعرف أي قاعدة أخرى سوى مصلحة كهنته، ولكي يُقدم على الاجرام بكلّ حماس كلّما أمروه بذلك.

فلنكفّ على الاستغراب من كل العواقب التي وضعها الكهنوت في كل الأوقات أمام تقدّم المعارف الإنسانية، ومن الحقد الدفين الذي يكنّه للفلسفة، ومن القمع الذي مارسه في كل العصور ضدّ أولئك

الذين أرادوا التعلّم والتنوّر وأن يوقظوا بني جلدتهم من غفلتهم وأن يفكّوهم من قبضة النذور والتطيّر لكي يعيدونهم إلى رشدهم.

لقد وجد أحبّاء الجنس البشري الحقيقيّين في الكهنة أعداء قساة حقودين لا يلينون قد اسكتوا بقوّة التنديد والتنكيل كل دعاوي الحكمة والحريّة المسلوبة والمنتهكة. لم يعرضوا صداقتهم إلاّ لمشاركتهم في مؤامراتهم ومخطّطاتهم الخبيثة أو لنفوس دنيئة تدين لهم بالطاعة العمياء عوضاً عن ذوي المهارات والفضائل[1].

كل انسان يفكّر أو يحثّ الآخرين على التفكير واعمال العقل هو العدوّ اللّدود لكلّ أولئك الذين شيّدوا حكمهم ومدّوا سلطانهم بجهل الناس وسذاجتهم وبانعدام التفكير لديهم؛ كانت العصور السانحة لحكم الكهنوت هي تلك التي لم تكن فيها الأمم المُتوحّشة والمعتوهة

[1] لقد مات سقراط بسبب الكهنة وأُضطرَّ أرسطو أو حكم على نفسه بالنفي الطوعي لأنّ يورميدون Eurymédon، كاهن سيريس، اتهمه بالكفر. لقد أُكره ديكارت على الاغتراب الخ...، وكان محمّد يتباهى بكونه النبيّ الأميّ كما أحرق خليفته عمر مكتبة الإسكندرية. وأتلف البابا القدّيس غريغوري بقدر ما استطاع كل كتب القدماء. أعلنت النذور والسياسة في كل الأوقات الحرب الأبديّة على كل المؤلّفين والكتب التي تستطيع أن تستنير بها عقول الناس. لقد حذّرنا القدّيس بول Saint-Paul من العلم الذي، حسب رأيه، لا يصلح سوى للنفخ في النفوس، أي أنه يطلق لها العنان.

ترى إلاّ بأعين كهنتها وشيوخها. كانت تلك الأزمان بالنسبة لهم عصور ذهبيّة؛ ففي هذه العصور المظلمة التي سادت فيها النذور (التيمّن والتطيّر)، كنّا نرى فيها أساقفة وأحبار مُتغطرسين يدوسون على رؤوس الملوك المهانة تحت أقدامهم ويأمروهم بكلّ وقاحة أن يتنحّوا عن العرش، يُثيرون الشعوب ضدّ الأمراء الذين قد بلغت بهم الجسارة إلى أن يعصونهم ولا يمتثلون لأمرهم، وأخيرا نراهم يجمعون كنوزهم من ثروات الشعوب وأرزاقهم المسلوبة لإثراء أحبّة آلهتهم وخدمتها[1].

دائما ما يصنع الفساد والتعسّف القوّة، ويكون الفسوق الرفيق الوفيّ للإفلات من العقاب؛ فالكاهن الذي كان يُنظرُ إليه في كل مكان على أنّه صوت السماء لم يكن أبدا صوت العقل والحكمة، وقراراته وأحكامه يُمليها عليه الجشع، النقمة، التكبّر، الازدراء والخداع.

---

[1] لقد وضع البابا ألكسندر الثالث قدم رجله فوق عنق الإمبراطور فريدريك بارباروس (أو ذي اللحية الحمراء) كما جلد نفس البابا بالسوط ملك إنكلترا هنري الثاني، كما رمى البابا سلستين الثالث التاج تحت قدميه ثم وضعه بعد ذلك على رأس الإمبراطور هنري السادس وهو جاث أمامه على ركبتيه، وسرعان ما نزعه عنه لكي يُنذره ما سيحدث له لو لم ينصاع للكرسيّ الرسوليّ. وأزاح صموئيل شاول بعدما جعله ملكا على إسرائيل وبعدما أعطاه تاج داوود. أزاح كذلك الأساقفة الفرنسيّين لويس التقيّ Le Pieux Louis في مجلس كان قد أُقيمَ في سواسون Soissons. أمّا كبير الكهنة في الكونغو فكان له الحق في أن يُزيح سيّد البلاد وحاكمها الخ...الخ...الخ.

بعدما أُنشئت سلطة الكهنوت، لم تعد الربوبيّة منشغلة سوى ببسط نفوذ خُدّامها ومدِّ سلطانهم وتوسيع ثرواتهم، فكانت تتوعّد بتدمير كلّ من تُسوّل لهم نفوسهم أن يقاوموهم. ماذا أقول!، لقد جادت عليهم الآلهة بكرمها واهتمّت حتى بإمتاعهم واشباع رغباتهم؛ ففي عديد من البلدان كانت الآلهة تأمر بالبغاء وكان الرجس الأكثر غرابة وعجبا يتلحّف برداء الألوهيّة؛ لا تُفكّر لا تتدبّر!، وتنقطع الناس عن التفكير وتستسلم وتنصاع لكي شيء حالما يُقال لهم أنّ الألوهية تَأمُرهم بأن يصمتوا[1].

واختصار القول، حتى وإن جرّد الملوك بطموحهم الكهنوت من مظاهر السيادة، فقد حافظ على نفوذه الواسع الذي يفرضه على

[1] لقد أمر الدين لدى البابليّين أن تمارس كل امرأة البغاء مرّة في حياتها داخل معبد عشتار. لم تكن ألغاز الوثنيّين غالبا سوى مشاهد من الفجور؛ فلأسقف كالكوتا شرف فضّ بكارة امرأة الحاكم لإلهه. يختار الثعبان المقدّس الذي يعبده الزنوج من فتيات البلد من يريد أن يشرّفهنّ بقبلاته وعناقه. أينما كان للكهنة نفوذ سرعان ما تفسدُ أخلاقهم؛ كان الكهنة، أبناء هيلي، لدى اليهود ينامون مع النساء التي تأتي لتبتهل وتتضرّع للرب على أبواب الخيمة Tabernacle. كان الكهنة الاسبانيّين والبرتغاليّين يعيشون، كما نعرف، في الفسوق والمجون الأكبر دون أن يجرأ الأزواج الغيورين على إيجاد ما يُعيبوه فيما يصنعه هؤلاء المرشدين الروحيّين من فسوق مع نسائهم. فلقد أتاح الاعتراف السمعي البصري للبابويّين ألف سبيل لإفساد النساء.

السلاطين أنفسهم؛ فكان هؤلاء السلاطين يرتعدون أمام أُناس نافذين كفاية لكي يخلعونهم عن العرش، يؤججون الشعوب ضدّهم ويجعلوا من انجازاتهم غير ذي نفع. كان الحكّام في كلّ بلدان العالم في حاجة إلى وثاق الدين من أجل أن يبسطوا حكمهم، ولم ترى الشعوب جمعاء في أمراءهم وسلاطينهم سوى أناس عاديّين مثلهم مدنّسين لا يصلحون للحكم إلاّ إذا افصحت الآلهة على أفواه وزراءها وكهنتها أنها تُبارك من اختاروهم ليحكموهم. ولقد كان يبارك هؤلاء الكهنة الملوك بالمراسيم والاحتفالات ويجعلوهم أكثر وقارا ومهابة في أعين الأمم[1].

---

[1] يمثّل حفل التتويج، الذي يُعتبر ضروري لا غنى عنه عند بعض الشعوب، علامة لا لبس فيها على عدم استقلالهم عن الكهنوت، فهو الذي يزفّ للناس مباركة الآلهة ومُصادقتها على من اختاروه ليحكمهم. لا يزال هذا العرف الذي كان معمول به لدى العبرانيّين قائما إلى اليوم؛ فعلى ملك اثيوبيا أن يكون عضوا في النظام الكهنوتي لكي يصل إلى سدّة الحكم، ويستلم السلطان التركي من المفتي الحق في قيادة المسلمين عبر تحزيمه بسيف "ذو الفقار". يقول أفلاطون بأن الملوك في مصر يقع اختيارها أولاً من ضمن الكهنة، وعندما يقع فيها بعد الاختيار على مُحارب فإنّه يقعُ ضمّه إلى الجماعة الكهنوتية (بلوتارخ، من إسايد إلى أوزيريد، الفصل الخامس). ونفس الشيء كان يُمارَسُ في بلاد فارس؛ يقع تلقين الملوك على يد المجوس (هامفراي بريدوا ، تاريخ اليهود والشعوب المُجاورة، الكتاب الخامس. من المؤكّد أن امبراطور ألمانيا لا يحقّ له أن يُمارس وظائف الشمّاس عندما يحضر القُدّاس التي يُحييها البابا، كما يحمل الاباطرة الروم لقب القادة أو الأسياد الأحبار.

تُظهر لنا هذه التأمّلات المصدر الحقيقي للقوّة التي عرفت الأخويّة الكهنوتية كيف تحافظ عليها دائما وعرفت كيف تجعل الحكّام الدنيويّين أنفسهم يعترفون بها؛ فقوّة الفتوى وصداها أكبر بكثير من ذوي السلطة المطلقة. يعتقد الأمراء أنهم مُجبَرين على أن يجثوا على ركبهم أمام الكهنة، أن يغمضوا أعينهم على إسرافهم وشططهم، وأن تُترَك جرائمهم دون عقاب، وغالبا ما يعطونهم نفوذا مهلكا في باقي مقاطعاتهم؛ فحالما يتسلّح وزراء السماء بالسلطة والنفوذ فإنّهم لا يتأخّرون حقيقة على أن يصبحوا طغاة لا يُطاقون، ويصبح الكاهن في المناطق التي يسود فيها النّذُر قاسٍ ومرتاب ومتقلّب المزاج. ولأنّ مصلحته تقتضي أن يكون لا انساني وعديم الرحمة بقد منح لنفسه الحقّ أن ينبش في الأفكار وفي عقول الناس لأنّ في هذا المكان عليه أن يؤسِّس امبراطوريّته؛ إنه عدوّ حرية التعبير التي لا يمكن أن يتسامح معها وخطاباته المُظلّلة جُعِلت لتثير شكوكه ويكشف المشكّكين أو المتعضين، لا يثق في أحد وعليه أن يُطفئ عن عجل بذرة النور في العقول التي يمكن أن تُميط اللثام عن مكره وتُعرّي إفكه ودجله. فمصلحته تقتضي أن يُحطّم كلّ ما يمكن أن يُسبّب له الإزعاج والامتعاض، وبمجرّد أن تكون مشبوها ومريب يُعدّ ذلك بالنسبة له جريمة كبرى تستحقّ الموت بسببها[1].

[1] كان همّ محاكم التفتيش هو إيجاد مُذنبين ومحاكمتهم ولذلك نرى أن فقه القضاء، أو التشريع، يختلف عن القوانين المدنية التي تحمي عادة المُتّهم. إنها تتوافق مع العدالة ==

تصبح الرأفة والحلم من الصفات الضّارة بمصالح هؤلاء الماكرين المُخادعين المُرتهن وجودهم وشأنهم وقوّتهم بجهل بني بلدهم؛ فسياستهم كانت تقتضي أن يقتُلوا كل إحساس بالندم، ويجب على كهنة الإله ووزراءه أن يكونوا مثله مرعبين قاسين وبشعين، وإذا ما أُحتُقِرَ كاهن فإنّه سرعان ما يُنتَهَكُ معبد ويُصبح من ثمّة خلاء وقفارا.

تلك هي الثوابت التي عمل بها وزراء الربوبيّة وكنتها في الدول التي قضت الحماقة والسذاجة الدينيّة لدى الشعوب، ومعها سياسة الجور والهمجيّة للحكّام، بأن يكون للكهنوت الحق في أن يحكمهم في دنياهم بما يراه هو ضروريّ وصالحا لآخرتهم؛ فحياة كلّ مواطن تحت رحمة بعض الطغاة القساة الحذرين والمحاطين بالمُخبرين والجواسيس الذين يحطّمون غالبا كلّ من تجعلُه بعض ظنونهم مشبوها. وبموافقة الملوك الذين يزعمون أنهم أباء الشعوب وحماة الوطن، يستحوذ هؤلاء الوحوش بكلّ وقاحة على الخيرات يتملّكون على الرعايا في أبدانهم وفي دمهم ويضحّون بهم من أجل أمنهم وسلامتهم.

الطبيعيّة التي تقضي بأن ندع المذنب الهارب في حال سبيله خير من أن ندين ونعاقب مُتهم وهو بريء. كانت محاكم التفتيش الجهنميّة التي اخترعها البابا ورجال الدين (الاكليروس) الرومانيّين المغتاظين من التساهل واللين اللذان أظهرهما الأمراء العَلمانيّين ضدّ أعداء الكنيسة.

وهكذا نرى كهنة الإله، الذي يُقال لنا أنه خيّر يحبّ البشر، يحكمون بالحديد والنار، تمتلئ السجون في حكمهم ويُشيعون في النفوس رعبا قاتم يهين الشعوب ويُخزيهم ويسلب منهم إنسانيتهم ويكسر فيهم كلّ شغف بالتعلّم. لكن ماذا يعني للنُذُرِ أن تكون الشعوب انسانيّة مُتحضّرة، بارعة ومُتقِنة للصنائع وثرية، في ماذا يهمّها أن تكون الدول مزدهرة وعامرة، أن تنعَم الممالك العابرة في الأرض بالوفرة والتقدير اللذان تُعطيانها لها العلوم والأعمال والقوّة؟، هل أن مصلحة السماء وضِعت لكي ننصاع إلى رؤى سخيفة وتافهة؟، ماذا يهمّ الكهنوت أن تكون الشعوب فقيرة تتضوّر جوعا وجاهلة مادام هو غنيّ واسع الثراء ومكرّم؟

للكاهن وللطّاغية السياسة عينها والمصالح نفسها؛ لا يحتاج هذا وذاك سوى لرعايا حمقى خاضعين. تربكهم سعادة الشعوب وحريّتها ونماءها ويبتهجون لحكم شعوب خائفة ضعيفة وبائسة. لا يحسّون بالقوّة إلاّ عندما يكونوا مُحيطين بتعساء وأشقياء.

لقد أفسدهما الحكم المطلق والفسوق والإفلات من العقاب؛ فكلاهما مُفسدان، هذا بحكمه وذاك بغفرانه والتكفير عن الذنوب. لقد اجتمعوا على أن يُطفئوا نور الحق والعقل وأن يجتثّوا حتى التوق إلى الحريّة نفسه من قلوب الناس. هكذا هي السمات التي بدى عليها الكهنوت

ورجال الدين في كلّ العصور وفي كلّ البلدان والتي اتّسمت بها كذلك النُّذُر. يمكننا أن نعرّف الكهنوت على أنه جمعيّة أو اتحاد شكّله بعض الدّجّالين ضدّ حرية وسعادة وراحة الجنس البشري. لقد شكّل الكذب والخوف والجهل والسذاجة الدّعامة الحقيقية لهذا الاتّحاد، وكانت دوافعه الحقيقية تتمثّل في حب الهيمنة والجشع والغطرسة والانتقام.

لقد أُجبِر في بعض الأوقات أن يجاري الظروف في سياسته ويستكين وأن يخالف أفكاره الأساسيّة. وكان الكاهن بروتيوس* حقيقي؛ فأحيانا يرغب في مغازلة الشعوب وابهارها بلطافته، باعتداله، بلامبالاته، بفقره، بزهده وكرهه للملذّات، وأخيرا بتنسّكه وبتقشّفه. فتارة يُسحِرُ أعيُن الناس بالمعجزات المزعومة وبالوحي المنَزَّل من السماء، بالانتشاء والاستبصار، بالإلهام والنبوءات، وتارة أخرى يفرض عليهم بسلطانه ترفه وثرواته بالطقوس والاحتفالات الفاخرة. لكن مهما كان المظهر الذي بدى عليه الكهنوت فقد من الجليّ أن مُخطّطه كان دائما خداع الناس واسترقاقهم.

* بروتيوس Protée هي آلهة البحار في الميثولوجيا اليونانيّة لديها القدرة على التحوّل من شكل إلى شكل، أو من هيئة إلى هيئة (المترجم)

كانوا أعضاؤه المُتحمّسين، المتعصّبين والمخدوعين بخيالاتهم تارة عاقدين العزم على جعل الشعوب متواطئة معهم في حماقاتهم، وتارة أخرى يبدون منافقين ومخادعين ومن أعماق قلوبهم يزدرون الآلهة التي أعلنوها للناس، ويستهزئون من بساطة الأشقياء الذين يسلبون ويخدعون. لقد جعلت منهم عادة الكذب دجّالين مُشعوذين. لقد حملتهم المصلحة دائما على كره الحقيقة، وزادهم الإفلات من العقاب جرأة لارتكاب أفظع الجرائم. وهم دائما ما يعوزهم العقل والانوار، كانوا قد أحلّوا محلّ الأخلاق الفاضلة الحقيقية مجموعة من الاحتفالات، من أيام الكفّارة والغفران، من العقائد والشعائر التي تعود لهم بالنفع دون سواهم. لقد وضعوا النظم والفتاوي مكان صالحات الأعمال والأفعال؛ لم تكن للآلهة المتواطئة معهم والمتشاركة معهم في شهواتهم من وظيفة سوى التغطية على جرائمهم البشعة ومباركة احتيالهم وتسويغ جرائمهم وحفظهم من انتقام الناس.

من أجلهم قاتل الملوك والشعوب، تبنّوا قضيّتهم واستوجبوا نصرة كرم قراراتهم السخيفة. لم يدركوا أبدا أن الآلهة التي تتكلّم على أفواه هؤلاء الكهنة غالبا ما تتناقض مع نفسها، تأمر وتبارك في زمن ما كانت قد حرّمته وأدانته في زمن آخر. لقد انتشر الحقد والكراهية، الشقاق والفتنة، والاضطهاد والسخط الذي جلبته القوة السحرية لوزراء السماء

من الجحيم، لدى كل الشعوب والأقوام وقطعوا من الأرض الرأفة والعدل والوئام والسلام. وباختصار، يمكن أن ينطبق عليهم ما قاله فيرجيلVirgile * عن الهاربيز ** Harpies (أو الخُطّاف):

كان الوحش أكثر حزنا منهم

وما من طاعون كان أكثر افتراسا

وكان غضب الرب يُثير أمواج بحر الستيجيّين***

راكمت الأمم الضّالة الثروات وأقامت التشريفات والمقامات الرفيعة لهؤلاء الأوصياء على مشيئة الرب الذين لم يكونوا ليتّفقوا أبدا حول ماذا تطلبه الألوهية من الناس، لتكافئهم على احسانهم وكرمهم للجنس البشري. لقد أصاب الفقر والفاقة الشعوبَ من أجل أن تدفع

---

* "اينيد" Enéide ملحمة كتبها فيرجيل بين سنتي 29 و 19 قبل الميلاد، وتحتوي على ما يقارب عشرة آلاف بيت شعر (المترجم)

** الهاربيز Harpies هي آلهة الدمار والانتقام الإلهي، ثرثارة وأسرع من الريح، تفترس كلّ ما يعترض طريقها. يُصوّرها فيرجيل على شكل طائر (الخُطّاف) ووجه امرأة، ذو مخالب. في الاساطير اليونانية، هنّ بنات توماس والحورية الكترا وأخوات لإيريس وأرسي. (المترجم)

*** ستيجيا هي حضارة قديمة كانت متوارية في الصحراء يحميها نهر ستيكس، يقطنها. شعب بلاد ستيجيا غريب الأطوار ويحمل علم سحري عظيم، مهووس بالموت والخلود. المرجع: WikiPédia.org، (المترجم)

لهاته الشخصيّات المُبجّلة ثمن أفكارها الغامضة وصلواتها العقيمة ونُذُرهم وفتاويهم المتغيّرة وثمن تعقيداتهم الغير المفهومة وتعنّتهم الذي لا يُقهر، وثمن الفتن والهرج والمرج الذي يُثيرونهم في الدول.

كانت البدع الكهنوتية قد فكّكت أواصر وحدة المجتمعات المدنية وجعلت الشعوب خاضعة لمشرّعين لا يمكن التوفيق بينهم. وكانت السلطة السياسية في صراع دائم مع السلطة الإلهية للدين، وكلّما اتّحدوا تصبح الرعايا مقهورة ومكبّلة. كانت الآداب والأخلاق من طارئات الأمور عرضيّة، وأخلاق الطبيعة لم تكن متوافقة مع تلك الأخلاق التي يدعوا إليها الكهنة الربوبيّن الخارقين. وأخيرا كان الصالح العام قد أصبح على الدوام ألعوبة في يد بعض المواطنين السيئّين الأشرار، إنهم أبناء جاحدين قد مزّقوا أوصال الوطن، يدّعون أن السماء هي من أنعمت عليهم بالخيرات التي منحتها لهم الأمم أو التي حصلوا عليها بالمكر والاحتيال.

مُستبدّين في حكمهم طغاة مُضطِهدين، يزرعون الفتنة بما تقتضيه مصلحتهم؛ لقد رأيناهم في كلّ مرّة يذرقون (يسلّحون) الرعايا ويثيرونهم ضدّ السلطة الشرعية التي أصبحت جائرة. لقد كان لهؤلاء البشر السماويّين من الخسّة والدّناءة ما يجعلهم أحيانا يدعمون مواقف الحكّام الظالمة، يتملّقون هؤلاء الأسود ويغذّون نهمها طالما أن لهم

وحدهم ترويضها أو أنها مهيّأة للفتك بأعدائهم. ولقد شهدنا كيف أنه لم يكن لطغيانهم القائم على الظنّ والتطيّر حدود وكيف كانت الشعوب بطغيانهم مقموعين، ولكن عندما أراد ملوك حصيفين أن يُحجموا نفوذهم ويحتوون حماستهم الهدّامة وإسكات أفواههم المسمومة وتطبيق القانون عليهم، سرعان ما تهيج الشعوب وتثور: بالتمرّد، بالاغتيالات، بالسمّ والخيانة تنتقم السماء لوزرائها ونوّابها الذين وقع إهانتهم. لقد أُقترفت عادة أبشع الجرائم في الأرض باسم الله وبتِعلّة إعلاء كلمته والثأر لجلالته[1].

يُثبت لنا العقل الرشيد والسياسة الحكيمة أن المنفعة هي التي يجب أن تكون المقياس الوحيد الثابت للمبايعة، للامتنان، للامتيازات وللمكافئات التي يمنحها المجتمع لأعضائه؛ لكن هذه المنفعة تبقى نسبية مادامت الأمم تحتكم للنُّذُر وللتيّمن، فلن تقدر على أن تبصر ما ينفعها غير عبادة ربها والمعتقدات التي أنشأها الأشخاص الذين

[1] كم من الأمراء قُتِلوا بالخنجر المُقدّس! لقد سُمّمَ الإمبراطور هنري السادس من طرف راهب دومينيكيّا بالخبز المُقدّس. لقد كان من سوء حظّ هذا الأمير أنه أثار استياء البابا كليانت الخامس Cmément V ، وأثنى البابا سيكوستوس الخامس Sixte V أمام كرادلته على الراهب الذي اغتال هنري الثالث ملك فرنسا. يُؤكّد باريونيوس Baronius أن حكم البابا مضاعف: حكم يتمثّل في الرعي والآخر في القتل. هذه الثوابت قديمة جدّا لدى الكهنة، فقد قطّع صامويل بنفسه الملك أجاج إلى أشلاء.

أعتبرهم هذه الأمم رسله وكهنته وصوته ومفوَّضيه وأحبّائه في الأرض. ورغم إسرافهم وشططهم فإن هؤلاء هم المُبجّلين والمحترمين المفضّلين الذين لهم الأجر الوفير ويدينون لهم الناس بالطاعة والإخلاص؛ سوف يُخيّلُ إلينا أن السماء تُبارك حتى جرائمهم الفظيعة ولن نُميّز بين الكاهن وربه، ولن نرضى أبدا أن يقمع الحكم الدنيوي السلطة المقدّسة التي إذا ما اغتاظت يغتاظ العليّ في السماوات العُلا[1].

يصبح الملك في أمّة تُرجع أمرها لما تأتي به النُّذُر أوّل العبيد للنُّذُر وللكهنة، وتصبح مصلحة الدين وكهنته غالبة على مصلحة الدولة. سيكون لهؤلاء الكهنة الحق دائما في أن يكونوا غير ذي نفع وضارّين بالصالح العام، سوف يزرعون الأشواك ولا يجنون إلاّ الثمار. سوف يُكافئون على عطالتهم وتفرّغهم وعلى عقمهم، وحتى على الشغب والحروب والثورات التي يثيرونها في قلب الأمم.

---

(1) لقد استطاع حكّام بصعوبة بالغة وبشجاعة لا تلين أن يُعيدوا الكهنة إلى رشدهم. وكانت كلمات مثل "المعصومية" و"الحق الإلهي" حواجز لم يجرؤ السياسيّين أبدا على تخطّيها. تتمثّل حصانة رجال الدين (الاكليروس) في أن لا يساهموا في خدمة الدولة مثل باقي المواطنين وفي الحق في ارباك النظام العام للمجتمع دون محاسبة. فلقد قامت الخصومة الشهيرة بين البابا بول الخامس مع جمهورية البندقية Venise بسبب منع مجلس السيناتورSénat الكهنة من اكتساب ممتلكات جديدة وبسبب معاقبته لراهب على اغتصابه بنت ذات الحادي عشر من عمرها وقتلها فيما بعد.

إلى متى أيتها الشعوب الضّالة تُطعِمون وتُلاطِفون وتشحنون وتُمرّنون أطفالا ناكري الجميل ليفترسوكم! إلى متى وأنتم ضحايا ومخدوعين بعجزكم، بين جدران بيوتكم تتألّمون بسبب أُناس غرباء عن الدولة التي وجب عليكم إنقاذها منهم لأنهم لا يريدون أن يكونوا مواطنين فيها إلاّ لكي يُفقّرونها ويهزّوا أركانها؟ ماذا تنتظره السياسة أن يفيدها جسم يعيش على حساب المجتمع ولا يفيده في شيء؟ ألن تتعبون أبدا من العمل ومن الفاقة والبؤس اللذان وضعتم أنفسكم فيهما ومن الكفاح من أجل الحفاظ على طموح وفخامة، جشع وتعنّت بعض الكهنة المتعجرفين المتكبرين الذين لا يعطونكم مقابل عرقكم وذخائركم منذ قرون سوى تعليمات غشيمة ونظم غامضة وألغاز لا يمكن سبر أغوارها واحتفالات وأعياد لا طائل منها وصلوات لم تجنوا ثمارها إلى حدّ اليوم؟ هل جعلت الأضاحي المتعدّدة، التضرّع بالأمنيات والابتهالات، ومناسك وقرابين هؤلاء الوسطاء المزعومين بينكم وبين السماء، من قدركم أكثر لينا ومن أيامكم أكثر هناء؟ هل أصلحوا مناطقكم الجرداء وأزالوا عنها الأوبئة والمجاعات؟ هل نشروا السلم بينكم أو هل أنهم لم يضاعفوا من حروبكم ويجعلوها أكثر بشاعة؟ هل أرشدتكم تحريضاتهم المتكرّرة وأخلاقهم التي يتبجّحون بها إلى واجباتكم؟ وهل جعلتكم أكثر إنسانية، أكثر عدلا وتسامحا، وأكثر

حكمة؟ هل أصبحوا أطفالكم الذين تربّوا تحت رعايتهم أكثر برّا وأكثر امتنانا، أكثر تعلّقا بالوطن واستعدادا لخدمته والتضحية من أجله؟ هل أصبح حكّامكم بفضل هؤلاء المُفوّضين المُحترمين من الآلهة والمُرخَّص لهم أن يخاطبوهم أكثر إنصافا ونشاطا وهمّة، وهل أصبحوا فاضلين؟ هل أصدحوا بالحقيقة على أسماعهم الصمّاء؟ وهل كسروا أغلال القهر والظلم والصلف والطغيان؟

وحاسرتاه! لقد كانوا أبعد ما يكون عن ذلك! لم يفعل هؤلاء الناس الذين تحترمونهم سوى أن أربكوا عقولكم وأظلّوكم وجعلوكم عميانا. لم يفعلوا سوى أن أثقلوا نير الاستبداد الشنيع على أعناقكم.

الفصل السادس

تحالف النُّذُرِ والطغيان

لقد جعل الجهل والرذائل وسوء الأعمال الملوك في حاجة دائمة إلى عون الكهنوت ونصرته؛ فقد كانوا يحتاجونه لكي يأمنوا في طغيانهم وجورهم، ولكي يقمعوا دون خوف رعاياهم الذين يقاسون دون انقطاع بسبب نزواتهم وحماقاتهم وعتههم. محرومين من أنوار العلم والمعرفة، من الكفاءة والقريحة، مخدّرين في خمولهم، يغفون ويصحون على علوّ شأنهم ومقامهم، مغرورين بتملّق المتملّقين، وغالبا ما يكونوا مدفوعين بشهواتهم التي لم يتعلّموا أبدا كيف يقاومونها، لم يعي هؤلاء الحكّام في الغالب بواجباتهم، بالروابط الطبيعية التي تجمعهم برعاياهم، وبالبواعث التي يمكن أن تساهم في بناء تصوّرات سياسية ممكنة، بالمصالح والواجبات التي تربطهم بشعوبهم وبالقوانين التي تتوافق أكثر مع احتياجاتهم والتزاماتهم.

وخلاصة القول، إنهم دائما ما كانوا يجهلون في ماذا تتمثّل القوّة الحقيقية للدولة، وفي ماذا تتمثّل العظمة الحقيقية للملك أو الأمير؛ كان عليهم أن يحكِموا بالظنّ تعضده القوّة وكان الهوى شريعتهم. وكان

الحكم اللاّمحدود هو غاية أمانيّهم، فأصبحوا الأعداء اللدودين لشعوبهم وتحتّم عليهم البحث عن وسائل خارقة للطبيعة من أجل قمعهم، من أجل احداث الفرقة والشقاق بينهم، ومن أجل صدّهم عن مناهضة الشر الذي أُلحِق بهم. وفي النهاية من أجل إطفاء حب الخير والحريّة في القلوب. لقد كان الدين هو الوحيد الذي أستطاع أن يصنع هذه المعجزات؛ فالدين وحده من له أن يتغلّب على العقل ويُسكِته، أن يكتم الطبيعة وأن يجعل الشعوب متواطئين في الشرور التي تثقل كاهلهم. أصبح الحكّام بعون الدين في أغلبهم طغاة وظنّوا أنه يُأمّنهم ويحفظهم من سيئات الظلم والطغيان ومن عواقبه.

تثبت لنا التجربة أن الحكّام السيئّين كانوا جميعهم في الحقيقة آفات الأمم، أعداء لراحتهم، مفسدين لسعادتهم، والمصادر الحقيقية لكلّ مصائبهم ومآسيهم. كان أهم ما تحتاجه الدول وما يسعدها هو أن يكون لديها مواطنين متميّزين يحظون باحترام الطغاة أنفسهم يستطيعون أن يصدحوا بالحقيقة وهم آمنين، أن يكبحوا فسوقهم بدعوتهم لخشية العليّ أن يطالبوا بما يصلح للجنس البشري. يبدوا أن العمل الشريف يعود شرعا لرجال يقولون إنهم ممثّلي ومبعوثي الله العادل والمرعب. إلى أيّ درجة كانوا سيكونون أعزّاء على بني بلدهم، الذين يحسنون أصلا الظنّ بهم، لو أنهم قرّروا أن يكونوا صدّا منيعا ضدّ الظلم والطغيان! يا له من

تقدير كانوا سينالونه لو أنهم، عوض أضغاث الأحلام العديمة الفائدة، دعوا بقوّة للأنصاف، لحب الإنسانية وللسلام ولو أنهم دعّموا وحفظوا حقوق الجنس البشري بسلطتهم الإلهية! من كان سيؤاخذهم على نفوذهم وصلاحيّاتهم وعلى ثرواتهم، لو أنهم كانوا يعملون لصالح خير المجتمعات أو لصدّ هؤلاء المستبدّين المتعجرفين الذين لا توجد قوّة على الأرض يمكن أن توقف تطلّعاتهم ومآربهم؟ كان سيكون العاقل من الناس محمولا على مسامحتهم على أخطائهم، على تخاريفهم وعلى افتراءاتهم نفسها لو أنهم على الأقل كانوا يستعملونها لكي يُخَوّفوا هؤلاء الحكّام الذين تُبقيهم قلّة خبرتهم وضلالاتهم، إن جاز القول، في حالة طفولة دائمة.

وحسرتاه! لم يكن كلّ هذا ليخطر ببال الكهنوت؛ فقد كان مزهوّ بحصوله لوحده على الثروة، على التقدير والاستقلالية ولم يستخدم أسلحته الربانية إلاّ لكي يُشبع شهواته ويحقّق رغباته. وحين وجد أنه من الأسهل والأقصر طريقا تملّق الطّغاة ومدح عيوبهم لكي ينال ثقتهم والحظوة لديهم ولكي يغنم من فضلهم، فقد أمدّهم بالعون في سعيهم لتحطيم الشعوب التي جعلها عبيدا لأسيادهم الحقيرين، وقد تمّت التضحية بمصالح العوام الذليلة بطريقة مُشينة من أجل سياستهم الغبيّة ومن أجل مطامحهم وطمعهم. ومثلما رأينا، وحتى وهو مُبعَد عن

العرش، لم ييأس الكهنوت أبدا من اعتلاءه في يوم من الأيام. إنه لم يفعل سوى أن غيّر قلاعه؛ لقد جعلت رذائل الملوك الفاسدين ومطامحهم وحماقاتهم من الكهنة مفيدين، كما أتاح خوف الطغاة وتطيّرهم لكهنة الآلهة الوسائل التي مكّنتهم من اضطهاد هؤلاء الطغاة أنفسهم. وبضعفهم وسذاجتهم بسط الوزراء الإلهيّين عليهم سلطانهم وأحكموا بذلك سيطرتهم على رعاياهم. كانوا يمدحون الملوك ويثنون على عظمتهم ويوطّدون أركان حكمهم ويباركون مطامحهم المتغطرسة. وهكذا كانوا قد شجّعوا شططهم وغلوّهم، وعوض أن يثبطوهم ويرهبونهم بالوعيد الديني، كانوا قد أعدّوا لهم باسم الدين الغفران السهل عن جرائمهم التي من شأنها أن تُثير رعب وندم المستبدّ العتيّ.

وهكذا زرع الكهنوت الورود في طريق الطغيان من أجل مصلحته الذاتية وهوّن من مخاوف الطغاة وقلقهم وسكّن تأنيب الضمير لديهم وأمّنهم من غضب الشعوب التي ألقوا إلى مسامعهم أن السماء تأمرهم أن يُعانوا القمع دون تذمّر. وعلى هذا النحو سُلِّمت الرعايا، التي لم تُنشئهم الآلهة إلاّ لكي تكبح نزواتهم، إلى حُكّامهم المستبدّين الذين استعبدوهم. لقد تكلّمت الآلهة وأحلّت الظلم وأذنت بالقسر وقضت على الأمم أن تأنّ في صمت. وخلاصة القول، تحوّل الملوك إلى آلهة فوق الأرض وكانت مآربهم الجائرة والمتجبّرة تحظى بالإجلال على نفس القدر مع تلك التي يُزعَم أنها تصدر عن" أولمب " Olympe.

لقد أصبح الحكّام المستبدّين حماة للنُّذُر وداعمين لها اعترافا منهم، بدون أدنى شكّ، بالخدمات الجليلة التي تقدّمها لهم؛ فدائما ما كان هناك اتّفاقا بينهم وبين النظام الكهنوتي، أقاموا التحالفات ضدّ الشعوب ولا شيء كان يمكن أن يقف في وجه مساعيهم المُتّحدة. كانت آذان الملوك الفاسدين، الطغاة المحتليّن، وكلّ هؤلاء المحاربين الهمجيين الذين جعلوا الأرض تأنّ تحت وطأة جرائمهم الجليّة، وكلّ هؤلاء الحكّام الشهوانيّين المتراخين الفاسدين الذين كانت شرورهم وحماقاتهم العلل الحقيقية لكلّ لمآسي الأمم ومصائبهم. ومُجمل القول، كلّ هؤلاء الملوك والأمراء الضعفاء والفاسدين الذين كانوا المصادر الظاهرة للكرب والجدب، للأوبئة والمجاعات والحروب التي أضرّت بالدّول، صاغية إلى المتملّقين الذين يُكفّرون لهم عن كلّ جرائمهم، يُهدّؤون من روعهم، يصالحونهم مع السماء ويقنعون الشعوب بأن الشرور والويلات التي تتكبّدها هي عقاب من الآلهة جزاء تهوّر قادتهم وانعدام الكفاءة لديهم. كان إذا يُلقى على عاتق الآلهة كلّ ما كان واضحا أنه نتيجة الإدارة الجائرة والعنيفة. لم يكن فشل الأعمال المتهوّرة، ولا الفلاحة المقموعة التي أدّت إلى القحط، ولا الأرياف المهجورة بسبب البؤس والابتزاز الذي لا حصر له، ولا الانتكاسات التي سبّبتها قلّة الخبرة وانعدام البراعة والكفاءة لم تكن تُعزى إلى أسبابها الحقيقية ولا إلى من كانوا السبب في حصولها.

كانت تُشجب الآلهة ويقع ردّ كل هذه المصائب إليها باعتبارها عقاب من السماء، ولم تتعرّف بالتالي الأمم التي أضلّتها معقداتها الدينية على العلّة الواضحة لكوارثهم؛ لم تلحظ أبدا أن قادتها الأغبياء ومجالسهم المتهوّرة ورهط من الناس لا رؤية لهم يقرّرون مصائرهم هم السبب الحقيقي وراء كلّ تعاستهم وشقائهم. مقتنعة حد الجنون بأن مآسيها متأتية من غضب العليّ، لم تلحظ أبدا أن هذه المصائب مُتأتيّة من العرش الذي يعتليه غالبا أُناس غير جديرين بالحكم. لقد التجأت هذه الأمم بكلّ بساطة، مثلما رأينا، للتكفير عن جرائم وحماقات حكّامها الذين وحدهم كانوا المُذنبين وكانت رعاياهم هم ضحاياهم المعتادة.

من النادر ان تغضب السماء مطوّلا على الشعوب التي يكون ساداتها عادلين، متنوّرين ومتعلّمين ومتيقّظين؛ فيتوصّل مثل هؤلاء الأمراء سريعا إلى درئ أو إيقاف اجحاف القدر أو تخفيف مصائب الزمن. وكلما كانت الشعوب بائسة والحكّام فاسقين، كلما أصبحت الأضاحي والقرابين التي تُقام للآلهة وأيام التكفير عن الذنب والغفران والصلوات ضرورية، ومن مصلحة الكهنة إذا أن يدوم ظلم القادة والحكّام وأن يتواصل بؤس العبيد. فالكاهن لا يكون أكثر غبطة إلاّ في قلب الجوائح والملمّات. وكذلك غالبا ما يجد الدين وزراءه المبرّرات لجرائم حكم الطغيان المقيتة؛ لقد فضّلوا أن يدينوا الآلهة ويصوّروها قائمة

للناس على أن يسيئوا للطغاة. وكأنه قدر مشترك أن تكون الأمم عادة خاضعة لملوك غير جديرين بأن يحكموا وغير قادرين تماما على اسعاد الشعوب، لم تكن للمصائب نهاية ولم تتوقّف الآلام، وهكذا كان الاستبداد والنُّذُر يغذّيان بعضهما البعض، ودائما ما كانت الأمم تعتقد وقد ابتليت بحكوماتها بأن السماء على الدوام مستاءة حانقة فيهدّئونها، وكانت مجبرة على التكفير عن ذنبها طلبا للغفران، لقد كانت الأمم تؤمن بالنُّذُر وتعتقد في مفعولها في كفّ الأذى الذي جنته من الاستبداد والظلم اللذان أذن به تنذّرهم. لم تكن متصالحة مع الآلهة إلاّ في فترات قصيرة كان الحكّام المتنوّرين والعقلاء يسمحون فيها لرعاياهم أن يتنفّسوا الصعداء وأن يكونوا سعداء[1].

لا تعلّم التربية، التي يتلقونها في العادة أولئك الذين سيعتلون العرش، إلاّ قليلا من الواجبات والفرائض الحقيقية التي سيكون عليهم اتمامها في يوم ما مقابل أوهام الدين الزائفة. وهكذا يكون هؤلاء متديّنين ولكنهم ممتلئين بالوصم والأحكام المسبقة، خالين من المبادئ وبعيدين عن الأخلاق الحميدة، ليس لهم من الفضيلة شيء. لم يكن الترهيب والتهديد اللذان أرعبا

[1] تلتجأ الأمم للنُّذُر وللكهنة كلما واجهتها ملمّات كبيرة، تلتجأ الشعوب للصلوات العقيمة التي لم تجعلها تفيق من غفلتها. "ليس تماما، يقول كاتون، ....عندما تقبل على..... تتضرّع إلى الآلهة؛ إنها غاضبة، إنها حاقدة، إنها صمّاء."

طفولتهم غالبا سوى حواجز واهية ضدّ بطش الأهواء التي تنقضّ عليهم في منتصف العمر. وبعبارة أخرى، تتسلّط عليهم الأهواء والنزوات في زمن تُمكّنهم فيه السلطة وتملّق الحاشية من تحقيقها.

ينغمسون إذا في الشرور، وإذا ما أنّبهم يوما ضميرهم فيكون ذلك بسبب ذنوب خفيفة يعظّمها لهم الدين وليس بسبب المظالم البشعة ولا بسبب التقصير والإهمال الآثم الذي تعاني منه الأمم باستمرار.

في واقع الأمر، ماهي الجرائم التي تبعث التطيّر والندم في نفوس الحكّام؟؛ إنها السيئات التي تنجم عن الطبع الحساس وعن المزاجية وضعف الشخصية. إنها الملذّات، المدانة بلا ريب، عندما تصرف انتباه الحاكم عن شعبه، ولكنها أقل إجراما بكثير من الحروب التي لا لزوم لها، من السلب والنهب اليومي، من الابتزاز المتكرّر والمتصاعد، من الانتهاكات المستمرّة لحرية الرعايا وأملاكها.

لم يتم أبدا تعليمهم أن يستحوا أو يتذمّروا من غطرستهم الشنيعة، من المقرّبين إليهم الغير جديرين، ولا من هاته الجرائم الجليّة التي بسببها أُهدرت دماء وثروات شعوبهم بشكل مخزي ومهين، ولا من الدين وكهنته، ومن المكافئات الغير منصفة، ولا من الحصانة التي يتمتّع بها أقربائهم ولا الإجحاف الذي يوزّعون به الهبات والعطايا التي يحرمون منها الجدارة والفضيلة لكي يعطوها غالبا للتقاعس والفشل.

لم تُعتبر أبدا اعتداءاتهم المتواصلة على جيرانهم جرائم، ولا هاته السياسة المروّعة التي تميل إلى غزو كل مكان وسحق كلّ شيء، ولا هذا السلب العتيّ والمحتال الذي يزيّنوه باسم "الفتوحات"، ولا هاته المعاهدات الظالمة ولا ذلك الحنث باليمين الذي يلحق العار بهم.

تلك هي الجرائم الحقيقية التي يدينها العقل والوخيمة عواقبها على الأمم جمعاء، إلاّ أننا نرى الملوك والأمراء الأشدّ ورعا يرتكبونها دونما تردّد بينما يثير الاخلال بأحد الشعائر أو اهمال أحد المراسم والأعياد التافهة كل ندمهم. يغفر الكهنوت ويسامح بسهولة أخطاء الأمراء التي لها بالغ الأثر على المجتمع ويعزوها إلى الله، ولكنه لا يكون أبدا متساهلا عندما يتعلّق الأمر بحقوقه المزعومة.

ويعتقد ملك مُتطيّر يؤمن بالنُّذُر أنه ليس له ما يُلام عليه عندما لا يغفل عن الشعائر الفرائض التي تؤذَن بها النُّذُر؛ فهو على يقين أن هذه الطقوس تمحوا جرائمه المهلكة والانتهاكات الفضّة واللئيمة التي يُلحقها بالعقل وبالأخلاق.

ولكن الحكّام المتنوّرين المنصفين والفاضلين الذين يعملون جاهدين لإسعاد شعوبهم لا يحتاجون للدين ولا إلى الكهنوت لكي يقمعوا رعاياهم ولا إلى كفارتهم وغفرانهم لكي يسكّنوا تأنيب الضمير داخلهم؛ إنهم يعرفون حقّ المعرفة أن أوّل واجباتهم هو أن يكونوا عادلين، وأن مجدهم الكبير يكون في اسعاد الناس وأنهم ضامنين لحب

الشعوب ومولاتهم. لن يخشوا أبدا غضب الآلهة لأن الحب الصادق للخير العام هو الذي يوجّه أعمالهم ومساعيهم. لن يكون الناس مضطرّين لخداع هؤلاء الملوك أو خيانتهم لأنهم حققوا لهم السعادة في دنياهم وواقعهم.

لا تكون الآلهة والكهنوت، ولا الاحتيال على الناس بالدين ضروريّان أو مفيدان إلاّ لملوك وأمراء ليس لهم لا الإرادة ولا الاستعداد أن يفعلوا الخير، فهم يحتاجون الإغواء والحيل والأبّهة لكي يقدروا على احتواء الرعايا المقموعة والغاضبة والمستاءة فيمرجحوهم بالخرافات لكي تغفوا على حسرتها وأحزانها.

لقد التجا الحكّام الضعفاء والجهلة والفاسدين والمكروهين من رعاياهم لسلطة الدين والإله لكي يجعلوا من أنفسهم مُطاعين ومحترمين؛ كانوا يمدّون العون للكهنوت كي يُبهر الشعوب ويذهلهم، وكان عليهم أن يظهروا الاحترام الفعلي للدين أو أن يتظاهروا باحترامه. وإذا كان لهم مع مساوئهم الورع في الدين فسوف يُخيّلُ إليهم أن عليهم أن يسترضوا الآلهة التي أهانوها بالندم والتكفير عن الذنب وسيتباهون بإفسادها أو تطويعها لمصالحهم الخسيسة بالهدايا والشعائر والأعياد وبالحماسة الهدّامة التي لا تتكلّف كثيرا مقارنة بالأعمال الحسنة والسلوك السويّ وبالرعاية والعدل والانصاف وبالفضائل الفعلية.

وإذا ما فحصنا الوقائع بدون حكم مسبق سوف تقنعنا كلّها بأن الدين لم يكن ليُخترع إلاّ لكي يأخذ مكان الأنوار والمهارات والمواهب والفضائل ولكي يحلّ محلّ اهتمامات ومشاغل أولئك الذين يحكمون الشعوب. عاجزين عادة على القيام بوظائفهم السامية، قليلي الخبرة والدراية بالدوافع الحقيقية التي يتصرّف بمقتضاها الناس، مترعرعين في الجهل المدقع بواجباتهم الحقيقية، أفسدت قلوبهم كثرة النعم وابتعادهم عن الناس البؤساء، جعلتهم الحصانة والافلات من العقاب جسورين لا يردعهم في شهواتهم رادع، زادهم تملّق الحاشية في غيّهم وأفسدهم الترف والبذخ وزادهم رعونة. على الدوام محمولين على فعل الظلم والجور كي يرضوا نزواتهم ويُشبِعوا جشع حاشيتهم. كان عليهم أن يستنجدوا بالأوهام والخرافات كي يُبهروا ويخوّفوا الشعوب التي لا يقدرون ولا يريدون أن يجعلوهم سعداء. ولأنّ الكهنوت كان المشرف على رغبات الناس وشهواتهم، كان على مثل هؤلاء الأمراء أن يشتروا ذمّته بالتشريفات وبالثروات والنعم وأن يقيموا معه التحالفات والمعاهدات.

كان عليهم أن يتحصّنوا بدعمهم وسندهم كي يُعدموا العقل ويدمّروا سعادة رعاياهم؛ وهكذا نفهم لماذا كان يُنظَرُ للدين في كلّ زمن على أنه من أقوى المدد للسياسة وأنه من أهمّ وأوكد اهتماماتها. يقول

أرسطو، وهو محقّ، أنّ على الطاغية أن يبدوا متعلّقا بعقيدة آلهته ولا ينتهكها، وأنه عليه أن يبعد عليه شُبهات الظلم بحماسته للدين وورعه.

لقد كانت هذه القاعدة التي تبنّاها ماكيافيل Machiavel مُتّبعة دائما من طرف الأمراء الذين أرادوا أن يقهروا ويستعبدوا الشعوب وهم آمنين، فالأمراء والملوك الأكثر جورا كانوا مُتديّنين ورعين[1]، لقد انتهكوا، بالتحالف والتآمر مع الكهنوت، حرية رعاياهم وشيّدوا حكمهم الظالم والغاشم على أنقاض الخير العام وصالح البشرية؛ كان الحكم المطلق والسلطان الغاشم هو المكافئة الكبرى على تواطؤهم الجبان مع الكهنة، على نفاقهم المشين أو على ورعهم المتزلّف. نعم، لأعيدها وأكرّرها إنه الدين وحده الذين يُدينون له البشر الفانين بالاستبداد الشنيع الذي يسود كلّ المعمورة والذي يشتهيه كلّ حكّام العالم.

---

[1] لم يكن أحد أكثر ورعا وصديق للكهنة من لويس الحادي عشر، شارل الخامس، فيليب الثاني، كاترين دي ميديشي Catherine de Médicis، الملكة ماري، لويس الرابع عشر وجاك الثاني. إنهم بالتأكيد هؤلاء الأمراء الذين أضرّوا أكثر من غيرهم برعاياهم وبجيرانهم. عموما، أعتقد أن الكارثة العظمى التي على الأمم أن تخشاها عل مستبدّ جاهل ومتديّن ورع.

إن المحمّدي (المسلم) عبد لأنه ينظر إلى حكّامه وكأنهم آلهة، وكذلك الألماني، الهندي، الفرنسي، السيامي، الأفريقي والروسي كلّهم عبيد لأنهم يعتقدون أن قادتهم يحكمونهم بالحق الإلهي، وكان البريطاني سيكون أيضا عبد لو أنه لم يخلع عنه هذا الوصم المُخجل.

كلّ العبيد والرقّ باقون على حالهم لا يتزحزحون؛ فالناس قد تعوّدت أن تهذي وأن تخبط خبط عشواء في شأن الآلهة، وأن ترتجف تحت سياطها وأن تطيعها طاعة عمياء، وقد تعودت على ألاّ تتدبّر وتتفكّر في أي شيء. بعدما اقتنعوا بأن الآلهة كائنات غيورة وقاسية وشريرة يحلّ لها الظلم والجبروت، أقنعوا أنفسهم بأن ملوكهم يتمتّعون بنفس الصلاحيات والامتيازات.

لقد كان المشرّعين الأوّلين أو سادة الأمم، مثلما رأينا، كهنة ومرسلين ومفوّضين عن الآلهة، وعندما يُنتزع الحكم الدنيوي (السلطة الزمنية) من أيادي هؤلاء الكهنة – الملوك أو من خلفائهم، كان الحكّام الدنيويّين يجدون الشعوب معتادة منذ زمن طويل على الحكم المطلق وعلى الطاعة العمياء والغشيمة، فلم يكن لهم إذا إلاّ أن واصلوا الحكم على نفس مبادئ الحكم الكهنوتي والتمتّع مثله بالحكم المطلق اللاّمحدود، أو أنهم كانوا سريعا ما أدركوا أنه، لكي يقمعوا الشعوب دون عقاب أو رادع، عليهم استعمال سلاح الفتوى القويّ الذي دائما ما كان يحتكرونه الكهنة.

لقد أنشأ هؤلاء الكهنة الذين بسذاجتها سلّمت لهم الأمم أمرها سلطة الملوك على نفس أسس سلطتها؛ أحاطوهم ببريق العظمة الربانية وأظهروهم على أنهم الممثّلين للألوهية في الأرض، ومن ثمة جعلوهم آلهة ووضعوا الشعوب تحت إمرتهم وسيطرتهم بعدما أقنعوها بأن الأشخاص الذين يؤّيدون حكمهم ويؤذنون بطاعتهم هم كائنات من عالم آخر، اصطفتهم السماء التي أنارتهم بنورها، وأنهم لا يستمدّون حكمهم إلاّ من الله وحده الذي هو وحده من يحاسبهم على أفعالهم، وأن أوامرهم مثل أمره يجب أن تُطاع.

وهكذا وبمعونة النُّذُر أصبح كلّ ملكا إلاها وأمّته المعدومة لا تفعل شيئا؛ هذا كان الحكم قسمته وتلك كان نصيبها أن تنصاع وتطيع دون اعتراض على أوامره التي لا تُخطأ ولا تُردّ. فالناس قد تصوّرت بخيالها أن الآلهة على هيئة ملوك جبابرة وغالبا ما يكونوا معتوهين، أما الدين فقد هيّأ ملوك الأرض على شاكلة آلهته؛ وكلّ ملك متألّه كان مثل الآلهة مستبدّ، فهو يشبه الكائنات التي عليه أن يمثّلها في الأرض.

لقد خلق الحكم والحصانة والإفلات من العقاب في الملوك الفجور وكانت أهواؤهم مطاعة وتخيّلاتهم مسموعة على الدوام، وسُحق العقل تحت حكم الدين والسياسة ولم يعد يُسمَع له صوت، الحرية وقع حظرها حلّ الرأي والظنّ محلّ الحقيقة والمنطق وأثّر الضلال الديني في السياسة وفي الأمم المخدوعة بخرافاتها، تأنّ دون توقّف من الآلام التي خُيِّل إليها أنها مجبرة على تحمّلها في صمت ودون امتعاض. لم تكف هذه الأمم

على التضرّع والابتهال للسماء وعلى طلب العفو من الآلهة على الجرائم التي ارتكبها مفوّضيها الفاسقين الذين، وهم فرحين بحكمهم الذي أقرّت الفتاوي أنه حكم مقدّس، لم يكونوا في حاجة إلى اكتساب أيّ من المهارات والفضائل اللآزمة للحكم، وتحوّلت الشعوب إلى ألعوبة لنزواتهم ولنزوات المقرّبين إليهم الذين يحكمون تحت رايتهم.

تلك هي، وستبقى دائما، تداعيات بطش الائتلاف الذي نراه قائما بين الطغيان وبين النُّذُر (التطيّر)، لقد تحالفت هاتين الجائحتين لجعل الأمم عمياء ضالّة وبائسة؛ إنهما بالترهيب يحكمان وبالجهل والفتوى، إنهما الأعداء اللدودين للعقل الإنساني وللحقيقة. تدعم كلّ منهما الأخرى فتُضلّ النُّذُر النفوس وتسكرها والطغيان يستعبدها وينهكها، وتسوّغ الأولى لإسراف وشطط الأخرى. إحداهما تجعل الشعوب تكفّر عن الجرائم التي سمحت بها للأخرى، واحدة تجعل العالم ممرّ عبور مقدّر للبشر الفانين أن يأتوا فيه من أجل أن تتمكّن الأخرى من ممارسة التخريب دون رادع. واختصار القول، إننا نرى في كلّ مكان الكاهن يلقي الرعب في الرعيّة ويهدّها لكي ينهبها الطاغية دون حسيب أو رقيب[1].

---

[1] كان الامبراطور جوستين Justin أوّل من أسّس حكم التفتيش ضدّ المراطقة (الزنادقة) من أجل الاستيلاء على ممتلكاتهم. أنظروا Prociips. his. Areana. نصب ملك أرغون فرديناند الخامس سنة 1488 محكمة التفتيش في اسبانيا، في ==

لو لم تكن للحكّام دائما إرادة لأذيّة رعاياها ولسلبهم واسترقاقهم، لكانوا غير محتاجين أبدا للاتحاد مع دجّالين ولا لأن يتقاسمون معهم السلطة العليا وغنائم الأمم. ولكن عندما يغفل الأمير عن مصالحه الحقيقية وعندما يغفل، وهو غارق في الوهن والفتور، عن واجباته، وعندما يكون مخمور برائحة البخور أخذته العادة على أن لا يرفَض له طلب، عندما يكون جاهل بما يدينه للناس وبفن حكمهم وعندما يُخيّل إليه أن مصلحته تقتضي أن يقمع كائنات عاشقة للحرية، فهو محمول بالضرورة على أن يُغرقهم في الجهل وأن لا يحرّرهم من الوصم والظنون، وأن يوظّف الأشباح التي رسخت بالخطأ في مُخيّلتهم لكي يربك أذهانهم ويرعبهم ولجعلهم متواطئين معه في الشر الذي يريد أن يلحقه بهم، ولكي يصدّهم على مقارعة الحكم الذي يثقل كاهلهم.

لأكرّر القول، إن الدين لا يبدوا أنه جُعِل إلاّ لإعفاء الملوك من اكتساب المعارف الضرورية للحكم، فالحفظ الرباني المزعوم يكفيهم لجعلهم محترمين من طرف البؤساء الذين يسحقونهم. إن خداع البشر الفانين هو، بكلّ تأكيد، أسهل من اكتساب اليقظة والحيطة والمهارات

صقلية وفي سردينيا لكي يجد ذريعة في أن يستولي على اليهود والمورسكيّين دون أن يظهر بمظهر الطاغية.

اللاّزمة لأن تجعل الحكم صالحا والرعايا سعداء. والاستبداد هو أسهل طريقة في الحكم لأنّ الحكم العادل والمنصف يحتاج إلى الرعاية وإلى الأنوار والفضائل، في حين أن الحكم بالأهواء لا يحتاج إلاّ إلى ملك قويّ ورعايا جاهلين.

فمن اليسير إذا أن نرى كيف كانت النُّذُر، الملائمة لمآرب وطموح الأمراء ولعجزهم، مبجّلة ومصونة إلى درجة أنها دفعت الكثير منهم إلى اضطهاد وتعذيب قسم كبير من رعاياهم المخلصين، كما جعلت منهم أدوات حقيرة لانتقام كهنتهم. فحكّام سُذّج وطموحين وجشعين كانوا بدون أدنى شكّ مهتمين بمعاضدة الدين الذي أعطاهم الحق في ممارسة الطغيان والاستبداد والذي أمنّهم من عواقب سوء حكمهم وفساده.

ففكرهم الضيّق ونفوسهم الخسيسة والجبانة وقلوبهم القاسية سكرتهم الدائمة يمنعونهم من إدراك أن الاستبداد عُقاب يمزّق نفسه وينتهي دائما بأن يهلك جرّاء الجراح التي ألحقها بنفسه. لم تسمح قلّة حصافتهم لهم بأن يتطلّعوا لعواقب أهوائهم ورغباتهم العابرة.

لم يلحظوا أبدا أن هذا السلطان الواسع الذي وضعته النُّذُر بين أيديهم لا يمنحهم إلاّ لفترة وجيزة من الزمن تلك الأفضلية المشؤومة في قيادة معتقلين مستائين وأشقياء الذين تستطيع النُّذُر نفسها أن تكسر أغلالهم وتجعلهم في أيّ وقت يثورون ضدّهم؛ لم يستشعروا أبدا أن

الشعب المتناذر والمتطيّر الغاضب من اسرافهم في الحاق الأذى بهم، يتحوّل غالبا إلى حيوان شرس ينتظر دعوة كاهن متعصّب لكي ينقضّ على قائده الحازم الذي يبقيه في أغلاله أو أثار غضبه وأخيرا، لم يدركوا الساسة الأغبياء أبدا أنه أينما كان للكاهن سلطان، فإن الحاكم يكون أوّل عبيده وتابعيه ومريديه ومنفّذ لأحكامه.

لم ينظروا قطعا إلى الشعوب كيف أنها لا تكون خاضعة للسلطة المدنية إلاّ بقدر ما تكون هذه السلطة خاضعة للسلطة الروحية (الدينية) وأن خير الدولة ومصالحها الكبرى خاضعة لمبادئ الكهنوت والدين وأصولهما.

لم يدركوا أن المفاسد لا يمكن تترسّخ لأنّها أصبحت مقدّسة، والاستبداد الديني والسياسي يسلب من الأمم العقل والفضائل والعلم والقوّة والأعمال والصناعة، وأن الوهن والفتور يصيبان كلّ شيء ويعمّ الإحباط واليأس والفقر حالما تسود النُّذُر.

في بلد تحكمه النُّذُر يكون الكاهن هو الوحيد النافذ القويّ والمحترم، وفي بلد يخضع للصوصية الاستبداد ليس للطاغية من نفوذ سوى ما يتركه له الكاهن؛ فيمحق اتّحادهم الشعوب المعدمة والمفقّرة، وينتهي انشقاقهم دائما بهلاك الحاكم المستبد. كلّما يحطّ الدين من شأن الانسان كلّما تناسب ذلك وتماشى مع رعايا الطاغية، وكلّ ملك أو

حاكم سيرغب في أن يستبدّ دون رادع أو عقاب عليه أن يستعين في حكمه بالكهنة وعليه أن يهتمّ بهم ويرعاهم[1].

إن الاستبداد من عمل النُّذُر لكنه حالما يكفّ عن العمل بتوجيهاتها فإنها تدمّره، ولم يكن يستوجب الأمر سوى التفسّخ الشامل والانحلال للجنس البشري والتبلّد المشين والتخلّي التام عن الفطرة والحسّ السليم والحكمة، لكي يقبل الانسان، الذي بطبعه توّاق للسعادة، أن يُضطهَدَ ويُقمَع، أن يتألّم عندما ينتزعوا منه ثمار عمله وجهده، وأن يسمح لأُناس مثله أن يسلبوه عرقه ودمه وممتلكاته وحرّيته وأن يعتدوا على شخصه دون أن يجني أيّ نفع مقابل ذلك.

---

(1) نحن نعرف أنّه كان كبار رجال الدين داخل جزيرتنا دائما ما يؤيّدون مزاعم وليّ العهد، ودائما كانت الكنيسة تُبشّر بعقيدة الحق الإلهي للملوك وواجب طاعتهم طاعة العمياء والإذعان لهم. لقد كانت جامعتي أكسفورد وكمبريدج لدينا دائما في صفّ آل ستيوارت. لم يكن جاك الثاني أبدا ليُعزَلَ لو أنّه لم يهن الأساقفة، لكن رجال الدين (الإكليروس) لا يعترفون أبدا بالحق الإلهي للملوك عندما يُمتحَنون به، أي عندما يمارسه الملوك عليهم، وعندئذ يصرخون عاليا أن هؤلاء الملوك قد نالوا ما يستحقّون.

لأنّه لا يجود قانونا أكثر عدلا

فكيف يجوز قتل الفنّانين لكي يهلكوا بفنّهم ذاته

(كُتِب البيتين باللغة اللاتينية)

لقد تكفّل الدين بهذا العمل الخارق وأن يحقّق المعجزة؛ فالخرافات المروّعة التي نسبها الدين إلى آلهته القاسية المرقبة كانت قد أقنعت الإنسان أنه ليس له أن يسعد في هذا العالم وأن العناية الإلهية قد قضت بأن يعاني ويشقى، لقد حمله الكهنوت بترهيبه ووعيده على الرهبة من الفرح وعلى ألا يسعى في إسعاد نفسه وألاّ يُقارع الشرور التي جعلوه يمتحنها.

والآمال المبهمة التي شحنوا بها مُخيّلته جعلته مصائب حاضره وبؤسه؛ إنهم يقدّمون له في الحياة الأخرى الثواب الذي سيعوّضه عن كلّ أوجاعه وابتلاءاته. لقد تربّى الانسان على رفع النير وجعلت العادة من هذا النير ضرورة والزمته به، وأجبره الطغيان والاستبداد على أن يحمله طيلة حياته، والجهل أضلّه وأعماه فلم يعد يعي بحقوقه وبكرامته ولا يقدر على يتحرّى في افتراءات وادّعاءات أولئك الذين يدوسونه تحت أقدامهم. وعلى هذا النهج كان الاستبداد قد جعل من الانسان عبدا للآلهة ورجالاتها. إنّه صندوق العجائب (صندوق باندورا) الذي منه خرجت الحروب والأوبئة والآفات والمجاعات والجرائم التي تعصف بحياتنا وتُخرّب معيشتنا.

الفصل السابع

في فساد الأخلاق وفي الوصم الدخيل بالنُّذُر والاستبداد

ولو أن لنا القليل من الجرأة للتعمّق في البحث في أصل الأشياء فلسوف نجد إذا في النُّذُر، أو في الخدع المقدّسة للجنس البشري، علّة كلّ الكوارث الأخلاقية الوحيدة التي تُؤرّقهم ومصدر الحكومات الفاسدة التي تقمعهم، والأهواء التي تهزهم كيانهم والضغائن التي تُفرّقهم، وعلّة هذه الأخلاق الفاسدة التي لا أمل في تقويمها لأنّنا نجهل دائما ما هو علاجها الحقيقي.

إنّه لمن المحال أن نطلب إصلاح أخلاق الناس وإعادتهم إلى رشدهم دون استبدال الحكومات؛ فهذه الحكومات الفاسدة قد تأسّست على مفاهيم وتصوّرات يتغذّى عليها الناس ويغرسها فيهم الدين منذ نعومة أظافرهم، والتي ترسّخها العادة في نفوسهم وتُثبّتها الأسوة والتقليد، والوصم والظنّ يجعلانها مقدّسة ومصانة والعنف يسندها ويستلزمها.

وجب إذا استنهاض الناس وإيقاظهم من غفلتهم ومن تنبيههم من أباطيلهم الدينية التي تؤثّر في العمل السياسي بشكل ملحوظ، إذا ما أردنا أن نسير بهم نحو السعادة؛ سوف تنهيهم الحقيقة التي ستؤخذ في

الانتشار شيئا فشيئا من أن يُولّوا للوصم والظنّ، اللذان راحوا ضحيّتهما، أيّ قيمة أو اعتبار. سَوف تدرك الناس منافعها الحقيقية وصلاح أمرها وسوف يضمحلّ العداء بينها وتتلاشى الحماسة والغلوّ. سوف تعيد الآداب والأخلاق، التي لن تعارض آلهة شريرة وصاياها ومبادئها ولن يرفضها ملوك فاسدين، الرعايا إلى الفضيلة التي بدونها لا تستطيع الامبراطوريات أن تكون سعيدة وقويّة.

ورغم أن، مثلما بينّنا، الإنسان جعل من إلهه على نفس شاكلته ومن نفس طينته، إلاّ أن هذا الكائن الشبه الآدمي لم يكن أبدا مثل الإنسان يمتثل لواجبات وفرائض. فهو لم يكن في حاجة لأحد وبالتالي فإنه لم يكن يدين بشيء لأي كائن، ولم تكن له من قاعدة أو قانون سوى مشيئته، وكانت له القوة والجبروت اللذان يجعلان الناس تدين له بالطاعة والولاء.

فكل الخير الذي يأتينا هو من خيره ونعمه علينا، أمّا المحن والبلايا الجزاف خلنا أنها من صنعه وتقديره فسلّمنا له أمرنا مرتجفين، نسعى في حبّه وكلّنا خشية ورعب من نقمته. ورغم الجور الذي يرتكبه ولم نجرؤ أبدا على أن نردّه إليه، لم يسمح الدين أبدا أن نحكم على قانونه وفقا لمفاهيمنا المألوفة؛ كان للناس من العمى والضلال ما يكفي لكي تُقرّ بما يأتي به ربهم من كلّ الأفعال التي يحملهم العقل على شجبه لدى أمثالهم.

فقدرات هذا الإله، أو هذا الإنسان الخارق، الهائلة تجعله فوق كل الكائنات البشرية، ولكنه مثل الإنسان له مصالح ومآرب ونزوات، وعيوب ورذائل، وجبروته أحلّ له إشباعها، ولم يكن له في تعامله مع مخلوقاته من الحشمة والحياء شيء ولا من الكياسة أو اللياقة. ورغم أنه خلقهم ليعظّموه، فلم يكن خلقها ضروري لسعادته ولم تكن قادرة على أن تعيق مقاصده ولا أن تُوقف أقداره وأحكامه.

ورغم وعوده البيّنة، ليس لهذه المخلوقات الحق في أن تُلزمه بأيّ شيء، ورغم تقواها وورعها لا يمكن لها أن تجزع وتشتكي من البؤس ومن حكمه الجائر الذي يتلذّذ بتسليطه عليها. وهكذا فإنّ إلزام الله القدير الحكيم بقواعد وضوابط، أو التذمّر من نزواته ومن تقلّباته أو دعوته للحكمة والصواب في أحكامه يُعدّ كفر وعصيان وانتهاك للجلالة والعظمة الإلهية.

كان الجبروت والعظمة والقدرة الإلهية يقابلهم الضعف والخضوع والهلاك لبني البشر؛ فكلّ الناس تدين للإله الذي أنشئهم وبالمقابل لا يدين لهم بشيء، هم المُقيّدين العاجزين وهو الحرّ القدير المجيد. ورغم ذلك، أصبح هذا الكائن الماجن القليل الآداب قدوة الملوك وأسوتهم، فهم المفوّضين بأمره أن يحكموا في الأرض وهم ممثّلوه فيها، لهم من بعده الحكم كلّه في أمر الرعايا التي تدين لهم بكلّ شيء ولا يدينون لهم بأيّ شيء.

ومنح إذا الحق الإلهي لفصيلة متميّزة من البشر الفانين القوة لأن تحكم بالظلم الآخرين، وظنّ الناس أنهم مرغمين على التخلّي على رعاية أنفسهم وعلى سعادتهم من أجل راحة قادتهم، والكدح من أجلهم وحدهم، والاقتتال والموت في نزاعاتهم. واختصار القول، لقد خُيِّل إليهم أنهم مُجبَرين على الامتثال والانصياع، دون تحفّظ أو تذمّر، إلى أسيادهم الذين ابتلتهم بهم السماء الغاضبة عليهم، وإلى أهوائهم ونزواتهم الأشدّ إسرافا وإيذاء.

لم يكن فن الحكم، نتيجة لهذه الأفكار المغلوطة، سوى فن الانتفاع واستغلال الضَّلال وخسّة النفس التي وقعت فيها الشعوب بسبب التناذر والتطيّر، ولم تكن السياسة سوى فن احتواء الأمم وقمعها وبترهيبها وحتى بالتضحية بها في سبيل المنفعة الزائفة. ولم تكن الحكومة في كلّ الدول سوى عبارة على اتّحاد بين الحاكم وعدد قليل من الرعيّة المفضّلين والمقرّبين من أجل خداع باقي الرعيّة ونهبهم والتنكيل بهم.

كان، في كلّ مكان، وحدهم الملوك المتسلّحين بالسلطة العامة للدولة، وحدهم الموزّعين للنعم ولهم مطلق الحق في الحصول على كلّ الخيرات التي يشتهيها الناس، وحدهم من باستطاعتهم أن يشتهوا ما يريدون ومن تولد فيهم كل الرغبات الجديدة التي في استطاعتهم أن يُشبعوها، لقد زرعوا هؤلاء الملوك في قلوب رعاياها بذور الشهوات وحب الملذّات، الشغف

بالعظمة، الجشع، حب الثراء والمال، الترف والأبّهة والتفاخر، وكلّ تلك الحماقات التي يولّدها الحسد والغيرة والمقارنة المشؤومة بين حالنا وحال من نعتقد أنّه أسعد وأحسن حظّاً منّا[1].

من هنا انقسمت مصالح المواطنين وتشتّتت مشاغلها وأصبح كلّ واحد منهم للآخرين الخصم والعدوّ. ونيل رضا السلطة العليا كان الفرحة الكبرى وغاية كلّ المساعي لأولئك الذين استطاعوا أن يقربوها. ونكّدت غيرة العاجز والضعف والشقاء على أولئك الذين لم يقدروا على يصِلوا إلى أعتاب العرش، وهكذا خسف الحاكم بأمره، ذلك النبع الوحيد للنعم بالمجتمع وأحدث فيه الشقاق ليتسنّى له حكمه، وقد أصبحت، بسبب طيشه، الأمّة المعدومة عاجزة على أن تحرص على أمنها وسلامتها وعلى أن تُقارع الشر الذي يُرتكب في حقّها، أو أن تجازي من خدمها وأخلص لها، وعدت منسيّة ومهملة ولا يعطونها أبنائها حق قدرها.

[1] ينبع الترف، الذي هو سبب هلاك الكائنات والذي يدوس تحت أقدامه على جميع الفضائل من الحاشية الفاسدة التي يريد كلّ من فرد من أعضائها البروز والظهور بهيئة آل البلاط وساداته. فالبلدان الاستبدادية يكون فيها الترف أكثر من البلدان التي يكون نظام الحكم فيها جمهوري وعدد الرموز من الأثرياء أقلّ. يقول عظيمنا ميلتون Milton، عن حق، بأنّ الأبّهة المسرفة لمملكة ما تُغطّي مصاريفها عادة النفقات الضرورية لأحد الجمهوريات.

لم يكن هناك في كلّ البقاع سوى كائن وحيد ومركزي يشحذ كلّ الأهواء ويراهن عليها لمصلحته الخاصّة ويجازي أولئك الذين بدوا له أكثر نفعا لتوجّهاته ومآربه. لقد أخذت الرغبة مكان العقل لدى الملك حلّت نزواته محلّ القانون وأصبح فضله ميزان التقدير وقربه مدعاة للفخر وللاحترام لدى الناس. لقد أنشأ ما هو عادل وما هو جائر؛ ما عادت السرقة جرما حالما سمح هو بها وأحلّها، والقمع صار شرعي متى ما مُورِس باسمه، والغرض من الجزية أصبح تغطية نفقاته الجنونية واشباع نهم حاشيته التي لا تشبع. لقد أُجتيحَت الممتلكات من كرف سيّد أدّعى أنّه يمتلك كلّ شيء والحرية وقع حظرها لأنّها تعيق فجوره.

سرعان ما اقنعت الرعايا نفسها أن كلّ ما أُحلّه حكّامها هو لائق ومحمود، وانطفئت في كلّ النفوس رؤى الانصاف والعدل. وهتف المواطنين لهلاكهم ظانيّن أنهم بخدمة الحاكم يخدمون الوطن، والمحارب كان يظنّ أنه يخدم بلده عندما يسجنها ويبقيها تحت نير العبودية ويرغم أبناء بلده على أن ينصاعوا لنزوات سيّده[1].

[1] لقد كانوا على حقّ بني بلدنا الغيورين عندما وقفوا بشدّة ضدّ استبقاء الجيوش (وعدم تسريحها). غالبا ما يكون الجنود أعداء وطنهم وأتباع الطغاة الذين يفضّلونهم على غيرهم لأنّهم يساعدونهم على إخضاع الرعايا. فرجالات الحرب في البلدان الاستبدادية التي تكون فيها الحكومات عسكرية هم الناس المرموقين في

كان المبتزّ والمرتشي يزعم أن الحاكم رجل مهم لا غنى عنه، والقاضي الذي لا يرجع في أحكامه إلاّ لمكانته الاعتبارية لا يُبعد، ونوّاب الشعب وممثّليه قد باعوا بالمال الأوطان وتاجروا في أملاكها، والوزير كان يحظى بالتقدير لأنّه يجد الوسائل والمنافذ لمدّ سلطان الملك وبسط نفوذه ونفوذ وزارات الدولة.

وهكذا أفسد الحكّام الذين ألهمهم الدين وأفسدهم الكهنة بدورهم قلوب كلّ رعاياهم الذين فرّقتهم المصالح وأحدثوا فيهم الشقاق قطعوا حبال الودّ التي كانت تربطهم وجعلوهم أعداء بعضهم البعض وأذهبوا فيهم الأخلاق الحميدة.

وبعدما أوقدوا في نفوسهم حب المال والرخاء والملذّات والقوّة، احتكروا كلّ ذلك لأنفسهم ولأولئك الذين سيعرفون كيف يكسبون رضاهم ويشدّون انتباههم بتحقيق طلباتهم، بتملّقهم، مدح عيوبهم وسيئاتهم وتركيع المجتمع لمآربهم الفاسدة. وهكذا، لم تكن العدالة تُطبّق إلاّ على البؤساء، أمّا الكبراء والمُقرّبين والأغنياء والمحظوظين فهم معفيّين من صرامة قوانينها؛ كلّ الناس ستتوق للمناصب، للنفوذ والحظوة، للوظائف والرّتب، وكانت كلّ السبل التي تؤدّي إليها كانت

الدولة، وطبقة النبلاء بالنسبة للأمراء هي منبت للعبيد الذين يكونون على استعداد لفعل أيّ شيء من أجلهم. لا يوجد مواطنين نبلاء حقيقة إلاّ في بلد حرّ.

تُعتبر شرعية وفاضلة، وكلّ كان يسعى جاهدا في التملّص من القوّة الرادعة للسلطة لكي يمارسها على الآخرين من بني جلدته، وكلّ الناس كانت تريد أن تحوز الوسيلة لتكون شرّيرة وظالمة وهي آمنة من أيّة عواقب.

وعلى هذا المنوال، انقسم المواطنين في كلّ بلد إلى طبقتين؛ واحدة الأقل عدادا كانت تقمع وتضطهد والأخرى المتكوّنة من عامّة القوم كانت هي المقموعة. كانت العجرفة والغطرسة والأبّهة والملذّات والبذخ من حظّ الأولى، أمّا العمل والشقاء، التهميش والفقر، والجوع والنحيب فقد كانوا من نصيب الطبقة الثانية. كان للأولى الحق في نهب البؤساء واهانتهم ولم يكن للأخرى الحق حتى في إلشكوى وكانت مُجبرة على تجرّع الأذلال الأكثر قساوة وهمجية[1].

لم تكن الشعوب التي اعتادت الخوف والرهبة من الآلهة ترتعد أمام الملوك فحسب، بل أيضا أمام كل من يمتلك الجاه والنفوذ. لم تكن الحظوة والسموّ سوى الجبلّة على القمع وعلى الإيذاء لقد حلّت السلطة

[1] يقول بترون Pétrone، عن حق؛" مهما يكن القوم الذي تراه في هاته المدينة، تأكّد من أنهم منقسمين إلى قسمين. لأنّه إمّا أن يكونوا مأسورين ومغلولين، أو آسرين [.....]. مستخدمين [......]. مثل الأوبئة التي تُخلّف شيئا سوى جثث متحلّلة أو غربان تمزّقها. (من اللغة اللاتينية)

محلّ العقل والعدالة وسرعان ما أصبح محسودين أولئك المواطنين، المُميّزين الذين خوّلوا لهم ملوكهم توزيع النعم على من يريدون والذين جعلوا من أنفسهم متمكّنين وأصبحت تُخشى شوكتهم.

ومثلما غالبا ما كان الكبار في الدناءة والخسّة والجرم والرذيلة يصلون إلى أوج الرفعة والسموّ، فقد قلّدهم العاميّ الجاهل من بعيد وباع من أجلهم ضميره وأذلّ نفسه أمامهم وتواطئ معهم في أعمال الابتزاز وأصبح أداتهم في كلّ الأعمال الخسيسة والدنيئة.

ونتيجة لذلك نُفي شيئا فشيئا الشرف والعزّة من الأمم واستبعدت الحشمة والاستقامة؛ فكان الملك مُحاطا بحاشية ماجنة قد أفسدت شيئا فشيئا العوام، ولم تكن الفضيلة سوى من نصيب بعض النفوس العزيزة صاحبة النخوة التي تمنعهم كبريائهم من أن تأخذهم الآثام والمعاصي الرائجة، أو من نصيب بعض المواطنين الشرفاء الذين رضوا بقدرهم ولم ينساقوا وراء الأهواء والشهوات، والذين كانوا يزدرون الرفعة والمجد ولم يسعون لنيلهم وبالطبع لم يكن لهم أن ينالوها[1].

[1] إنّه من المحال أخلاقيا وبحكم الطبيعة أن تؤدي الجدارة والكفاءة إلى الغنى في بلد يحكمه الطغيان ويسود فيه الفساد والابتزاز. تصبح الجدارة فيه مُجلبة للإقصاء. تسمى النفس بالفضيلة وتجعلها لا تعرف التزلّف والمداهنة ولا اشتراء الحظوة والرفعة ولا تملّق المعاصي والفشل.

والنتيجة اللاّزمة للفساد الذي أحدثه القادة بفجورهم كانت سياسة داخلية مهملة أو أنها سياسة تعميق لجراح الأمم ومآسيهم. والتشريعات التي تضعها نزوات الحاشية الفاسدة لم تكن تفعل سوى أنّها تعيق حرية المواطنين.

وكان فقه القضاء يتفنّن في زرع الفتنة والشقاق بينهم بالاستعانة بأفكار غامضة ومضلّلة كان ينسبها للعدل والانصاف. كانت المكافئات جزاء للدسائس والمكائد، ولم تكن العقوبات الجزائية تتناسب سوى مع مصالح الأقوياء النافذين.

وخلاصة القول، عوض أن تضمن القوانين السعادة لكلّ الناس، فإنها لم تفعي سوى أن وضعت الأغنياء والنافذين في مأمن من اعتداءات الفقراء والضعفاء الذين عمل الاستبداد والطغيان دائما على أن يحبسهم في الخزي والبؤس والشقاء؛ لقد أُهملت الزراعة والفلاحة وأُجبر المزارع على أن يترك عمله، وهُجِرت المدن والأمصار وكُبِّلت التجارة من طرف الحكومات الجشعة.

وأخيراً، عوض أن يبحث الحكم الاستبدادي في سبل إسعاد الشعوب وإرضائها وصون الآداب، كان على الدوام يخاف ويرتاب من الرعايا؛ لقد ملئ الدول بالمخُبرين والجواسيس والعملاء الذين كانوا يعملون على تبديد مخاوف الحكّام والوزراء وسادة القوم الذين كانوا واعين بالحقد والتأفّف اللذان أثارهما سلوكهم.

لم تكن السياسة الخارجية عبثا؛ فالأمراء والملوك المنكّلين لرعاياهم لم يكونوا أيضا أقلّ غباوة فيما بينهم، لقد كانوا على الدوام غيورين وحاقدين على بعضهم البعض، وعاشت الأمم في حروب مستمرّة بسبب خصومات لم تكن تعنيها في شيء. بقد بدت الأمم وكأنها لم توجد على وجه الأرض إلاّ لتدمير بعضها البعض؛ لقد رأينا أينما حللنا وبدون انقطاع الاقتتال المرعب بين الشعوب التي لا تعرف حتى ما الذي جعلهم أعداء بعضهم البعض. توالت الضربات التي كانت تتلقّاها دون فائدة ترجى منها والجراح التي سبّبتها لهم نزوات قادتهم ورؤساءهم القلقين والمتغطرسين والمضطربين.

لقد مكّنت الأمم بقوّتها وعظمتها لحكّامها أن يجمعوا الثروات الهائلة التي أتاحت لهم أن يفسدوها وأن يستعبدوها؛ فليكفَّ إذا الجنس البشري البحث في أخطاء أسلافهم عن سبب فساد الأخلاق وسبب الكوارث المنتشرة في العالم! الخطأ العظيم هو هذا الإثم المتأصّل الذي أتى بالفساد والذي فتح الباب لآلام الجنس البشري ومصائبه؛ إنّه علم اللاّهوت الذي كان له بمثابة التفاحة المُحرّمة.

لقد تاه لأنّه أراد أن يتذوّق منها ولأنّه صنع الآلهة على شاكلة العباد الأكثر شرّا، ولأنّه صدّق أن الملوك هم ظلّ الألوهية في الأرض ومبعوثيها، ولأنّه سلّم لهؤلاء الملوك سلطان لا حدود له مثل سلطانها،

ولأنّه جعلهم أسيادا مطلقين على رغبات الشعوب وأهوائها. لقد اندثرت الأخلاق وانعدم الهناء على وجه الأرض.

لقد ملأ هؤلاء الملوك المقدّسين المجتمعات بالخونة، بالمتلهفين، بالبخلاء والشحيحين، بالحسودين والمرتابين، وبأعداء الوطن الذين لا العقل ولا الآداب تُثنيهم لأنّ كلّ الظروف تحملهم على أن يكونوا أشرارا أو أن يتخلّوا على ما كانوا يظنّون أنّه مكمن سعادتهم.

تلك هي تبعات الخدعة التي حملت البشر الفانين على الاعتقاد بأن الملوك آلهة متجسّدة في الأرض وأن الآلهة تسكن في أجسام الملوك؛ ليس للأمم أبدا أن الحقّ في أن تعارض مشيئتها أو تقيّد حكمها، فالملوك هم دائما من يقرّرون الآداب الخير لرعاياهم. لن تكون أخلاق الملوك ولا أخلاق الرعية حميدة ورفيعة، ولان تكون الدول سعيدة ومزدهرة إلاّ عندما تكون رغبات القادة ومطامحهم متوافقة مع قوانين الطبيعة والفطرة السليمة، قوانين الرشد والإنصاف وليس قوالب غبية جاهزة قد أنشأها الجهل والدجل في أعالي السماء.

يستمدّ الحكّام سلطانهم من الله أو من الناس؛ فإذا ما استمدّوه من الله فيجب أن يكون حكما مطلقا، أو على الأقل وحدهم الكهنة من لهم الحقّ في تحجيمه، وإذا كان الحكم مطلق فهو لامحالة مفسدهم قلبا وقالبا، فأيّ دوافع للخير ستكون لمخلوقات طليقة لا رادع لها والحال أنّ الرغبة

العمياء غالبا ما تكون المحرّك والدافع لأفعال الناس. وهذه الكائنات الطليقة، التي لم تتذوّق طعم الفضيلة ولم تعتاد أبدا عليها، لا تخشى من الناس ولا تأمل فيها خيرا، تزدري أحكامها وعديمة الإحساس لما يصيبها.

وإذا ما أستمدّ الملوك حكمهم من البشر فلن ينعموا به إلاّ بشرط أن يجعلوا الرعايا سعداء، وإذا ما أخلّوا بواجباتهم وبعهودهم والتزاماتهم، فإنّ الرعايا لا يمكنها أيضا أن توفي بالتزاماتها تجاهها. كلّ الأوهام مترابطة وتولد من بعضها البعض، وإذا ما عدنا إلى أصلها سوف نجدها تنبع دائما من الظنّ والوصم الديني الذي أبتلى به الجنس البشري، فمن النُّذُر قد نشأ أيضا كلّ وصم سياسي.

خُدِعنا مرّة في تصوّراتنا عن الآلهة وعن الحكّام التي تُمثّلها، ولم تعد منظومة الأحكام لدينا والمواقف سوى سلسلة طويلة من كلّ ضروب الوصم.

على ماذا تتأسّس، في واقع الأمر، مشاعر الإعجاب لدينا والاحترام والشغف بالرتب والمناصب والرفعة والولادة والألقاب، وباختصار على ماذا يتأسّس شغفنا بكلّ الامتيازات التي لا تمنحها الحكومات للعاميّ إلاّ بالتوسّل والدسائس وبالدناءة والخيانات التي يقوم بها بعض المواطنين الأقوى دسيسة والأكثر حنكة وشرّا من الآخرين؟

يمثّل الوصم والظنّ ومصلحة الحاشية تقريبا في كلّ بلدان العالم المقياس الوحيد للحكم على الناس؛ فالناس لا تُقدِّر في ذواتهم البراعة، الكفاءة والاستحقاق، ولا تأخذ الفضائل والخدمات الحقيقية التي تقدّمها للوطن في الحسبان. كما أنّه لا يلقون التقدير والاحترام إلاّ بحسب المكانة التي يحظون بها لدى الحاكم وبحسب موقف الملك أو القائد منهم ومن الخدمات المخزية التي غالبا ما يقدّمونها له. أفلا تأتي من الوصم، أو الظنّ، غير الشرور!

ففي نظر الناس، لا تكمن الرفعة والحظوة إلاّ في الاستعداد لارتكاب الظلم والجور دون رادع وفي سحق الضعفاء الأبرياء الذين ليس لهم في السلطة من يحميهم ويردّ لهم حقوقهم. فالرّتب والمناصب والأوسمة هي آيات للقوّة تفرض نفسها، تغطي الجهل وعدم الكفاءة والجدارة وتزيّن حامليها في أعين الشعوب المنبهرة.

وأخيرا، تنادي المناصب والتشريفات من ولد في طبقة النبلاء، هذا الشرف المزعوم لبعض المواطنين الذين يستعيضون به عن البراعة وعن الفضائل، وتوفّر لهم طبقتهم المكانة والسلطة وتعطيهم الحظوة على حساب أبناء بلدهم المهمّشين المحتقّرين. وهكذا منح الملك، بظنّه وانحيازه، السلطة للنبلاء وأبنائهم ليظلموا الناس وليخوّل لهم القانون أن يحتقروا ويضطهدوا أمثالهم من بني بلدهم الذين يظنّون أنهم قد

خُلِقوا من طين أقلّ نقاء من طينة هؤلاء المتكبّرين، المغرورين، العظيمين، الرائعين والمرموقين الذين يُنظَرُ إليهم في البلدان التي يسود فيها الظنّ والوصم، الضلال والوهم، الفتوى والرجم بالغيب، على أنّهم أنصاف آلهة[1].

لقد جعل الكهنوت بتملّقه وبفتاويه الدينية الحكّام فاسقين وغمروا الشعوب بمعتقدات باطلة ومضلّلة لم يكن يعلمون أبدا تبعاتها، ولم تجد هاته الشعوب من عظيم شأن أو جدير بالاحترام والتقدير إلاّ من يشير إليه حكّامهم ومن يقرّبوه منهم، كانوا يجثون على ركبهم أمام الحماقة والجهل وحتى أمام الخطيئة والمعاصي عندما يحملانهم الظنّ والوصم على تعظيمها.

[1] توجد فوارق كبيرة في بعض البلدان الأوروبية بين من ينتمي إلى طبقة النبلاء وبين من ينتمي إلى عامة الشعب، بين صاحب السموّ وبين القروي، مثلما هو الفرق بين الإنسان والكلب. في بولونيا، في ألمانيا، الخ...، الاقطاعيون هم أصحاب الممتلكات وحتى أشخاص خدّامهم. وفي تكون الحاشية والكبار في البلدان الاستبدادية من نفس طينة الكهنة الذين يبعدون، بازدراء، العاميّ المُدنّس عن محبوبهم المُبجّل والمُوقّر. ومثل كهنة الآلهة يريدون أن نضحّي لهم بالطبيعة والفطرة السليمة والعقل، والذين يرون أنّه من الوقاحة أن يتجرّأ شخص نكرة من العوام ويطالب بالحقوق والعدالة الإنسانية.

لو كانت الأمم التي أثبطتها ألاعيبهم المخزية قادرة على أن تستنجد بالعقل والحكمة لكانت بدون أدنى شكّ قد أدركت أن ارادتها وحدها هي التي تمنح السيادة السيادية للحكّام، ولكانت قد تبيّنت أن هذه الآلهة المزعومة، المنتشرة على وجه الأرض، التي تسجد لها لم تكن من الأساس سوى بشر قد كلّفتهم بإرادتها أن يقودوها نحو السعادة، والذين قد تحوّلوا إلى قُطّاع طرق ولصوص ومغتصبين للعرض والمال عندما أساءوا استخدام النفوذ الذي منحته لهم وعندما أفسدهما الجاه والمال.

ألم تكن لأيّ ردة فعل منه أن تجعلها تدرك أن الحكومات قد أُسّست من أجل سعادتها وأمنها! أنّ الملوك جُعِلت لخدمة الأمم وليس الأمم قد جُعِلت لخدمة الملوك! ألم ترى الشعوب أن هذه الحروب التي لا لزوم لها وهذه الانتصارات المميتة التي كان ثمنها دمائهم وممتلكاتهم لن تنفعهم في شيء سوى أن تديم شقائهم وأن تنهكهم وتقودهم للهلاك؟ ألن يفتحوا أعينهم ليروا أن الأرض شاسعة لتكفي عيشهم وتحتويهم وتجعلهم سعداء، وأن الأمراء والملوك يطمحون لمدّ سلطانهم دون أن يهتموا ببسط سعادة وهناء الشعوب التي يحكمونهم؟ ما الخير في هذه الحروب المتواصلة التي جعلت من كوكبنا مقام للمجازر وملاذ للوحوش الضارية المنشغلة بالفتك ببعضها البعض؟

ألا نرى كيف أباد هذيان الحكّام وأوهامهم الأمم المتعاقبة من على وجه الأرض بعدما أحكموا قبضتهم عليها، وكيف أهلكت الجراح المرّوعة التي كبّدتها هذه الأمم لبعضها البعض؟ ماذا جنت من الفواصل الزمنية للسلم التي بالكاد تكفي لتضميد الجراح؟ هل هذه الأمم في مأمن بتلك المعاهدات الغادرة المهدّدة دائما بأن يخرقها الطمع والغدر؟ ألم تملّ أبدا من كونها ألعوبة السياسة المقيتة التي تضحّي بها في كلّ قطر من أجل مصالح ضيّقة لبعض القادة الذين لا يهتمّوا بنمائها والذين يجعلون العالم كلّه مسرحا لمطامحهم الجامحة تعوزهم في ذلك قيم العدالة وحسن النيّة؟ هل سيبطلون سحر الفتاوي وقد غرّهم الوصم الديني والسياسي الذي كان سلطانه عليهم أقوى وأشدّ بأسا من أيّ قوة أخرى؟

ألن يفكّوا أبدا أسرهم ويقيّدوا بدورهم أيادي هؤلاء الملوك ليكفّوا عن إيذائهم؟ هل سيكونون مُجبَرين دائما على أن يتعذّبوا طوال قرون كاملة جرّاء النزوات العابرة لأسيادهم الحمقى أو وزرائهم الأغبياء الغير أكفّاء؟ هل سيصرّون على استرضاء السماء والتضرّع إليها على التكفير عن ذنوبهم على جرائم لم تكن لهم فيها بيع ولا خلّة؟ وأخيرا، ألن يكفّوا أبدا على الوصم والظنون المخزية التي أقنعتهم أنّ دمائهم وأبدانهم وما يملكون حلٌّ لعباد مؤلّهين، وأن العليّ لم يخلق البشر في الأرض إلّا ليخدموا ويرضوا غرور ونزوات عدد قليل من الملوك الذين أضبحوا آفة وعلّة لباقي البشر؟

لو أنّ الحكّام أنفسهم كانوا يراعوا الطبيعة والفطرة في حكمهم ويدركون مصالحهم الحقيقية، لو أنهم يستفيقوا من سكرتهم التي يغرقهم فيها كهنة النُّذُر وخدّامها بمداهنتهم وتملّقهم، سيرشدهم العقل إلى حقيقة أنهم تابعين لمن يحكمونهم وخادمين لسعادتهم ورخائهم، انهم مكلّفين من الأمم بالعمل على اسعادهم وتحقيق أمنهم وبالسهر على تلبية حاجياتهم وجمع شملهم وحشد قواهم. سيكونون مكرّمين ومبجّلين ومجازين على خدماتهم، ولكنهم سيفقدون كلّ حقوقهم في الملك حالما يخلّون بالتزاماتهم. سوف يدركون أنهم الخادمين والقادة المرشدين لهذه الأمم وممثّليهم وليس ايقونات الآلهة.

سيتبيّن لهم أن السلطة القائمة على موافقة الشعوب ورضاها والتي أوجدتها المنافع الحقيقية للناس هي أشدّ رسوخا وقوة من السلطة القائمة على مزاعم وهمية. سيكتشفون أن المجد الحقيقي يكمن في جعل الناس سعداء وأن القوة الفعلية تكمن في توحيدهم على أهداف ومنافع مشتركة، وأن العظمة الحقيقية تكمن في العمل والكدّ وفي المهارات والفضائل.

ستعلّمهم دروس الحياة وتجاربها أن العدالة هي السدّ المنيع الذي يحمي الرعية والأمير، وأن الحرية وحدها كفيلة بأن تنشئ مواطنين كريمين، وأن الحقيقة تصنع منهم كائنات عاقلة وحكيمة، وأن التربية

السليمة تكفيهم لجعلهم صالحين، وأن القانون قد وضِع لكبح الجريمة وردعها، وأن الحوافز والمكافئات عليها أن تدفع بالمواهب والجدارة وتشجّع الخلق والابتكار. وأن الملك لا يكون قويّ إلاّ على رأس أمّة كريمة وسعيدة. وخلاصة القول، عوض أن يستشير الملوك ويقرّبوا إليهم المتملّقين والكهنة الذين يخدعونهم، ولو أنهم يسترشدون بالعقل، سيدركون أنّه على الوطن أن يُوفّر السعادة لأبنائه لكي يكون وطن عزيز، سيرون أن عزّة الوطن ومناعته لا يتحقّقا إلاّ بمواطنين سعداء ومكرّمين، وأن القوانين لا تُحترَم إلاّ إذا كانت نافعة وعادلة ومنصفة أن السلطان الخيّر الكريم هو الذي يحظى بالتبجيل والموالاة.

الفصل الثامن

في الحروب الدينية
والاضطهاد

لم تصلح أبدا النُّذُر إلاّ لإفساد الملوك والأمراء وحوّلتهم إلى طغاة عندما أصبحوا حماتها المتحمّسين الغيورين؛ لم يكن لكهنتها من عمل سوى تكوين العبيد للطغاة والمستبدّين الذين ينكّلون بالمقابل بكلّ أولئك الطين يرفضون التذلّل لهم. فنحن نرى في كلّ مكان كيف أنشأ الكهنوت، في حقيقة الأمر، عقائده بحدّ السيف ويفرض أوامره بالإيذاء والاعتداءات والتحريم وبقوة الحديد والنار.

وبغضّ النظر عن المصالح التي تجمع المستبدّ بكاهنه، نجد في الدين بذور السخط والحقد الذي غالبا ما كان يثيرهما على وجه الأرض؛ تتأسّس كلّ منظومة دينية على إلاه غيور على حقوقه صارم إلى حدّ الاستياء من أفعال العباد وأفكارها. إلاه حاقد ويريدنا أن ندافع على قضيّته. أقول إن هكذا دين لابدّ أن يجعل أتباعه خائفين، قلقون، مضطربين وعديمي الإنسانية، قساة ومتزمّتين. لابدّ أن يجلب الاضطراب والشقاء للأرض الممتلئة بالمنّظرين الذين لا تتّفقون أبدا في أفكارهم حول الألوهية.

لابدّ أن ينادي الشعوب للقتال في كلّ مرّة سيقال لهم أن السماء قضت بذلك، ولكن الآلهة لا تكلّم البشر الفانين إلاّ بوسطاء وهؤلاء الوسطاء لا تكلّمهم الآلهة إلاّ بما يتماشى مع مصالحهم وهاته المصالح غالبا ما تكون متعارضة مع مصالح الشعوب.

والعاميّ المغفّل لن يميّز أبدا بين كاهنه وبين إلهه؛ مخدوع بثقته العمياء في كهنته لن يفحص أبدا الأوامر أو ينظر فيها. سوف يذهب مطأطئ الرأس لقتال أعدائه دون أن يستخبر أو يستفسر على موضوع النزاع الذي لن يستطيع أصلا فهمه، وسوف يذبح دون وازع أو سيعرّض نفسه للموت عن قضية ليس له بها أيّ علم

ومع ذلك سيكون سخطه على نفس مقدار العظمة التي يتحلّى بها إلهه الذي ظنّ أنه يكترث للنزاع وللحرب التي يخوضها. وبما أنه يعرف أن هذا الإله عظيم قدير عليم لا يفوته أو يعوزه شيء، فلن يكون لحقده وضراوته حدود، سوف يعتبرهما من آثار الغيرة التي لابدّ أن الله قد أثارها في عباده.

هذا هو السبب في كون الحروب الدينية هي أشدّ قساوة بين الحروب، فبمجرّد أن يُقرع صوت الدين على آذان الشعوب يستولي رعبا قائما على النفوس، وتهزّهم هواجس غامضة، وفي صمت كئيب كلّها أذان صاغية للكهنة أو الملهمين ومن أتاهم الوحي، فالفزع هو أشد

العواطف عدوى وانتشارا بين الناس. وسيأخذ الرعب من الآلهة، الذي ليس لا يتوقّف عند أمر أو مسألة، في التزايد.

كلّ يرتجفون خوفا دون أن يعرفوا السبب، وكلّ شخص سيزيد في مخاوف جاره ويضاعف من مخاوفه هو؛ الحيرة والفزع يشوبان كلّ الوجوه، وفيها يخاطب الأنبياء بالإيحاء والمجاز خيال الناس، يشحذ المتعصّب والمتزمّت سيفه أو نصله.

وإذا ما أُضيفت لهذه الحالة أيضا مآسي العامة واستيائهم ومصائبهم، يتجرّع عندئذ الشعب كؤوس دهاقا من سمّ الحمية والعصبية، وعقب الدروس التي يتلقّاها من كهنته وشيوخه سوف يدمّر كلّ من سلّطوا عليه سخطهم وشجبوه في خطبهم.

في أمّة تحكمها النُّذُر، يكون الكهنوت بارعا في تعكير صفو الدولة وفي تهييج مشاعر الحقد لدى الشعب ضدّ من يدّعي أنهم أعداء ربه. لابدّ أن ترتعد فرائص أسياد الرعايا الشقيّة في كلّ مرّة يعتلي فيها كاهن متزمّت المنبر لإلقاء الخطب؛ فمن ذاك المكان يمكنه أن يهزّ عروشهم ويقوّضها ويمكنه أن يعطي لرعاياها إشارة العصيان والتمرّد.

في الحروب الدينية يكون الدافع أقوى دائما في نظر المقاتلين منه في الحروب السياسية؛ ففي هذه الحروب الدينية يكون الجندي على يقين أنّه معني شخصيّا بهذا النزاع، يعتقد أنّه ينتقم لربه، أنّه يقاتل تحت أنظاره

وأنّه يتأهب لمعاقبته إذا ما أظهر اللين والتراخي ولم يقاتل بالحَمِيّة التي يدين بها لإله السماوات والأرض الذي وحده من يُرجى نعيمه الأبدي.

وينكر الأب المنتش بمثل هاته الدوافع الجامحة في إبانه، والأبن ينكر في وليّ نعمته، يذبح الأخ أخيه والجار يعقر جاره. وتصبح العداوة بين كلّ المحاربين عداوة شخصية وكلّ محارب فيهم يظنّ أنّه حقيق بالعفو على جرائمه وأنّه سينال عن جدارة الثواب الأبدي كلّما كان شديد البأس والقسوة في القتال.

إنّ له من الجنون ما يجعله على يقين أنّه بدمه وبدماء الآخرين يكفّر عن خطاياه، فيغدوا القتل والخيانة والخداع وخرق قوانين الطبيعة والفطرة السليمة فضائل في عينيه. وتصبح الأفعال الشنيعة في نظره مشروعة ضدّ من اختارتهم السماء ضحايا لنقمتها، لم يعد أمثاله من الناس بشر في نظره لأنّه يعتبر أنّ عصيانهم للسماء قد حوّلهم إلى وحوش ولا يدين لهم بشيء وله أن يتفنّن في تعذيبهم بأكبر درجة من القساوة.

وخلاصة القول، إنّ كلّ نفس لم يطفئ فيها التعصّب الديني والغلوّ مشاعر الإنسانية تحرقها نار الأسى ويتقطّع فؤادها رأفةً لرؤية كلّ ما خلقه الحنق الديني من الهمجية والغدر والتنكيل في الناس الذين يصبحون عبقريون في قسوتهم كلّما تعلّق الأمر بربّهم. والدين الذي يتبجّح بأنّه أتى للأرض بالسلام قد أزهر في وسط الأمم القتامة

والبشاعات التي تليق بآكلي لحم البشر وبالمتوحّشين أكثر من أتباع رب رحيم كريم.

لقد رأينا كيف أنّ مذابح الآلهة في كلّ العالم تقريبا كانت تُسقى بدم البشر، ولكن لم يكن هذا الدم ليُرهَق دائما في المعابد؛ لقد ملئ كهنة الإله، الذي كانوا يدعونه في نفس الوقت إله الرحمة وإله الانتقام، خلال قرون طويلة وجه الأرض بالرعب والمجازر، لقد كانت الممالك برمّتها معابدهم وكُلِّف الملوك والشعوب بالاهتمام بتقديم الذبائح لهم.

أما الدين الحديث الذي يتشدّق بأنّه يدعم الأخلاق ويدعم العمل السياسي فقد كلّف لسكّان المعمورة من الدم أكثر بكثير من الديانات التي كانت تامر صراحة بالقرابين والأضاحي الأكثر بشاعة. وحتى في أيامنا هذه، يواصل كهنة إله السلام وأئمّة الدين وشيوخه، الذين نتباهى بطهرهم وجعلناهم أولياء أمرنا، في بعض البلدان المجازر (الهولوكوست) والأضاحي البشرية التي لا تقلّ بشاعة عن تلك القرابين التي يقدّمها الكهنة المتوحشين لدى المكسيكيّين لآلهتهم المرعبة.[1]

[1] يتبجّح "توركومادا" Torquemada الشهير، حاكم التفتيش في اسبانيا، بأنّه أهلك بالحديد والنار أكصر من خمس وعشرين ألفا 25000 زنديق. ولقد أُبيد في مجزرة ==

وعندما لا يقدرون على الانتقام بأنفسهم، لا يكفّون على النفخ في نار الفتنة وعلى تحريض الشعوب والأهالي ليسعوا في تدمير بعضهم البعض؛ فكهنة لطفاء مسالمين لا يصلح بهم إله دمويّ، ورعايا سلميّين ووديعين لا يصلح بهم إله مرتاب سيّئ الظنّ.

كلّما تعلّق الأمر بالدين والمعتقد، تحتّم قطع أواصر الدم والتخلّي عن الثوابت الأخلاقية والسياسية على أولئك الذين أخذهم الظنّ بأنّ الدين أهم بكثير من الوطن ومن العائلة ومن الفضيلة؛ فمن يؤمن بالنُّذُر ويلتزم بأحكامها لا يمكن أن ينظر لغير السماء ولابدّ أن يدوس على أبيه، أمّه، والديه، أصحابه وبني جلدته لكي يصنع طريقا للذواب بالتضحيات التي ارتأى له أن يقدّمها لهذا الإله.

سان- بارتيلمي Saint-Barthéllemy ما يعادل ذلك في مدينة باريس. وكلّفت مجزرة ايرلندا حياة خمسمئة ألف بروتستانتي. وأُحرق في الحرب الصليبية ضدّ الألبيج Albigeois كلّ سكّان مدن عديدة. لا يمكننا أن نقرأ دون ارتعاد البشاعات التي أمر بها الملوك ورجال الدين ضدّ الفودو Vaudois وضدّ مناهضي التعميد Anabaptistes البروتستانت في فرنسا، وفي بلاد السافو Savoie والمجر. إنّ الكهنة هم بدون شك الأكثر ظلما والأكثر شرّا بين الناس؛ فهم يريدون أن ينشروا الدين بحدّ السيف، وبالتعذيب. إنّ قاعدتهم في ذلك نفس قاعدة الطاغية المستبد؛ التحكّم في مصائر الناس وفي أقدارها.

وكلّ من تعلّقت همّته بصدق النوايا بهذا الإله، لابدّ أن يتملّكه الحقد ولابدّ أن يظهره لكلّ من بدى له أنّه عدوّ الدّين وأنه السبب في الغضب الإلهي وأنّه يحول دون تجلّي العظمة لملك السماوات والأرض، ولو كان في مقدوره لحرق كلّ أولئك الذين يناوئون انتشار حكمه وسلطانه؛ فالحكم كلّه لملك الملك هذا ولا يجب أن ينافسه في ملكه أحد في الأرض، ولا يجب أن يشاركه في حبّه أحد من مخلوقاته.

حسب ما نرى في كلّ أمّة تُولّي أمرها للنُّذُر، أ يكون ترجمان مشيئة العليّ القدير ومقاصده ضرورةً هو المتحكّم في مصير الدولة؟ وهل من الضروري أن يكون السيّد المطلق على حياة الحاكم ورعيّته؟ كيف يكفيه أن يرجم بالإثم لكي يُذبح كلّ ملك لا يروق له أو كلّ من لا ينصاع لأوامره المقدّسة من البشر الفانين؟ هل سينظر الناس التي تحتكم للنُّذُر في أوامره؟

لا، بدون أدنى شكّ؛ فيكفي للناس أن تعرف أن شيخها، أو كاهنها، يتكلّم على لسان السماء التي تقضي بأمر لا تدركه الأذهان ولا يسعها أن تنظر فيه؛ فعلى الدولة أن تفنى وعليهم أن يهلكوا كلّ أولئك الذين حلّت عليهم النقمة الإلهية. بأمر من ربّهم، عليهم ألا يصغوا لنداء الطبيعة والفطرة السليمة، ألاّ تأخذهم الرأفة بالناس ولا يهتمّوا بسعادة وكرامة وطنهم، وأن يعكّروا صفوه ويقضّوا مضجعه من أجل أن يكفّروا عن خطاياهم.

فلا يجب أن نستغرب بتاتا إذا رأينا الدين دائما ما يمنّ على الناس ويغدق عليهم بالمال والطعام ويجعلهم بورعهم لاإنسانيّين. ودائما ما جعلت النُّذُر الدين يتفوّق على السياسة والأخلاق والعقل. لقد خنقت كلّ هذه الفظائع الفطرة السليمة وكسرت الأواصر الأكثر قداسة وحوّلت الإنسان إلى نمر مُتعطّش لسفك الدماء.

ولكي نقتنع بأنّنا لم نبالغ البتّة في وضع قائمة التبعات الضارّة للنُّذُر والدمار الذي ألحقته بالأمم، لنلقي بأنظارنا على السجلاّت المقدّسة؛ إننا نجد فيها شعبا مختارا من إلهه يفتكّ بجيرانه ويدمرهم، يستولي على ممتلكاتهم ويقضّ مضجعهم.

لنراجع حوليّاتنا الشخصية، ألن نجد فيها أن طيلة قرون متتالية كانت أوروبا مخضّبة بدماء من يعبدون الإله نفسه؟

سوف نجد ألمانيا وإيطاليا تغطّيهما جثث أولئك الذين هلكوا في نزاعات الكهنوت ضدّ الإمبراطورية. وسوف نجد كيف أن حميّة البابوية وتكالبها قد أدّيا إلى الحروب الصليبية المعتوهة التي سُلّح فيها، بتِعلّة استرجاع الأراضي المقدّسة، لصوص مسيحيّين كان قد أقنعهم رجال الدين أنهم بدماء الكفار سيتطهّرون من جرائمهم المروّعة. سوف نرى ملايين من الناس، الذين كانوا على يقين أنهم بالمشاركة في الحروب الصليبية يكفّرون عن جرائمهم، ينقادون دون حشمة أو رادع إلى المغالاة والاسراف في فظاعاتهم.

ونتيجة هذا الهراء، سوف نجد أوروبا قاطبة مهجورة بسبب الحكّام الحمقى والظالمين والمحتلّين، الذين يهجّرون رعاياهم لقارة آسيا أين يجدون حتفهم وأين تحفر لهم الحماقة والجنون قبورهم.

في كلّ مكان سنجد آثار الوحشية الدينية التي تدمي القلب، وسنجد فرنسا قد مزّقتها الحروب الأهلية المرّوعة وسنجد عاصمتها في ظلام دامس غارقة في دماء خمسين ألف مواطن واثنين من ملوكها قد نحرهم على التوالي خنجر الدين، وسوف نجد في وطننا ملك منتشي بصلاحيّاته الكاذبة التي منحها له رجال الدين وهو ذاهب للمصقلة لكي يصبح فيما بعد ضحية مشهورة لتعنّته من أجل وصم ديني سخيف. سوف نرى الطغيان يلتحف عباءة الدين وهو يأمر بقمع الهولنديّين ويجبرهم على القتال ضدّ ملكهم المستبد البغيض.

إنه الدين هو الذي ذهب، وهو يغطّي الجشع والطمع، يبحث عن ضحايا جدد في العالم الجديد. لابدّ أن الأمم الأمريكية المسحوقة والمُعذَّبة والمستعبدة من طرف اتباع إله السلام كانت تتحسّر طويلاً على آلهة أسلافها القاسية.

وخلاصة القول، فإن الدين وحده الذي كان منذ قرون يقتّل الملوك، يحدث الشقاق والفتنة في الرعية ويحرّض بعضها ضدّ بعض، يكسر وحدة الأقوام ويفرّق شملها، يحرّضهم على الحرب ويحدث فيهم الفتنة.

إنه الدين الذي يبثّ الرعب ويأتي بالفساد والضلال الذي لم تعرفه في القدم الشعوب التي كانت تسمح لكلّ فرد أن يتّبع طريقة أسلافه في سلام؛ لم تسمح هذه الشعوب، التي صوّروها لنا على انها كانت عبيدا، لنفسها أبدا أن تنتهك الفكر وتقمعه، ولم تجد، مثلما وجدنا نحن، في كلّ حين الدوافع المتجدّدة لأن تتباغض وتبيد بعضها البعض. أمّا الأمم التي كانت تدّعي أن السماء قد فضّلتها وأن الآلهة نفسها قد علّمتها وحدها الدين الذي تسموا به، كانت تبتدع الأساليب الفذّة لكي تعذّب النفوس وتجلب القلق والارباك حتى لضمائر الناس[1].

لو كانت النُّذُر تسمح بمراعاة الطبيعة والفطرة السليمة والعقل ومنفعة الأمم، ولو أن الدين لم يحمل الناس على أن يدوسوا على كلّ

[1] يبدوا أن الوثنية في العصور القديمة لم تعرف فنّ تعذيب الضمائر. لقد كان للمسيحية الحكر في اختلاق الرموز والصور الايمانية ومهن العقيدة والاستمارات الخ...التي دُعِي للاشتراك فيها، تحت طائلة الاضطهاد والملاحقة، كلّ من كان مشبوها في دينه وفي تفكيره لدى قادة الكنيسة. إنه من السهل علينا من هنا أن نحكم إن كانت اوروبا قد جنت الكثير بتحوّلها إلى المسيحية؛ يمكننا التكهّن يقينا بسقوط المسيحية التي لن تقوى على البقاء حالما يصبح الناس مُتنوّرين كفاية لكي يتحسّسوا أنه من الأهم لهم أن يكونوا انسانيّين واجتماعيّين على أن تكون لهم عقيدة أصليّة. لابدّ لهذا الدين المتزمّت أكثر من أي دين آخر أن يثير اشمئزاز الحكومات بمجرّد أن تلمح أوّل اشراقات العقل والحكمة، وحالما تنشغل بمهامّها الحقيقية.

الاعتبارات الإنسانية لكانوا سيستشعرون أن الانصاف والاعتدال والعفو والسلام هم الأساس لكلّ القيم والأخلاق ودعامات لكلّ المنظّمات السياسية. لكانوا قادرين على أن يتبيّنوا أن أفكارهم وتصوّراتهم الدينية تختلف باختلاف وجهات نظرهم حول المواضيع التي لا يمكن أبدا البتّ فيها، ولكان من السهل عليهم أن يقتنعوا أن الفتاوي الدينية يمكن أن اختلف ولكن الفرائض الأخلاقية القائمة على الفطرة الإنسانية والجبلّة الربانية لا يجب أبدا أن تختلف أو تتباين.

سوف يعتبرون أن هؤلاء الممثّلين للألوهية المزعومين، الذين لا يستخدمون قوانينها إلاّ لأرباك وتقسيم الأمم وتجنيدها، أعداء مرعبين لجنسهم. سوف يخرسون للأبد هؤلاء المتزمتين المتعصّبين الذين يدعون للفتنة والحَمّية ولسفك الدماء، والذين يجلبون الدمار للأرض بذريعة أن السماء قد أمرت بذلك.

لو أن سحر النُّذُر لم يفتن الناس ولم يأخذ بألبابهم فلم يكونوا ليتواطؤوا وينفّذوا ولا ليذهبوا ضحايا المخطّطات الخرقاء لهؤلاء الطغاة الدينيّين والمستبدّين السياسيين الذين شيّدوا مجدهم في كلّ زمن على جثث العبيد وعلى أنقاض الإمبراطوريات.

ولكن العوام، وهم من المهد قد أُعميت أبصارهم، كانوا مجبولين دائما على أن يتملّكهم الرعب الذي تبعثه فيهم آلهتهم عن طريق كهنتها.

لقد فطموهم مع الحليب الحقد الدفين على كلّ أولئك الذين لا يفكّرون مثلهم ولا يعتقدون فيما يعتقدون والذين لا يعبدون نفس الإله الذي هم عابدون ولا يتّبعون شرائعه، أو حتى أولئك الذين يعبدون مثلهم نفس الإله و لكنهم يختلفون في الشعائر والعبادات التي يقيمونها له.

وهكذا أصبحت الأمم تمقت بعضها البعض وتحوّلت الرعيّة في الدولة الواحدة وأعضاء المجتمع الواحد والملّة أو الطائفة نفسها وحتى الأهالي في نفس العائلة إلى غرباء وأعداء لبعضهم البعض، ولا يأمن أحدهم جانب الآخر.

لقد أحدث الدين الفُرقة بين الناس وحملوا بسببه السيف ضدّ بعضهم البعض وأصبحوا على الدوام أعداء. وكانت الدول والامبراطوريات في غليان مستمرّ، والأهالي يسكنها الحقد والبغضاء يتأهّب كلّ واحد منها للفتك بالآخر وذبحه في أوّل إشارة من حاكم مستبدّ أو من كاهن، وسعت كلّ الناس في نيل شرف الإبادة أو الهلاك وفي القتل أو نيل الشهادة في سبيل دين لا يفقهون البتّة ما الذي يرمي إليه بالتحديد.

يذهل كلّ انسان عاقل وينتحب لرؤية ما كلّفته للأمم مجموعة من الفتاوي والعقائد، ومن بنود الايمان والشعائر الجائرة والسخيفة والغريبة التي ارتأى الكهنوت أن يمليها عليها. لم يكن كلّ ما يتعلّق بالدين في نظر

من يؤمن بالنُّذُر ويحتكم إليها أن يمرّ مرور الكرام؛ فلا شيء أكثر أهميّة من كلّ ما يتعلّق بخلاصه الأبدي. وغالبا ما كان يجلب كلّ تجديد طفيف في المذهب أو تغيير في العقيدة أو حتى التعديلات الصغيرة في المراسم والاحتفالات الخلاف والنزاعات التي لا تتوقف بين الشعوب، كما كانت تقوم بسبب ذلك الحروب وتُقمَع الناس وتُضطَهد[1].

لقد استغرق الاحتجاجات والمعارك قرون من الزمن قبل التوصّل إلى اتّفاق حول الطريقة التي يجب أن تُفهم بها وصايا الآلهة ومشيئتها التي لم يتّفق حولها المترجمين والمفسّرين ذوي العصمة أبدا.يتجادل الكهنة دائما ويتباغض أتباعهم ويتقاتلون دون أن يفقهوا أبدا على ماذا هم منقسمين وحول ماذا يختلفون.

---

[1] لقد كانت الرغبة في ادخال الرّداء الكهنوتي والقداس الأنغليكانية سببا في هلاك الملك شارل الأول فوق المقصلة. لقد كثرت الاضطرابات في هامبورغ في القرن الأخير بسبب النزاع الذي نشب بين وزيرين أحدهما يرى أنه يجب القول في الصلاة الدومنيكية "أبانا " عوض القول "أبونا". ولقد اشتركت كلّ أهالي المدينة في هذه الخصومة المهمة.

لقد كان المسيحيّين في خلاف مستمرّ منذ قرون حول زمن الاحتفال بعيد الفصح، حول كلمات، حول حروف وحول فواصل.

لا يجب أن يفاجئنا كلّ هذا؛ فطالما تعلّق الأمر بأشباح لا توجد إلاّ في مخيّلة الناس وبأحلام لا تتجانس ولا تنسجم ولا يجمع بينها جامع، فإنّ الجدال لن تنهيه القرون والأزمان، ولا الدهر يقدر أن يجمع ويؤلّف بين نظم لا تعالج سوى تخمينات وفرضيّات زائفة ومضلّلة ولا تطرح سوى السخافات التي أتى بها دجّالين قد فرّقتهم المصالح أو عقول قد اختلفت الأوهام التي تسلطت عليهم.

فالحقيقة وحدها القادرة على تجمع الناس وتوحّدهم. وبعد أن أُستبعد العقل والخبرة على الدوام في الخلافات الدينية، تظلّ القوّة والتعنّت والعنف المهيمنين وحدهم على ساحة المعركة، ولهم وحدهم القرار في فصل النزاع فرض. ينتهي الأمر بأن يُخضِع الأقوى والأكثر براعة وعنادا واصرارا من هم أضعف منه، ويقرّر الفتاوي التي يجب أن يتّبعها كلّ الناس.

يستحوذ أولئك الذين لهم القوة والبأس على ما يسمّى " نعيم المخلصين، المؤمنين الصادقين والأصوليين"، ولكي يجعلوا من أعدائهم ممقوتين ومبغوضين يرمونهم بالكفر ويغدقون عليهم بنعوت مثل: الكفار، الآثمين، الهراطقة، الخونة.

يفقد كلّ أولئك الذين وقعت عليهم هذه النعوت والصفات التي اختلقها الكهنوت الغاضب كلّ حقوقهم في المجتمع ولا يعتبرون حينئذ

من البشر، فالنُّذُر* والوصم الذي ألحق بهم يقضون على كلّ الأواصر التي تجمعهم ببني جلدتهم.

---

* نَذِرَ بالشيء، وبالعدوّ، بكسر الذال، نذْراً: عَلِمَهُ فحَذِرَه وأنذَرَه بالأمر.
قوله «وأنذره بالأمر إلخ» هكذا بالأصل مضبوطاً، وعبارة القاموس مع شرحه: وأنذره بالأمر انذاراً ونذراً، بالفتح عن كراع واللحياني ويضم وبضمتين، ونذيراً) إنذاراً ونُذْراً، عن كراع واللحياني: أعلَمَهُ، والصحيح أن النُّذُر الاسم والإنذار المصدرُ. وأنذَره أيضاً: خوّفه وحذّره. وفي التنزيل العزيز: وأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ؛ وكذلك حكى الزجاجي: أنذَرْتهُ إنذاراً ونذِيراً، والجيِّد أن الإنذار المصدر، والنذِير الاسم.
وفي التنزيل العزيز: فستعلمون كيف نَذِير. وقوله تعالى: فكيف كان نذير معناه فكيف كان إنذاري. والنذير: اسمُ الإنذار. وقوله تعالى: كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ؛ قال الزجاج: النُّذُر جمع نَذِير. وقوله عز وجل: عُذْراً أو نُذْراً؛ قرئت: عُذُراً أو نُذُراً، قال: معناهما المصدر وانتصابُهما على المفعول له، المعنى فالمُلْقِيات ذكراً للإعذارِ أو الإنذار. ويقال: أنذَرْتُه إنذاراً. والنُّذُر: جمع النذِير، وهو الاسم من الإنذار. والنذِيرة: الإنذار. والنذِيرُ: الإنذار. والنذِير: المُنْذِر، والجمع نُذُرٌ، وكذلك النذِيرة؛ قال ساعدة بن جُؤَيَّة: وإذا تُحُومِيَ جانبٌ يَرْعَوْنَه، وإذا تَجِيء نَذِيرة لم يَهْربوا وقال أبو حنيفة: النذيرُ صَوْت القَوْس لأنه يُنْذِر الرَّمِيَّة؛ وأنشد لأوس بن حجر: وصَفْراء من نَبْعٍ كأن نذِيرَها، إذا لم تُخَفِّضه عن الوَحْشِ، أَفْكَلُ وتَناذَر القوم: أنذر بعضُهم بعضاً، والاسم النُّذْر. الجوهري. تَناذرَ القومُ كذا أي خَوَّف بعضُهم بعضاً؛ وقال النابغة الذُّبياني يصف حَيَّةً وقيل يصف أن النعمان توعَّده فبات كأنه لديغ يَتململ على فِراشه: فبِتُّ كأني ساوَرَتْني ضَئِيلَةٌ من الرُّقْشِ، في أنيابِها السُّمُّ ناقِعُ تَناذَرَها الرَّاقُون من سُوء سَمِّها، تُطَلِّقُه طَوْراً، وطَوْراً تُراجِعُ ونَذِيرة الجيش: طَلِيعَتُهم الذي يُنْذِرُهم أمرَ عَدُوّهم أي يُعلمهم؛ وأما قول ابن أحمر: كَم دون لَيْلى من تَنُوفِيَّةٍ لَمَّاعَةٍ تُنْذَرُ فيها النُّذُرْ فيقال: إنه جمع نَذْر مثل رَهْن ورُهُن. ويقال: إنه جمع نَذِير بمعنى مَنْذُور مثل قَتِيل وجَديد. والإنذارُ: الإبلاغ، ولا يكون إلا في التخويف، والاسم النُّذُر.
المرجع [illegible] لسان العرب [illegible] (dorar-aliraq.net)

لقد كان الكهنوت يعلن غالبا أن المؤمنين المخلصين لا يدينون لا بالعدالة ولا بحسن النية ولا بالعفو والرحمة للمخلوقات التي تمرّدت على أوامره وعصتها[1].

[1] لقد أُنشأ في قصر روما المبدأ القائل بأنه لا يجب أبدا الالتزام بالمعاهدات التي أُقيمت مع الهراطقة، وما نتج عن ذلك أنه لا يمكن لأمة بروتستنتية أن تقيم اتّفاقيات صلبة ومُلزمة مع أمير كاثوليكي

الفصل التاسع

في التسامح

إنه لا يتوافق مع المبادئ المؤسّسة لكلّ دين

لابدّ لكل انسان أن يحزن ويستاء لرؤية الآثار المرعبة التي أتينا على تعدادها، ولابدّ له أن يقرّ بوجود الشرور التي كانت قد أتت بها آراء وتوافقات الناس الدينيّة. ربما سوف يُقالُ لنا أن الدّين بريء من هذه الشرور، وأن الفساد الذي لحق به يعود إلى الإسراف والشطط الذي تحدّثنا عنه.

سوف يُزعَم أن سوء استخدام الأشياء الأكثر نفعاً يمكن أن يجعلها ضارّة وأنّه علينا أن نعزو الفظائع التي تُرتَكب باسم الدّين إلى أهواء الناس وشهواتهم. إني هنا أردُّ وأقول: إنه علينا أن نبحث على مصدر الشرور والمآسي في مبادئ الدّين نفسه، في الإله الذي يقوم عليه هذا الدّين وفي الأفكار المشؤومة التي كوّنها الجنس البشري حوله.

يُمتحَنُ الناس، مثلما لاحظنا سابقا، في حاضرهم تارة بالسرّاء وتارة بالضرّاء، وهم يُرجعون كلّ ما يأتيهم في هذا العالم إلى الإلوهيّة التي يعظّمونها؛ فلا يستطيعون، وإن بذلوا في ذلك كل الجهد، أن ينسبوا لها على الدوام الخير والكرم. فحالما تدور عليهم دوائر الكدر والمحن،

يتملّكهم الرعب من الربوبيّة؛ ويأخذهم الخوف منها كلّ مأخذ، فيظنّون بها ظنّ السوء وتراهم في أحسن الأحوال محمولين على الصمود في وجه الغضب لديها بعد الرضى والشرّ بعد الخير والكرم.

لا يمكن لإله عليم قدير مكين، لا يحدث في الأرض شيء إلاّ مشيئته، أن يكون خيّرا على الدوام في نظر عباده، والإله الخيّر اللطيف لابدّ أن يحجبه في نفوس الناس الإله السّاخط المرعب الذي يشغل بالهم أكثر من ذلك الإله ذي الخير والكرم الذي ليس لهم أن يخشوْه في شيء؛ وهكذا فإنّ فكرة الرب ستوقظ في نفوس الناس مشاعر الرعب والذعر التي تجعل الناس تعقِد السوء فيمن أثارها.

سوف يحمل الديّن الناس دائما على الخوف والرعب وسوف يشغل بالهم كلّ ما التبس عليهم من الأمور ولسوف يثير فيهم الجدال والنزاع بينهم ويحملهم عاجلا أم آجلا على الغلوّ والشطط.

إنّ ترك العقل والتدبّر هو أوّل ما يطلبه الديّن من تضحيات؛ فحالما يكفّ الناس عن الاسترشاد بالعقل في النظر إلى أهمّ الأمور لديهم، سوف لن ينضبطون لأحكامه ولن يحتكمون له في كل الأمور التي تخصّ الديّن. وبالتالي سوف لن يسلكون دائما سوى سلوك الضلال والضياع.

إذا كان الديّن من صنع الربّ، فعلى هذا الديّن أن يحكم السليقة نفسها وعليه أن يلجمها عندما تتجاسر في معارضة مشيئته ومشيئة مُفوِّضيه؛ فإذا كانت مشيئة الربّ هي من تقرّر من هو العادل ومن هو الظالم، فالربّ هو سيّد الفضيلة ومالكها، وبكلمة منه يمكن أن يصير الجرم فضيلة وتصير الفضيلة جرما، وتصير الحسنات سيّئات والسيّئات حسنات.

هكذا هو حال الأخلاق التي تكون تابعة لأهواء ونزوات مترجمين الربوبيّة ومفوّضيها؛ الرّب هو السيّد الأوّل على كلّ الأمم وهو الذي بيده أمر الملوك أنفسهم يقرّر مصير الممالك والامبراطوريات، وعلى هذا النحو لابدّ للسياسة أن تكون خاضعة للديّن. فالحكومات ومصالحها العابرة والوقتيّة لم تُشكِّل أبدا لكي تقوّض مصالح الربوبية ومصالح كهنتها المكلّفين بإخبار الناس بمقاصدها. لابدّ للطبيعة إذا والعقل وللأخلاق والفضيلة ورخاء الدول أن يُسلّموا أمرهم للديّن الذي انبعث من أحكم الحاكمين ولابدّ أن يقهر كلّ من يعترض أهدافه وغاياته.

كلّ هاته المفاهيم هي مشتقّات للمبادئ الأوّلية التي يتأسّس عليها كلّ دين من الأديان، ومن هنا نجد الناس غير متّسقين مع أنفسهم في كلّ مرة يتنكّرون في سلوكهم للمنظومة التي ينطلقون منها؛ فليس مسموح لهم أبدا أن يحيدوا عن مبادئهم وعندما يبتعدون عن السبيل الذي

ألزمهم به دينهم، فإنهم يصبحوا آثمين في نظر ربّهم. عندما يريدون أن يكونوا منطقيّين وملتزمين سوف ينفّذون دون اعتراض الأوامر التي تأتيهم من السماء، وعن طواعيّة سوف يتلقّون ما شاءوا من الأهواء التي سوف يُلهمونها لهم باسم الرب، وعندما يدعوهم الرب أن يُقيموا له الأضاحي ويطلبهم للفداء سوف يفتكون دون تمييز بكلّ أعداء عظمته ومجده، وسوف يكونون خدّام للمؤامرات التي يحيكها أولئك الذين يعرفون مقاصده الخفيّة، وإذا ما لزم الأمر سوف يثيرون الفوضى في المجتمع ويجعلون عقده ينفرط.

فإلى المبادئ الديّنية نفسها علينا أن ننسب الحماقات والمغالاة التي دائما ما كان الديّن علّتها نفسها؛ فالناس الذين خُدِعوا في الربوبيّة كانوا قد استخلصوا من هذه المبادئ كلّ ما هو ضارّ بسعادتهم في هذه الحياة الدنيا، ولقد أصبح سلوكهم بالضرورة سلسلة طويلة من العته.

سوف يجعل الديّن، الذي ليس مسموحا أبدا بالنظر فيه أو معارضته، فظائع الطموحين والمتحمّسين والمحتالين مبجّلة في نظر الشعوب؛ فهؤلاء سيعجّلون بردّ الأفعال المروّعة التي أتت بها أهوائهم البشعة إلى حكم الآلهة ومشيئتها. فماذا أشدّ بغضا من رداء جاهز على الدوام لأن يستر الجرائم الأكثر حبكة! وماذا يكون أكثر شرعية من تحطيم الأوهام التي باسمها كانت الأرض دائما مكلومة!

لو أن العقل يستردّ من الإنسان حقوقه التي انتهكها التيه، أفلن تراه يستشعر أن كلّ ما من شأنه ـ بذاته أو بتبعاته اللاّزمة ـ أن يربك المجتمع، وكلّ ما يقوّض الوئام والوفاق بين الكائنات المُقدَّر لها أن تتحاب وترعى بعضها البعض، كل ما يدفعهم لأن يتباغضوا ويتناحروا ويلوّعوا بعضهم البعض وأخيرا كلّ ما يستعبدهم ويجعلهم أشقياء، لا يمكن إلاّ أن يُعتبرَ من النوايا الخبيثة، مؤامرة ضدّ الجنس البشري، يحقّ لنا شرعا أن ننقضّ عليه وعن صواب نشجبه ونجعله مدعاة للاستهجان والاستنكار.

ستتأسّس النّذُر على عقيدة إله مرعب لا يُؤمَن مكره، مخادع، قاس وسفاح ولابدّ لها أن تصنع عاجلا أن آجلا متعّصبين ومتحمّسين تدفعهم الحميّة، كئيبين وساخطين؛ سوف تكون بين يدي الطّغاة والدجّالين سلاحا فعّالا يزهقون بها الأرواح ويريقون الدّماء وسوف تملأ الدنيا بالبؤساء والأشقياء. إلاّ أن الماكرين الذين لم ينخدعوا بهذا الديّن سوف يستخدمونه لمآربهم والطموحين يستعملونه كي يدعّموا سياساتهم، والنفوس الفاسدة الحريصة على متاع الدنيا من الملذّات سوف تجد فيه الوسيلة لتشبع الجشع الذي يسكنها وسوف يستخدمونه المتعنّتون المتعصّبين لكي ينتقموا لكبريائهم ويرضوا غرورهم. ولن يفلحوا أبدا في مساعيهم الحقيرة إلاّ إذا ساندت مطامحهم شعوب حمقاء

وورعة تعتقد عن صادق الإيمان بأنها ترضي ربّها عندما ترتكب الجرائم التي يؤذَن بها كهنته أو تطيع الطغاة الذين باسمه يحكمون.

وإذا ما أخذه الرعب من إلهه كلّ مأخذ، لا يستطيع حتى من كان قلبه سليم وروحه نقيّة أن يمنع نفسه من أن يحقد على أولئك الذين نعتهم دينه بأعداء الرب؛ فإذا كان هذا الإله ملك غيور على ملكه فلا يجب أن يشاركه في ملكه أحد. وإذا كان لا يرضيه غير دين واحد، فيجب أن يتمّ نشره في كلّ مكان، وإذا ما أعاق أحد تمدّده وجب سحقه وإذا ما هُوجِمَ هذا الدِّين وجب علينا أن ننحاز إليه ونفتديه بأرواحنا ونهلك دونه.

إنّ التسامح مع دين آخر من الأديان يعني بمقتضى ذلك أننا نسمح بقيام عقيدة أخرى رغم أننا نعتقد أنها تهين الإله، وهو ما يعني أيضا أننا نتخلّى على ما تقتضيه عظمته وجلالته من أجل شريعة انسانيّة أخرى يعتبرها بغيضة.

لا شيء في الدنيا يعادل الرب في مكانته؛ فأقدار الناس في يده معقودة وليس دون كسب رضاه غاية فُضلى؛ فهي غاية الغايات وهو القدير المكين بيده الخير للمجتمعات الانسانيّة والرخاء دون عون البشر؛ أفيكون من الأفضل أن تهلك دولة وتُقْفَر على أن يُسْجَن جمع من السكّان الكافرين الذين هم جالبين لا محالة إليها غضب السماوات وحنقها؟

سوف يكون إذا من واجب الملوك والأمراء والعقداء العسكريّين وممثّلي الرّبوبية المكلّفين بالذود عن حوزتها وحماة الدين أن يحملوا السيف لمَحْقِ جذور الكفر والإثم والهرطقة من دولهم؛ ووجب عليهم أن ينفوا ويضطهدوا ويدمّروا رعاياهم الذين يصمهم رجال الدين بأعداء الرب لأنّهم أخلّوا بالطاعة لكهنته ووزراءه.

إذا ما رفضت حكومة متساهلة أن تُلطِّخ يدها بالدم وإذا ما ألزمتها مصلحة الدولة بأن تبقى محايدة بين الأرض والسماء وإذا ما كانت أخيرا أحكام الملك وأراءه مهينة للإله، سوف يكون من العار أن يمثّله في الأرض، وإذا ما أعتبره رجال الدين آثم وعاص وطاغية فلن يكون أهل لقيادة شعب مؤمن ومخلص[1].

تلك هي وصايا الدين القائم على وحي إله غير محايد غيور على عظمته؛ حريص على ملكه، يهتمّ لآراء الناس ويأمر آلاف المرّات بالقتل والاغتيالات، فلا يجب أن ينازعه في ملكه أحد؛ تلك هي الثوابت التي يجب أن يدين بها كلّ فكر منطقي متناغم مع ذاته غير متناقض، وأولئك الذين يدينون بمثل هذا الدين ويتّبعون في نفس الوقت قواعد وثوابت

---

[1] قديما كان البابا يعلن أن كلّ الملوك الذين يعارضونه مهرطقين زنادقة، وكانوا يُخلعون من العرش ويُرفع عن الشعوب واجب الطاعة والولاء.

مناقضة له، هم غير مُتّسقين مع أنفسهم ولكنهم عقلاء يهتمّون بمصالح الدولة ويراعون مبادئ الأخلاق الإنسانية، وهم يرجعون إلى لين طبعهم ولطف سريرتهم ويلبّون نداء الفطرة السليمة فيهم، أكثر ممّا يراعون مصالح الدين ومقتضياته وممّا يطيعون أوامر إلههم عندما يكون على طبيعته الجيّاشة.

وجب على الورع والمتديّن من الناس أن يُضحّي بكلّ الاعتبارات الأخرى؛ فإذا كان هذا الإله مخيف ومرعب فهو إذاً مراوغ، وسوف يكون أحمقا إذا ما ارتأى ألاّ يتمّ بطشه في الأرض. تحت حكم إله ساخط وشرّير يكون العفو والتسامح جبن وجرم وخيانة لا لبس فيها.

هكذا إذاً يكتم المسيحيّ المتديّن، إذا ما أراد أن يكون منسجما ومتّسقا مع أصول دينه، نداء الطبيعة والفطرة داخله، وعبثا سيتباهى بأنّه يوفّق بين السماحة واللّين وبين الإله المرعب الذي ورثه عن العبرانيّين؛ فالإله الذي لم يخلق أبوه آدم إلاّ لكي ينصب له مكيدة، أليس هو نفسه إذاً الإله الذي وجب أن يتحدّاه؟ والإله الذي أمر إبراهيم، النّبي الذي عظّمه وأقرّ بوحدانيته، أن يُضحّي له بإبنه الوحيد، ألا يكون هذا الإله قاسي عتيّ؟

والإله الذي لم يرضيه إلاّ موت فلذة كبده، أليس هو إذا الإله الأشدّ عتوّا من كل الآلهة الأخرى؟ إله موسى الذي تُقدّس المسيحيّة

نبوءاته وإله يفتاح* الذي ضحّى بأبنته، وداوود القاسي الذي كان على ما يرضي قلب ربّه خلقه ربه**، وإله فينحاس*** الذي أُختاروه اللاويين

* "وَكَانَ يَفْتَاحُ الْجِلْعَادِيُّ جَبَّارَ بَأْسٍ، وَهُوَ ابْنُ امْرَأَةٍ زَانِيَةٍ. وَجِلْعَادُ وَلَدَ يَفْتَاحَ". (سفر القضاة قض 11: 1،موقع الأنبا تكلا، المترجم)

** "ثُمَّ أَتَى يَفْتَاحُ إِلَى الْمِصْفَاةِ إِلَى بَيْتِهِ، وَإِذَا بِابْنَتِهِ خَارِجَةٌ لِلِقَائِهِ بِدُفُوفٍ وَرَقْصٍ. وَهِيَ وَحِيدَةٌ. لَمْ يَكُنْ لَهُ ابْنٌ وَلاَ ابْنَةٌ غَيْرَهَا. وَكَانَ لَمَّا رَآهَا أَنَّهُ مَزَّقَ ثِيَابَهُ وَقَالَ: «آهِ يَا بِنْتِي! قَدْ أَحْزَنْتِنِي حُزْنًا وَصِرْتِ بَيْنَ مُكَدِّرِيَّ، لأَنِّي قَدْ فَتَحْتُ فَمِي إِلَى الرَّبِّ وَلاَ يُمْكِنُنِي الرُّجُوعُ». فَقَالَتْ لَهُ: «يَا أَبِي، هَلْ فَتَحْتَ فَاكَ إِلَى الرَّبِّ؟ فَافْعَلْ بِي كَمَا خَرَجَ مِنْ فِيكَ، بِمَا أَنَّ الرَّبَّ قَدِ انْتَقَمَ لَكَ مِنْ أَعْدَائِكَ بَنِي عَمُّونَ». ثُمَّ قَالَتْ لأَبِيهَا: «فَلْيُفْعَلْ لِي هذَا الأَمْرُ: اتْرُكْنِي شَهْرَيْنِ فَأَذْهَبَ وَأَنْزِلَ عَلَى الْجِبَالِ وَأَبْكِيَ عَذْرَاوِيَّتِي أَنَا وَصَاحِبَاتِي». فَقَالَ: «اذْهَبِي». وَأَرْسَلَهَا إِلَى شَهْرَيْنِ. فَذَهَبَتْ هِيَ وَصَاحِبَاتُهَا وَبَكَتْ عَذْرَاوِيَّتَهَا عَلَى الْجِبَالِ. وَكَانَ عِنْدَ نِهَايَةِ الشَّهْرَيْنِ أَنَّهَا رَجَعَتْ إِلَى أَبِيهَا، فَفَعَلَ بِهَا نَذْرَهُ الَّذِي نَذَرَ. وَهِيَ لَمْ تَعْرِفْ رَجُلًا. فَصَارَتْ عَادَةً فِي إِسْرَائِيلَ" سفر القضاة قض 11: 34-39، موقع الأنبا تكلا، المترجم

*** اسم مصري معناه "النوبي the Nubian "وهو اسم: ابن ألعازار (من زوجته ابنة فوطيئيل) وحفيد هرون (خر 6: 25؛ 1 أخبار 6: 4، 50). غار للرب فقتل زمري بن سالو الشمعوني مع المديانية التي زنى معها فوقف الوباء وكان قد اجتاح العبرانيين بسبب زيغانهم وراء المديانيات .فوعد باستمرار الكهنوت في نسله (عد 25: 1 - 18؛ مز 106: 30؛ 1 مك 2: 54). وثبت الكهنوت فعلًا في أسرته حتى خراب أورشليم والهيكل على يد الرومان سنة 70 م.، باستثناء الفترة التي قامت فيها أسرة عالي بخدمة الكهنوت. ورافق فينحاس الحملة التأديبية على المديانيين (عد 31:). وأرسل كذلك مع الرؤساء العشرة لمراجعة الأسباط التي في شرقي الأردن في أمر ==

لخدمة ربهم جزاءً لجرائمه. أليس هو إله حانق ساخط ذلك الإله الذي يقول عن نفسه أنّه إله الجيوش وإله الحرب والثأر الذي يأمر بإفناء الأمم وآلهتها، والذي أغرق في الدم مدن الكنعانيّين والذي يريد من الملوك أن يقيموا من أجله المجازر، والذي يأمرنا على لسان أنبيائه أن نقطع بالسيف رؤوس النساء والأطفال والشيوخ! أيكون إذا إله طيّب كريم؟

وأخيرا، أيكون الإله، الذي يريد عباده باكين متألّمين ومستشهدين، والذي يعدّ للطّامة الكبرى من أبنائه النار يخلدون فيها، أب رحيم حنون وإله منعم كريم؟

كلاّ! إن إله المسيحيّين لهو إله متعطّش للدماء، أبالدم يريد أن نطفئ غيضه؟!، أفلا يمكن أن يهدأ باله إلاّ بأنهار من الدم!، وبغير الدم لا تنطفئ صواعقه التي أشعلتها المعاصي في الأرض!، أبأنهار من الدموع وجب التخفيف من وطأة جوره؟!، أبغير الشدّة والقسوة لا يمكننا أن نثبت له غيرتنا وحميّتنا؟ أبالبدع علينا أن نثبت له الطاعة والولاء!

المذبح الذي بنوه والذي أخطأ العبرانيون في اعتبار أنَّ الغاية من بنيانه الانفصال عنهم في العبادة (يش 22: 13) وكانت حصة فينحاس من أرض كنعان تلاً في جبل أفرايم (يش 24: 33) . وبواسطته استشار العبرانيون الرب في أمر محاربة البنياميين للصفح عن خطيئة سكان جبعة (قض 20: 28) (راجع؛ موقع الأنبا تكلا، المترجم)

إن المسيحيّة فكرها مدمّر؛ فإلهها يأمر بالتدمير ويأمر كلّ مسيحيّ بسحق أعداؤه ويدعوه أن يضطهد ويقاتل ويعرّض نفسه للهلاك إذا ما أراد أن يُرضيه، إن المسيحيّ يخدم إله منتقم، إله سوف يجازيه على حماسته وحميّته ولسوف يعاقبه على تهاونه وفتوره.

ولا يفوتنا أن نقول إن إله المسيحيّين، الشديد البأس فيما مضى، قد لان منذ أن صالحه موت ابنه مع الجنس البشري وتغيّرت تعاليمه، وأنه بعدما كان صارم في عدله زمن غضبه أصبح الآن مسالم منزوع السلاح يدعوا الناس للإنسانيّة وللعدل والسلم والوئام. وإننا لنرى هكذا إذا كيف الأوامر المتناقضة تخرج من فم إله ثابت لا يتغير؛ إنّه يأمر اليوم بما حظره بالأمس، فماهي الطريقة التي وجب أن نتّبعها في ظلّ الأوامر المتضاربة؟

هل علينا أن نحب أعداؤنا أن علينا أن نغتالهم؟ أيكون اليوم، مثلما كان على الدوام، مستاء غضبان من تفكير البشر وأفعالهم؟ هل على من يعبدوه اليوم أن يهتمّوا، بقدر ما كانوا في السابق مهتميّن، بإظهار الحب له والحميّة؟ هل علينا أن نخون اليوم قضيّته، أن نتركها ونزدريها؟ وإذا ما كانت تحتاج اليوم لأن يدافع عليها الناس بأنفسهم، فلماذا لا يكونوا اليوم في حاجة إلى عونه ومدده؟ وتحت حكم إله منتقم شديد العقاب، أيلزمنا أن نكون على قدر من الحميّة والعصبيّة؟ ألن تأخذنا الحميّة كلّ

مأخذ وتكون الفئة الليّنة المعتدلة منّا هي الفئة الطائشة؟ وإذا ما كان قد دعانا إلى اللطف واللّين، هل لنا أن نفترض أنّ الذين ينتهكون أحكامه هو بهم عليم ويعلم أنّ ما دفعهم في ذلك هو إفراطهم في تعلّقهم به؟

إنّ وصايا الربّ تتغيّر بتغيّر الأزمان ونفس الربّ لا يعطي نفس الأحكام في الأزمان المختلفة. ومن هنا يأتي الاختلاف والتنوّع في الفتاوي التي اتّبعها المسيحيّين فيما يخصّ التسامح؛ فالبعض منهم، وهم متّسقين مع أصولهم الدينيّة متشبّثين بها بطبيعة الحال، يريدون أن يضطهدوا ويقمعوا ويقيموا الدين وعقيدته بالحديد والنار والتعذيب، وآخرون يريدون أن يكتفوا بالأنين في صمت جرّاء آثام الضّالين من إخوانهم ويوكلون للقدير أمر القضاء بينهم والانتقام لنفسه. أولئك لا يدعون إلاّ للدم والمذابح ويكتفي هؤلاء بكتم غيضهم داخل صدورهم وبازدراء الذين لا يفكّرون مثلهم، لأنّه من المحال في حقيقة الأمر على المتديّن الورع أن يحبّ ربه ويحبّ في نفس الوقت من ينتهكون حرمته. يفضّل أولئك ربهم ويضحّون من أجله بالأخلاق والفضيلة وبأمن الدولة وسلامتها، أمّا هؤلاء فيضحّون به هو لأجل مكارم الأخلاق ولأجل طبعهم الشريف الصادق وقلوبهم الطيّبة ولأجل فطرة العدل والإنصاف فيهم ومراعاة لمصلحة الأمم ونفعها.

لو كان للعقل والفطرة السليمة أن يفصلوا بين الآراء المتناقضة، لعرف الناس باكرا إلى أيّ رأي يركنون، ولكننا لا نرجع إليهما حالما تعلّق الأمر بالدين؛ وهكذا لم يتبيّن الذين يعبدون الإله نفسه إلى اليوم إذا كان عليهم أن يقمعوا أعدائه أم يتسامحون معهم من أجل الامتثال لمقاصده والأخذ في سبيل تحقيقها الوسيلة.

رغم أنّه يقول عن نفسه أنّه إله السلام، إلاّ أن كلا الفريقين يؤمن بإله مخيف مرعب؛ فيقيم كِلا الفريقين المتنازعين لرأيه الأدلّة والبراهين ويدعمه بأمثلة دامغة وبأوامر قطعيّة. وفي جضمّ هذه الخصومات والنزاعات لا يعرف المسيحيّين المندهشين إلى اليوم هل عليهم أن يكونوا أخيارا أم أشرارا، قساة أم مسالمين، ظالمين أم عادلين، متسامحين حليمين أم غاضبين مندفعين؛ فواحد يبتهج لمشاركته في التضحية بزنديق، قد قضى حكّام التفتيش أن يموت حرقا، ولا يساوره الشكّ أبدا أن هذا العذاب هو أضحية زكيّة رائحتها كفيلة بأن تجلب إليه خير السماء ونعيمها. والآخر يشيح بنظره وفرائسه ترتعد عن هذه المأساة المرعبة ويريد أن يفكّ من المحرقة ذلك البائس الذي كان ذنبه أنّه قد وقع إغوائه.

لا يجب أن نتفاجأ أبدا من هذا التضارب في أفكار المسيحيّين المتناذرين، فإلههم كان قد أمر في ظروف خاصّة أمرا قطعيّا بالقتل والظلم

والجرم والانتقام، لقد سمح بالسرقة والنهب والقتل والاغتيالات وبذبح الملوك، لقد أراد أن يُعامَل بكلّ أنواع الوحشيّة كلّ أولئك الذين لم يعرفوا اسمه ولم تأتيهم قوانينه. لقد تغيّرت مقاصده في مناسبات أخرى، فهذا الإله نفسه قد دعا إلى اللّطف واللّين وقد حرّم العنف وأمرنا أن ننصاع إلى الأقوياء في الأرض وقد خفض حميّة الذين كلّفوا أنفسهم بالدفاع عن قضيّته فتكفّل بالانتقام لنفسه وأراد من أتباعه أن ينضبطوا لقواعد الإنسانيّة وسننها.

كيف لنا أن نضبط سلوكنا وفق أحكام إله متناقض مع نفسه؟ ألا نرى بجلاء أن أوامره المتضاربة كانت قد أتت بها مصالح ومزاج وأهواء وظروف أولئك الذين استنطقوا مرارا وتكرارا الربوبيّة واستخبروا؟ ألا نستشعر أنهم قد رجعوا إلى هيئات الشعوب وسجاياهم، إلى حاجاتهم وآدابهم وأفكارهم وهم يأتون لنا بأحكامه؟ إذا ما أمر مشرّع قاس ذو بأس شديد ونافذة سلطته على شعب من السُراق وقُطّاع الطرق بالقتل والذبح، فإنّ المحتال الذي تعوزه القوّة والسلطان يكون قد وجد نفسه مضطرّا بأن يأتي بخبر ربّ معتدل في بلد يحتاج بذاته للغفران؛ ولو كان دعا للتعصّب لكان أخرق ولكانت تمرّدت عليه المهج. لقد كلّم موسى الحاكم بأمره في الإسرائيليّين الهمج الحمقى البؤساء بحسب ما

يفقهون قائلا لهم بأن يُبيدوا وينهبوا، أمّا المسيح فيكون أحمق لو أنّه خاطب بنفس الخطاب قلّة من التعساء الذين تعلّقوا به[1].

لقد كان رسل الدين حديث النّشأة والمقموع إذا مُلزمين بأن يوصوا بالصبر والتسامح والرفق واللّي. وبعد وصوله للسلطة غيّر هذا الدين في لهجته، ولحدّ الساعة لم يدعوا سوى للانتقام والثأر والسخط ولقد جعل من العالم كلّه مقبرة شاسعة. كانت الطريقة التي يأمر بها الدين تتغيّر بتغيّر الظروف لدى الكهنة؛ فسياستهم المتقلّبة كانت مجبرة على أن تتكيّف مع تغيّرات الدهر. متواضع متساهل ومتزلف في بداياته، لم يرتئي أن يرفع رأسه ويُعلي صوته وأن يجعل أتباعه مضطربين وأن يزرع

---

[1] وبالرغم من روح الاعتدال واللّين التي يعزوها المسيحيّين للمسيح عيسى، فإنّ الانجيل يظهره لنا أحيانا مندفعا وحاملا لأوصاف من يربك راحة الناس وأمنهم؛ فتفوّهه باللعنات لكهنة بلده وبطرده دون وجه حق الباعة من الهيكل لم يكن له بكلّ تأكيد تلك النفس المسالمة التي يتبجّح بها أتباعه. من الواضح أن المسيح كان العدوّ اللدود للكهنة ولمحاريبهم ولمعابدهم وأضاحيهم. وبهاته الصفات تحديدا يصف لنا الكهنة اليوم الكافر والمواطن الخطير، إذ بدت كثير من الآيات في الانجيل تدعوا للتسامح، فإنّ الكثير منها أيضا تأمر صراحة بالكره والاضطهاد. فعيسى المسيح يقول أنّه أتى حاملا السيف، وأتى ليفصل الأبن عن أبيه وعن باقي البشر، وأنّ الذي لا يدين للكنيسة بالسمع والطاعة وجب اعتباره وثني وعشّار. لقد أمر القدّيس بولس بأن نتجنّب المهرطق مثلما نتجنّب الفاسد الماجن من الناس، وحرّم القدّيس يوحنّا استقبال المهرطق أو مجرّد إلقاء التحيّة عليه.

الفتنة ويتحدّى القوّة المدنية وأن يلحق بالأرض الدمار إلاّ عندما رأى في نفسه القوّة والمقدرة على فعل كلّ ذلك دون أن يردعه أحد.

لقد كانت مصالح المرشدين الروحيّين هي التي دائما من يضبط أهواء الشعوب؛ فكيفما شاءوا كانوا يجعلون من أتباعهم ليّنين وديعين أو مندفعين، صبورين أو غليظي، خانعين أو ثائرين، انسانيّين أو همجيّين حسب ما تقتضيه الظروف. لقد أخضع كهنة المسيحيّين على مرّ الأزمان المصلحة العامّة لنزواتهم الذاتيّة كما أخضعوا الأخلاق لِعِتْههم وضبطوا سلوك السلوك بقراراتهم؛ فمتى شاءوا كانوا يجدون في نبوءات السماء الذرائع لكي يسّوغوا لآرائهم الأشدّ تناقضا. لقد خوّل لهم الغموض والتضارب الذي يكتنف هذه النبوءات أن يقرّروا ما يروه مناسب لهم؛ فالأوامر الواضحة والدقيقة والقوانين المتوافقة التي لا تُعارض بعضها البعض والوصايا المتطابقة مع العقل لا تحتاج شارحين ومفسّرين؛ في كلّ مرّة يُخَرَسُ فيها العقل، تكون السلطة هي التي تُفسّر وهي التي تُقرّر.

ورغم أن خطاب الرّبوبية وكهنتها لم يبيّن بغموضه للمسيحيّ أيّ وجهة هو مولّيها فيما يخصّ المسائل المتعلّقة بدينه، فإنّ وجهة الرفق واللّين والعفو والتسامح ليست هي الوجهة الآمنة؛ إنّه سوف يستشعر ذلك إذا ما انتبه إلى سجايا ربّه وإلى الصفات التي يُظهرونه عليها له في كتبه المقدّسة.

فمن يعبدون إله يأخذ الأطفال بذنوب آبائهم، إله أمر أو بارك مئة مرّة الأعمال الإجراميّة، جعل ملوك تُغتال وأمم تُدمَّر، إله قد قتّل أنبيائه الآلاف من الناس بسبب بعض الانتهاكات أو الخروقات[1]. ولأقول، لا يمكن لمن يعبدون ربّ هو على هاته السجايا أن يكونوا متسامحين، ولا يمكن لكهنته أن يكونوا مسالمين ومعتدلين صادقين دون أن يكونوا خائنين له أو ضارّين بقضيّتهم؛ إن الكاهن المتسامح سرعان ما يضيع منه حكمه، فغايته تقتضي أن يذبّح في سبيلها ويضطهد. ليس هنالك للعنف بديلا في سبيل صبغ أراء باطلة زهوقة. إن حريّة التفكير دائما ما تكون مهلكة بالنسبة للكهنوت.

عبثا سوف يُقال له أنّ الرب الذي قدّم نفسه على أنّه مرعب وسفّاح قد أصبح أكثر انسانيّة وتساهلا، فصورة الوحشيّة البدائيّة لديه هيّ أكثر نفعا لدجّالين أشرار من صورة الرحمة والكرم اللاحقة. إنّ هاته الصورة

[1] تخبرنا التوراة أن موسى الذي كان من ألطف الناس وأرقّهم قد ذبح أكثر من أربعين ألفا من الإسرائيليين لأنّهم لم يمتثلوا لوصاياه؛ لقد تولّت قبيلة اللاّويين الكهنوتيّة جزاء لها لأنّها نفّذت أحكامه الدّامية. واحرق البابوات الملايين من المسيحيّين قربانا لدينهم، وعامل الإسبان والبرتغاليين سكان أمريكا الهنود مثلما تُعامل الوحوش؛ فالأوائل منهم، كما يُقال، قد قتلوا أكثر من عشرين مليون من الأمريكيين، والمحمّديين أتباع دين محمد لم يكونوا أبدا أقلّ وحشيّة في غزواتهم التي امرهم بها نبيّهم.

كفيلة بأن تربك دماغ المتعصّب وذي الحميّة؛ سوف يظنّان أنّهما محمولان على القسوة وسوف يتذرّعون في وحشيّتهم بالاقتداء بربّهم وبالشخصيّات المبجّلة التي نعِمت بأن نالت رضاه؛ سوف يقولون لهم كهنتهم بأن الربوبيّة السّاخطة تطلب التضحيات الجسام، وبأن ما تباركه في زمن يمكن أن يغيظها في زمن آخر، وسوف يعرضون عليهم ما أتت به الكتب المقدّسة من تمرّد واغتيالات وانتفاضات التي تُروى بالمديح والثناء، وسوف يصدّق أتباعهم هاته الأفعال المحمودة والمسوَّغة كلّما اقتضت الغاية السماويّة ذلك[1].

وخلاصة القول، فإنّنا حالما نفترض وجود إله ذي بطش وبأس شديد فإنّ البأس والبطش دائما ما يطغيان على العفو واللّين؛ فالاضطهاد والتعذيب واجب، ومهما كان الأذى الذي لابدّ أنه لحق بفنّ تدبير

[1] أباد يوشع الشعوب الكنعانيّة وقتل اهود ابن جيرا ملكه عجلون بالتحريض من النبيء صاموئيل وتمرّد داوود على سيّده. لقد كان الأنبياء العبرانيّين دائما متمرّين. لم يكن ملوك يهوذا محلّ رضى الرب إلّا عندما يكونون متوحّشين. ولقد خوّل البابا لنفسه الحقّ في عزل الحكّام ويعفي الرعيّة من قسم الطاعة والولاء. اغتال الراهب جاك كليمنت هنري الثالث ملك فرنسا وقُتِل هنري الرابع على يد متعصّب كان قد تربّى عند اليسوعيّين الذين دائما ما كانوا ينادون باغتيال الملك وبالقمع والاستبداد. هذه العقيدة تطابق تماما مع روح المسيحيّة؛ فالمسيحي لا يقرّر شيئا فيما يخصّ الرب، ولا ينكر أحد أن اليسوعيّين هم الذين حبكوا بيننا المؤامرة المسلّحة.

شؤون الناس فإنّ السبيل الأكثر ضمانا سوف يكون إبادة كلّ أولئك الذين لا ترتضيهم الرّبوبية. إن الخصال والسجايا للرّبوبية تكفي لتبديد شكوك الورع المتديّن؛ فالذين لا يبالون والجبناء والتابعين الغير مخلصين هم وحدهم من يرضيهم أن يبقوا مُتفرّجين أو يسمحوا بأن تُنتهكَ حرمة ملك السماوات العُلى.

إننا لنرى أيضا على الدوام تقريبا كيف كان للدين الحكم في تفريق الأهالي وإحكام السيطرة عليهم وفي إثارة التعذيب والمطاردات وفي الإتيان بالخراب المريع. لم تقدر روح السلم على شيء أمام انفلات الأهواء التي أنشأتها الحميّة؛ لقد كتم التعصّب الغانم صوت الفطرة السليمة، صوت الانسانيّة وصوت الكياسة، ولم تكن الدماثة من نصيب سوى بعض الأرواح الصادقة الشريفة التي كانت ضعيفة لا تقوى على صدّ الطغاة المنتشين والكهنة وشعوبهم الهائجة. لقد كانت كلمة "متسامح" كلمة "آثم" مترادفتان في أغلب الأحيان للورعين والكهنة. وكان مناصر اللّين يُعتبَر مُرتكب جريمة؛ لم يكن ليجرأ أبدا على إظهار مشاعره الحاقدة على الاستبداد وعلى الكهنوت، فاكتفى بالتألّم في صمت للشرور التي يعاني منها وطنه جرّاء مُتحمّس هدّام أو سياسة عمياء أو عاجزة على كبح فظاعات الكهنة.

لقد عاملت الحكومات، التي أُفتتنت بهؤلاء الكهنة أو التي تخشى شوكتهم، كلّ أولئك الذين لا يمتثلون لفتاويهم كرعايا متمرّدين؛ فغالبا ما حمل الاضطهاد المتزمّتين على الانتفاض حقيقةً ضدّ سلطة عتيّة قد آلمتهم ضرباتها وحرمتهم من عطاياها.

علينا ألّا نتعجّب أبدا ونحن لا نرى التسامح قائما حقيقة بين المسيحيّين ولا حتى في العالم بأجمعه. في كلّ مكان يقيم الاختلاف في الأديان الفرقة الجليّة بين أهالي الدولة الواحدة؛ لو سُمِحَ حتى في البلدان التي تتبجّح بأنّها بلدان حرّة وبأنّها تخلّصت من التعصّب الدّيني بممارسة بعض الأديان المختلفة عن الدين السائد أو عن دين الحاكم، فإننا نجدها للأسف مكبّلة بكثير من القيود، وأولئك الذين يعلّمونها مكروهين ومُحتقرين على الأقلّ من طرف أنصار العقيدة السائدة؛ فنجدهم مستثنيّين من الوظائف ومن المكافئات والهبات، إنهم مُجبرين على أن يعيشوا عالة على المجتمع والقرائح الأكثر نبوغا لا تستطيع أن تقهر العوائق التي وضعها الدين في طريقها. أينما حللنا فإننا نرى أتباع الطوائف والشيع المختلفة مُتباغضين. يُستنقَص المرء من قدره ويفقد الاحترام من بني جلدته بسبب دينه والحكومات تعوزها الحكمة والشجاعة لا تقدر أن تزن بميزان العدل بين كلّ رعاياها: يبدوا وكأنّ أتباع الدين السائد هم الوحيدين أبناء الدولة، وانحياز الحكومة إليهم

لا بدّ أن يثير لدى من تبرّأت منهم أو أقصتهم من كرمها الحسد والغيرة والحقد.

وبهذه السياسة الخرقاء تمتلئ الدولة بالرعايا الذين يتعلّمون منذ نعومة أظافرهم أن يحسدوا بعضهم البعض وأن يزدروا بعضهم البعض لا يأمن الواحد منهم جانب الآخر، رعايا تذهب الظنون أن أولئك الذين لا يفكّرون مثلهم أو يتّبعون مذهب مختلف هم كائنات من نوع مغاير لنوعهم[1].

في كلّ مكان تسحق الطائفة النّافذة (أي تلك التي ينتمي إليها الملك وقطعانه) الطوائف الأخرى وتحتقرها وتضايقها، وتتقيّد الحكومة بالفتاوي اللاّهوتية في سلوكها مع رعيّتها؛ في كلّ مكان لا تبدوا الحكومات أنها تعمل سوى لجعل من كلّ الذين لا يفكّرون على نهجها أعداء متستّرين. لا يستطيع من لا يمتثل لقرارات اللاّهوت أن ينظمّ إلى الجيش، ولا يكون قاض أو يشارك في الإدارة العامة أو ينتمي إلى القوّة

[1] إذا ما تتبّعنا تاريخ العالم فإنّنا لا نجد التسامح الحقيقي قائما إلاّ في الصين تحت حكم الملوك من نسل جنكيز خان؛ فهؤلاء الملوك كانوا يقبلون في مجالسهم الوثنيّين والأرمن واليهود والمحمّديين وأتباع كونفوشيوس. لن يكفّ الدين على خلق الاضطرابات في الدول إلاّ عندما تكون الحكومات عاقلة كفاية لتكفّ عن ازعاج الأهالي بسبب طريقة تفكيرهم بالقدر الذي لا تهتمّ به بما يضعون من طعام على موائدهم.

المدنيّة إلاّ من أخلص في الإذعان لسلطة الكهنوت. لا يمكن لأحد أن يطمع في أن تكافئه على خدماته إلاّ إذا قبل بوصفات ومواثيق الإيمان والفتاوي التي ابتدعها المنظّرين الدين ضبطوا قواعد الإيمان وشروطه. لا يمكن لأحد تعليم الفنون والحرف أو العلوم الدخيلة إلاّ إذا انضوى تحت لواء الدين.

وخلاصة القول، إنّ كلّ أولئك الذين لا يتبنّون نظام الدولة السائد أو نظام الملك هم مثل المجذومين يقع عزلهم عن الآخرين مخافة أن يصيبوهم بالعدوى. وتبعا لمثل هاته المفاهيم السخيفة يُحَرَم المجتمع من حقوقه على عدد كبير من أبنائه ومن نصرتهم إذ أنهم يضلّون دائما مثل الأغراب في وطنهم.

وحتى هاته اللحظة فإنّ أقصى ما يبذله العقل البشري والسياسة من جهد يقف عند السماح للطوائف المختلفة بأن تتعايش في المجتمع؛ فرغم هذا التسامح المزعوم فإنّ أولئك الذين لا يدينون بدين الملك لا ينفكّون يعانون من الخيبات والمظالم الجليّة، يتحمّلون المحاباة والمحسوبيّة المؤذية، يقعون دائما ضحيّة التحيّز والاحتقار. في مبادئ المسيحيّة نفسها وجب البحث في مصدر الحكم اللاّأخلاقي والمنافي لخير الدول؛ فكلّ انسان تافه كفاية ليعتقد أنّه ذو حظوة لدى ربّه، لابدّ أن يكون محمول على كره كلّ أولئك الذين حُرموا من مثل هذا الفضل. كلّ من يعتقد من الناس

أن ربّه يتضايق من الحجج الباطلة أو من عقيدة الآخرين وجب عليه ألاّ يطيقهم؛ فهو مُجبَر على ألاّ يعاشرهم أو على الأقلّ يتحمّلهم إلاّ إذا اضطرّ إلى ذلك.

تُقاسُ وصوم الشعوب دائما ونهج الحكومات تُجاه الأهالي الذين لا يدينون بالدين السائدّ بمقياس المصداقية والموثوقيّة الكبيرة نسبيّا التي يتمتّع بها رجال الدين* (أو الاكليروس. المترجم) في بلد من البلدان.

* إكليروس كلمة يونانية المقصود بها أصحاب الرتب الكهنوتية الذين يخدمون شعب الله (المؤمنون) من أساقفة وكهنة وشمامسة وهم يحملون صوت الشعب إلى الله ويحملون سر الله وكلمته إلى الشعب .الأصل أنها كلمة معربة عن الكلمة اليونانية "إكليروس" Clergy - κλῆρος والتي تعني (نصيب)، فالإكليريكي أي أحد رجال الإكليروس هو من يقول "الرب هو نصيبي وميراثي". وجدير بالذكر أن مؤلف المراسيم الرسولية لم يفرق بين تعبيريّ "الإكليروس – κλῆρος" و"الإكليريكيين – κληρικοί"؛ فكان يستخدم أيهما محل الآخر ليشير إلى كافة الرتب الكنسية، كبيرها وصغيرها. وبحسب تقليد الكنيسة الجامعة منذ القديم، فإن كل الأحكام التي تكون ضد الإكليروس لا يؤتى بها نحو الأراخنة، بل نحو الأسقف أو أول القسوس ليحكم فيها عليهم.وقد أشار مؤلف المراسيم الرسولية إلى أصحاب الدرجات العليا الكنسية من "الإكليروس" بالتعبيرات التالية:

المدبرون Προηγούμενοι .· الرؤساء Προεστῶτες: ويقصد بهم الأساقفة، ولكن يبدو أن هذا التعبير كان يقصد به أيضًا الأساقفة والقسوس معًا.· الكهنة Ἱερείς: وقد أطلق المؤلف هذا التعبير سواء على الأساقفة، أو على القسوس، كل على حدة. ثم عاد وأطلقه على كليهما معًا. وعمومًا طائفة الإكليروس هم ثلاث رتب ==

يقوم الكهنوت في كلّ مرّة يحظى فيها بالمصداقيّة بالتعذيب والاضطهاد، فيهلك كلّ من لا يفكّر مثلما يفكّر وليس لسياسة الحكم المتقبّلة قسرا لبطش عتهاؤه سوى التكفّل بقطع لأجله الرقاب.

أينما كان الكاهن هو الحاكم بأمره فإنّ الأرثوذكسيّة**، أيّ التسليم الأعمى لأحكامه، تكون أكثر الأمور أهميّة لديه، واغفال شعائره خطيئة لا تُغتفر؛ فالهرطقة والتفكير الحرّ هما جريمتان ضدّ الدولة، وكلمة طائشة ضدّ الدين أو الامتناع عن التقيّد بطقوسه يعدّان من الآثام التي تستوجب الإعدام.

إنّ الشعب الذي تربّى على هاته الأفكار لا يرى مهرطق إلاّ وتمكّن منه الرعب والوجل؛ فينظر إليه وكأنّه وحش ويرقبه بفضول وهو

وهي:1- رتبة الشمامسة، 2- رتبة القسيسين، 3- رتبة الأسقفية. وفي رتبة الشمامسة خمس درجات وهي كما يلي بالترتيب التصاعدي: الإبصالتيس – الأغنسطس – الإيبوذياكون – ذياكون – أرشيذياكوزن. وفي رتبة القسيسية ثلاث درجات وهي: القس – القمص – الخوري إبسكوبس. وفي رتبة الأسقفية ثلاث درجات وهي: الأسقف – المطران – البطريرك. وما غير طغمة الإكليروس يُقال هم العلمانيين. ويوضَع الرهبان في رتبة أخرى. (المرجع : https://st-takla.org/ . المترجم

** راجع https://st-takla.org/ وكذلك المعجم الكبير لمجمع اللغة العربية بالقاهرة، الجزء الأول، حرف الهمزة، ص. 183 (المترجم

يتعذّب وتدفعه ضراوة الورع لديه لأن يرى في موته حدث عظيم فيهتف مصفّقا لجلاّديه. في اسبانيا وفي البرتغال يُعدّ اليوم المُخصّص لتقديم الأضاحي البشرية التي تقدّمها الدولة قربان لإلهها أو لكهنته يوما مهيب يُغذّي الورع والتقوى لشعب يتلهّف للمشاركة في عيد مقدّس.

إنّه من الصعب ألاّ يأتي على نفس الدين الذي تُجاهر به الأمم المختلفة التحريف؛ فإذا كان الملوك والدول يتنافسون في السياسة والحكم، فإنّ الكهنة يتنافسون في النّذور. تحملُ المصلحة والغطرسة كلّ واحد منهم على الاعتقاد بأنّهم وحدهم الحائزين على الإيمان الصادق، وكلّ شعب واثق الإيمان بأنّ مرشديه هم أفضل المرشدين. كلّ الطوائف الحديثة التي تقسّم أوروبا وآسيا تبيّن لنا ما لا يُحصى من الأمثلة في التعصّب وفي انعدام الوئام الديّني.

يكره المحمّدي من أتباع عمر الفارسي الذي يتّبع شيعة علي. والإنكليزي يزدري الفرنسي لأنّ هذا الفرنسي يهتمّ لمعتقدات ارتأى هو أنها سخيفة، والفرنسي بدوره يزدري الإسباني والبرتغالي اللّذان لا يجدون غضاضة في حرق كلّ الذين لا يضمرون صدق الايمان مثلهم. إن الدين أقوى من حدود الدول في تفريق السكان، وبالتالي فإنّ عدم الاكتراث للدين هو الخطوة الأساسيّة في جعل الأمم أكثر انسانيّة وأكثر ألفة.

من ضمن الحيل التي استعملتها على مرّ الأزمان السياسة الكهنوتية، من أجل إحكام سيطرتها على عبيدها، كانت الحيلة الأكثر مكرا تتمثّل في جعل أتباع الديانات الأخرى بشيعين في نظرهم أشرارا، وفي قطع كلّ صلة اجتماعيّة معهم، وبمنع كلّ اتحاد وكلّ ارتباط مع أُناس قد جعلتهم ينظرون إليهم كأعداء وأشرار ومُغضوب عليهم. وخُيِّل للشعب أيضا أنّ ربّه يرجم كلّ من لا يخدمه على منهاجاه هو بآيات الإثم؛ فهو يصعب عليه أن ينظر إلى المهرطق والوثنيّ واليهودي على أنهم أناس عاديّين. يعرف الكهنة جيّدا أنّ التحاور المألوف والمتاجرة في الحياة اليوميّة يمكن أن تُفسد مُريديهم وتُظهر لهم أنّ هذا الانسان الذي يبغضونه له رغم ذلك غالبا عديد الخصال الحميدة ويستحقّ تقديرهم؛ وسوف تكون هذه الصفات بدون شكّ ضارة بالكهنوت الذي كانت دائما ما تقتضي مصلحته التفريق بين قطيعه وبين قطيع خصومه وأن يقيم بين عبيده وعبيد الآخرين حائط عازل.

يتأتّى من هنا كلّ الشجب والاستنكار ضدّ التسامح، من هنا كلّ هاته القوانين الفظّة والعادات المقرفة التي نراها قائمة في عديد البلدان ضدّ المنكوبين الذين لفظهم الدين. تكمن مصلحة الكاهن الحقيقيّة في

أن نعامل كلّ انسان سيّء الحظّ لا يشاطره رأيه مثل حيوان متوحّش وضارّ؛ فالدين سوف يجعل دائما الناس غير اجتماعيّين أنيسين[1] .

تقتضي مصلحة الكهنوت أن يتمّ اعتبار كلّ أولئك الذين لا ينصاعون إليه أعداء الدولة؛ فالشعب الجاهل لن يقدر أبدا على إظهار المحبّة والودّ لكائنات هم مُدانين في نظر دينهم، والحكومة لا تستطيع أن

(1) لم يكونوا العبرانيّون في الأزمان الغابرة يقبلون على موائدهم إلاّ الذين يقبلونهم في معابدهم. (أنظر انجيل التكوين فصل III. XI. الآية 32). إن التعصّب في العالم مُوغل في القدم. يخبرنا القدّيس جيروم بأنّه تبعا للعادات اليهوديّة فإنّ البطريك إبراهيم كان يعتقد أنّه سيُحرق لرفضه الاعتراف بألوهية النار التي كان يعبدها الكلدانيّين بعد أن خرج عن ملّتهم .(هيرونيموس فان أكين جيروم التقاليد في سفر التكوين.32.28.11.)

يسمّي اليهود هيكل سامراء معبد الروث وأحيانا هيكل سوخار، الأكذوبة. ويسمّي السومريون من جهتهم هيكل القدس "بيت البراز". كلّما وجدت الروابط بين الطوائف كلّما اشتدّ كرهها لبعضها البعض؛ وتكره إذا الأهالي بعضها البعض وتتباغض. يتأتى الحقد الدفين الذي يكنّه المسيحيّين لليهود بدون شكّ من واقع أنهم انتزعوا منهم إلههم، فهم أقدر منهم على الإقناع بدينهم المليء بالمغالطات. فهنالك العديد من البلدان الأوروبية التي يُساء فيها معاملة اليهود ويجبرونهم على دفع الإتاوة مثل التي تُدفع على الخنازير. لقد كان هؤلاء اليهود غير اجتماعيّين لدرجة أن قال عنهم جوفينال:

لا تُشير إلى شيء إلاّ إذا كان مقدّسا لدى المخلصين، اجلب معك السوط وأنت تبحث عن الحق. الكتاب .5. هجاء. 14

تتسامح مع أعداء الرب الذي تخضع هي نفسها له دون ألاّ تجلب على نفسها وعلى أمّتها غضب السماوات وحنقها.

وإنّه ليكفينا هذا القدر لكي نستشعر سخافة التمييز الذي أقمناه بين التسامح الدّيني وبين التسامح المدنيّ أو السياسي؛ إن التسامح الدّيني محال، فهو لا يتلاءم مع أيّ نظام دينيّ الذي لا يقبله أحد إلاّ لأنّه يفترض أنّ هذا النظام الدين هو الذي يرتضيه الرب من بين جميع الأديان الأخرى. سيفترض التسامح الديني أنّ الربوبيّة لم تكشف مقاصدها أبدا للناس وبأنّها تنظر إلى كلّ العقائد التي ندين بها إليها على قدر المساواة، وهذا ما لن يناسب أبدا غرور رجال الدين الذين وحدهم يريدون أن يكونوا على حقّ. وفي النهاية سوف لن يلائم التسامح الدّيني أبدا مصالحهم ومآربهم؛ فهم لا يريدون لرعاياهم الروحيّين سوى معتقد واحد أو سذاجة واحدة لكي يقدروا على جمعهم واخضاعهم فلا يقدرون أبدا كسر الأغلال التي يكبّلونهم بها. فوحدة الصف على الضلال والعمى أو الاتفاق على الخباط والجنون هما ضروريّان للحشود التي يُرادُ استعبادها وابقائها بسهولة تحت نير العبوديّة.

أمّا التسامح المدني فهو غير ممكن اطلاقا. فحتى لو وافق الكهنوت على أن يتبنّاه (وهو ما لا يجدر بنا أن نأمل فيه)، أليس الحاكم واقع تحت حكم ربّه؟ أ يكون مسموح له أن يخلّي سبيل أعداءه؟ ألن يكون مدان

بجريمة الإهمال إذا ما لم يلتزم بمصالح دينه ومقاصده؟ أليس من واجبه أن يهتمّ بسعادة رعيّته وبخلاصها الأبديّ؟ أيسمَح لهم أن يظلّوا يضيعوا إلى الأبد؟ أليس عليه أن يستخدم سلطته في اجبارهم على العودة إلى سبيل الرشاد وعلى أن ينقذوا أرواحهم التي هي أهمّ من أجسادهم وأبقى؟ ألا يجب عليه أن يستعمل، إذا ما لزم الأمر، القسوة المنجية في اجبارهم على أن يكونوا جديرين بالقدر الكبير من الخيرات[1]؟

وهكذا لا تستطيع الحكومة، إذا ما كان يملئها حب الرب ومتشبّعة بأصول الدين، أن ترضى بأن تتسامح مع الهرطقة وأن تتواطأ مع الإثم وتسمح بأن تهلك رعيّتها. وإنّنا لنرى أيضا في كلّ مكان كيف يجلب التطرّف الديني معه لا محالة التعصّب والتمييز العنصري بين المواطنين: فالذي تبرّأ منه الدين يفقِد كلّ امتيازات المواطن والحقوق المدنيّة.

وإنّي أكرّر وأعيد إذا؛ يظهر لنا التاريخ الديني للجنس البشري دائما روح التعصّب والاضطهاد التي احتوتها كلّ نذور العالم. في العصور

---

[1] تتذرّع الحكومات التي تستبدّ بضمائر الناس لكي تستر حقارتها بأنّها تسعى في الخلاص الروحي للناس. يمكننا أن نقول لهم بأنّه لا داعي لأن ينشغلوا بخلاص الأرواح، التي ستكون دائما بخير، عندما تكون الأجساد هانئة سعيدة. إن الملوك مقدرّ عليهم أن يسعوا في اسعاد رعاياهم في هذا العالم، أمّا البحث عن سبيل النعيم في دار الآخرة فذلك شأن يعود أمره للمواطنين أنفسهم..

الموغلة في القدم نجد أنصار الآلهة المختلفة أعداء لبعضهم البعض. ودون الوقوف عند هؤلاء العبرانيّين الذين أتت أحكام ربّهم الغيور أو أحكام كهنتهم بالفظاعات الوحشيّة وبالآفات على جيرانهم، فإنّنا نشهد الحروب المقدّسة في مصر بين من يعبدون الآلهة المتنوّعة في هاته المنطقة الخصبة بالنّذور[1].

لقد كان الفارسي الذي يعبد أهورا مازدا تحت شعار النار المقدّسة عدوّ آلهة الإغريق والمصريّين، ولقد دمّر بحميّته كلّ المعابد والأوثان في كلّ الأقاليم التي يجتاحها بأسلحته الفتّاكة. وحتى وإن يكن للمشركين مرارة الحميّة، حميّة من يعبدون الإله الواحد، كان الدين يخلق أحيانا المشاكل والاضطراب بينهم؛ فالنهب الذي لحق بمعبد دلفي DELPHES دلفي كان قد تسبّب، مثلما نعرف، في الحرب بين الاغريقيين التي كانت تُسمى حربا مقدَّسة.

[1] يُزعَم أنّ بوسيريس BUSIRIS، الذي كان طاغية، ومن أجل أن يفرّق بين رعيّته ويحول دون توحّدهم ضدّه، كان قد جعلهم أعداء بعضهم البعض وذلك بأن أتى لهم بآلهة مختلفة أو أعطاهم رايات متنوّعة للربوبية. ومن سخط الشعب على آلهة الجيران، أنّه يكره أماكنها ويريد أن يحبسها وحيدة، فهو يرى أنّ آلهته وحدها من يجب عبادتها. جوفينال. لقد ظنّ جنديّ روماني أنّ قتله لقط قد سبّب ثورة في مصر

إذا كانت الرغبة في حشد الأتباع الجدد، أو جلب رعايا جدد للرب، تمثّل روح بعض الأديان، فإنّ بعض الشعوب، وبطريقة مختلفة في حلّ المسائل المستجدّة، كانت غيورة على آلهتها وعلى العبادات التي تُقام لها، ولم تكن تريد أبدا – أو على الأقلّ تجد صعوبة- أن تتشارك فيها مع الغرباء. تلك هي روح الدين التي كانت للرومانيّين أنفسهم الذين لم يسمحوا، حتى للشعوب المتحالفة معهم وأصدقائهم المبجّلين، أن يقدّموا الهدايا لجوبيتير كابيتولينوسJUPITER CAPITOLIN

وإنّنا لسوف نجد نفس الروح الإقصائية عند البراهمة في إندونيسيا، فهؤلاء يعتبرون أنّ الغرباء غير جديرين بعبادة آلهتهم وبأن يشاركوهم نعمها. ومن هنا نرى كيف أن من لم يجعلهم الدين متعصّبين ومتغطرسين فإنّهم يصبحوا على الأقلّ متعالين غيورين ومتعجرفين. مهما كان التنوّع في الأديان، فلقد كان لكلّ دين، مثلما قدّمنا الدليل على ذلك، أحد الأرباب القساة الذي جعل كهنته المهتمّين بجعل البشر الفانين يرتجفون عبادته مرعبة وبغيضة؛ لقد قدّم الفينيقيّون والصوريون والقرطاجيون أبنائهم فلذات أكبادهم وليمة لربّهم. والنساء، وقد أقسى الدين قلوبهم، قهروا عاطفة الأمومة فيهم؛ يحضرون هاته الذبائح المروّعة محمولات على مشاهدتها بعيون غير دامعة .لقد كانت تسمع دون أن تتأثّر صراخ هؤلاء الضحايا الذين انتزعوا من أثدائهم.

إنّنا نرى تقريبا في كلّ مكان كيف يتحوّل كهنة المذابح البشعين إلى جلاّدين، يتسلّحون بسكّين مقدّس وينظرون بعين الفضول إلى أحشاء الانسان المرتجفة. فعوض أن ينبّهوا الشعوب من هذه الشعائر البغيضة، قد جعلوا همّهم في أن يُبقوهم في وحشيّة قاتمة وفي جعل الدين مروّع. تبرهن لنا عقيدة ديانا Diane، التي تطلب الأضاحي الآدمية، بأنّ دين الاغريقيين الذي نعتبره عامة مليء بالبهجة كان عنيف ودمويّ على الأقلّ في بداياته[1]. نجد أن الرومان قد أحرقوا البشر في بدايات الجمهوريّة. وكلّ منّا يعرف أن قتال المصارعين كانت من العادات المقدّسة. وإذا ما هجرت هاته الأمم فيما بعد تلك العادات المقيتة، فلأنّ العقل قد حمل شيئا فشيئا الدين على أن يكون أكثر ليونة. إنّ الناس، مثلما كرّرنا ذلك عديد المرّات، قد نهلوا جميعهم من رحم المآسي تصوّراتهم عن الربوبيّة؛ لقد كان لابدّ من عهود الازدهار أو التقدّم البطيء للعقل البشري لكي

[1] لقد كتب لوكريشيا Lucrèce فيما يخصّ هذه الفظاعات الدينية قائلا :وحده الدين من يستطيع أن يأتي بالشر !
إنّنا على الأقلّ متيقّنين بأنّ الطقوس الدينية الوحشية والفظيعة كانت تُقام في قدّاس الوثنيّة التي تُسمّى القدّاس المروّعة. كان القاضي مضطرّا على إبطالها. وإنّنا لسوف نلاحظ أن القدّاس كانت حماقات بريئة طالما كان القاضي يرأسها، ولكنّها تصبح فظيعة ومقيتة عندما تكون تحت اشراف الكهنة.

يجعلها أكثر لطفا وأقلّ تديّنا؛ لكن المآسي المستجدّة تحيي فيهم غالبا الأفكار السوداوية التي كانوا قد أنشئوها عن الدين.

لا يمكننا التكهّن بأن تكون الديانات، التي شوّهتها مثل هاته الفظاعات المماثلة والقائمة على ربوبيّة شديدة الفظاظة والهمجية والتي تُحييها العروض المقرفة، إنسانية وغفورة متسامحة؛ حالما يتهيّأ لنا خدمة رب عتيّ فلابدّ أن نتشبّه به ولابدّ أن نخدمه بما يشتهي هو، لابدّ أن نقدّم له القرابين من البشر بل وأن نقدّم أنفسنا قربانا له.

تفترض أضاحي إبراهيم ويفتاح (أو جيبتا. المترجم) وإله المسيحيّين والمجازر المرعبة للأمم الكنعانيّة، مثلما ذكرنا، رب متعطّش للدماء، شديد القسوة والعداوة لبني البشر، ولعلّه أشدّ وحشيّة حتى من آلهة الإغريق الشرسين وآلهة الفينيقيّين والمكسيكيّين. لا يوجد من المسيحيّين من لا ترتعد فرائسه عندما نحدّثه عن العبادة الفظيعة لهؤلاء، ولا يسعى في تبرئة ربه من الأفعال البغيضة التي أمر بها عديد المرّات.

يكون الناس في كلّ مرّة يتعلّق فيها الأمر بالدين عميانا إلى درجة أنهم لا يلحظون أن الأحكام التي يطلقونها على تصرّف الآخرين تنطبق عليهم أيضا. يدين المسيحي اليوم آلهة الوثنية الهمجيّة في العصور القديمة والأضاحي التي تُقام لهم، ويستنكر فعل الكهنة الحقيرين الذين يحرقون البشر ويحكمون الشعوب بالنذور المروعة التي ترتجف لها

فطرتهم السليمة؛ ولكن، ألا يدرك أنّه لنفس تلك الأسباب عليه أن يدين ربه الذي يقدّم له كهنة حقيرين أيضا المهرطقين قرابين، والذي باسمه ينادي هؤلاء الكهنة أنفسهم بالحرب والتقتيل، والذي يعتقد الملوك أنهم يخدمونه بتعذيبهم لرعاياهم؟

والمسيحي، الذي يتجرّأ ويلوم المسلم على حماسته المدمّرة عندما يراه يجتاح آسيا وأفريقيا حاملا القرآن بيد ويحمل باليد الأخرى السيف، أله الشجاعة أن يلوم موسى ويشوع هذا وجدعون الذين يذهبون باسم يهوذا ينهبون ويدمّرون الأمم؟ أيوجد في الديانات القديمة أو الحديثة إلها قُدّمت له على مرّ الأزمان العدد الكبير من الأضاحي الآدمية أكثر من إله اليهود والمسيحيّين؟ وإله المكسيك نفسه، أكان يقع تكريمه بالأضاحي الأكثر فظاعة من تلك التي تقدّمها شعوب أوروبا التي تقسّمها منذ قرون الصراعات الدينية بين الباباوات والأباطرة[1]؟

---

[1] كم من الملايين من البشر الذين وقع ذبحهم في أوروبا حتى بعد الإصلاح! كم كلّفت الكنيسة الرومانيّة لفرنسا من الدم! لم يكن الفرنسيّين جيراننا، رغم خفّة طبعهم ولباقتهم التي يتفاخرون بها، أقلّ فظاظة ولا أقلّ تعنّتا من الوحوش الضارية كلّما تعلّق الأمر بالدين. إن الطريقة التي تعاملوا بها مع البروتستانت تقيم لنا الدليل أنهم لا يزالوا متعصّبين مثلما كانوا زمن الحروب الدّينية. لم يكن للحرب الشهيرة بحرب الثلاثين عام في ألمانيا، والتي انتهت بصلح ويستفاليا، من سبب وذريعة سوى

كلّ انسان يعذر لربه أو لكهنته الأفعال الأكثر قتامة ويفترض أنهم وحدهم من يحقّ لهم ارتكاب الجرائم. تلك هي عواقب الضلال الديني، إنّه يعطّل لدى الناس استعمال حسن تقديرهم، ويمنعهم من تبيّن الخزي والبشاعة والقبح في دياناتهم وفي عاداتهم وحتى في الأمور التي تجري أمام أعينهم والتي سينتفضون عليها لو أنهم لم يكونوا مخدوعين بوصومهم وإجحافهم.

مثل هذا المتفرّج ترقّ مشاعره إلى حدّ البكاء أو يستشيط استنكار واستياء وغيظا عندما يشاهد على المسرح لوحة تصوّر تداعيات التعصّب في مأساة إيفيجينيا *، إنّه يكره الدجّال كالخاس عند رؤيته يستخدم اسم الآلهة لكي يدفع أبا حنون للموافقة على الافتداء المخزي بابنته العزيزة على قلبه: يتجاهل هذا المتفرّج نفس الجرائم في ذبح إسحاق الذي أمر به ربه وفي صلب عيسى المسيح التي أمر به نفس هذا الإله. إنّه لا ينتبه أبدا إلى أنّه لا توجد مأساة تعرض الجرائم الأعظم من الجرائم التي تنسبها

الحميّة الدّينية التي تميّز بها طموح آل بيت النمسا الذين جمعتهم المصالح مع الكهنة والرهبان ضدّ رعيّتهم ورعيّة جيرانهم.

* راجع: مسرحيات أيسخولوس، تأليف؛ أيسخولوس؛ جمع وترجمة؛ أمين سلامة، مؤسسة هنداوي للنشر. 1979، مسرحيّة أجاممنون (المترجم)

** راجع: سفر يهوديت (المترجم)

كتبه المقدّسة إلى موسى ويوشع وصاموئيل وداوود ويهوديت** إلخ. هل يغيّر الدين من جوهر الأشياء؟ هل تسقط الجرائم بتغيير الأسماء؟ ألا ينسف مجرّد الافتراض بأنّ الرب قد كان له أن أوصى بخزي والعار فكرة الرب نفسها؟

ورغم ذلك كانت كلّ الآلهة دائما مرسومة بملامح بشعة؛ فلقد كانت العبادات كئيبة قاتمة وغير إنسانية، وكلّ الأديان كانت قد جعلت الناس حزانى وانطوائيّين وبالرعب كان الكهنة كلّهم قد حكموا وبالقسوة والإجرام. كلّما كان لوزراء السماء المصداقية والسلطان كلّما كانت الشعوب حمقاء وغبيّة الحظوة. أينما يكون الكهنوت هو الحاكم بأمره تكون الشعوب والحكّام متعصّبين غير متسامحين؛ فنجد حريّة التفكير محظورة والعقل مكظوم والعلوم محجّرة وتقهر النّذور أحاسيس الفطرة السليمة وخير الدول وصالحها.

ليست الأمم، التي تتفاخر بأنّها تنعم بعطف ربها والتي تمنح النفوذ الأكبر لكهنتها، عادة الأكثر ثراء ولا الأكثر سكّانا وليست الأكثر قوّة ولا الأكثر يسرا. في تلك الأقاليم أين يكون الكاهن المتغطرس والراهب المتنسّك العديم الفائدة وحدهم المترَفين والمُكافئين والمُعتبَرين، نجد باقي الأهالي تقبع في الفتور والخمول والبؤس، ذابلين في وهن يخدّرهم ويقطع عنهم حتى الإحساس بالألم. يستحوذ القنوط على النفوس؛ فتُذَلّ أطفال

الحريّة وأحبّتها من المهارات والحرف والصنائع والعلوم وتنحطّ، أو لا يكون لديها من دافع سوى ما تمدّهم به النّذور[1].

تلقى الفلاحة والتجارة والصناعة العراقيل المتواصلة، والدولة غارقة في ركود مميت .الشعب يسلّم نفسه بكلّ ورع وتقوى للكسل ويُهيّأ إليه أنّه محظوظ جدّا بأن حاز على الإيمان الصادق وأنّه الشعب المختار من ربه. الحاكم نفسه فقير ومعتوه والمحارب الذي يغدق دمه في المعارك دفاعا عن الوطن يصعب عليه أن يرى الكاهن الذي يكتفي برفع يديه إلى السماء للدعاء أو المتعصّب الذي يعكّر صفو المجتمع يكافئون أحسن منه.

---

[1] منذ خمسة عشر قرن لا نرى في أوروبا من المعالم سوى الكنائس التي تخلوا من الذوق تزيّنها الرسومات البشعة والمقرفة؛ والدير المزوّدة بما يكفي من المؤونة لإطعام الرهبان الكسالى، جامعات قد جُعِلت فاحشة الثراء لكي تُفرّخ الكهنة والمُتنذّرين. لقد وجدوا سرّ تشييد الكاتدرائيات والمعابد المكلفة في الأزمان التي كانت فيها الشعوب فقيرة. لقد كان الاعتناء بالربوبية دائما الشأن الأكثر اعتبارا في نفقات الأمم. إنها الملايين التي يمتلكها في إيطاليا، في البرتغال، في فرنسا، في المانيا من هم غير ذي نفع وأشدّ الناس شرّا! وجزيرتنا نفسها، أليس ينخرها هذا الجراد؟ كم من الأمم كانت ستصبح مزدهرة لو أنّها اعتمدت في بناء القساطل والقنوات، في الفلاحة وفي تحسين الحرف المفيدة، الأموال التي أنفقتها هباء لإعالة أناس متفرّغين oisifs وفي تشييد الكنائس الفخمة وفي التسديد للاّهوتيّين وفي إثراء الكهنة والرهبان! وإنّه لمن المؤكّد أن الكنيسة الكاتدرائية في توليدو (طليطلة) Tolède تمتلك كنز يقدّر خمسمئة ألف ليرة إسترليني. و لنقل أنّ سيّدة لوريتو هي أيضا أكثر ثراء

هكذا وبمقتضى ما يتبع لزوما التعصّب والاضطهاد والاستبداد الديني والدنيوي، فإنّنا نرى أمما كانت فيها مضى محترَمة ومزدهرة تقريبا قد سُحقت بالكامل وأُقفرت وأصابها الخمول. فأقاليم أوروبا التي يبدوا أن الطبيعة ضد حبتها بالخيرات مجدبة وذابلة تقبع تحت الفقر وتأنّ تحت ثُنائي من الاستبداد ويعزّ عليها وبكلّ جبن النير المسلّط عليها من الدين الذي ينخرها.

إنّه هو في واقع الأمر، إذا جاز القول، من قضى على جنوب أوروبا التي كانت أكثر تنذُّرا من الشمال؛ فأحفاد الرومان الذين وقع إذلالهم والإيبريّين المتباهين هم اليوم عبيدا لا طاقة لهم ولا نشاط ولا آداب. أينما كان الكهنوت هو الحاكم بأمره، تضلّ الأراضي والنفوس دون غرس والأخلاق الحميدة متروكة والحريّة والعلوم محظورة والصناعة مُعطّلة، وعصب الدول يخور وتسقط الأمّة في الانحطاط، فالكلّ محمول على الاستسلام للنّذور القاهرة وللجهل المدقع المتغلغل وللوصوم التي لا تُقهر والاستبداد المدمّر والكسل الذي نُصِّبَ فضيلة من الفضائل.

وبغضّ النظر عن الحلف القائم على الدوام، مثلما بيّننا، بين الاستبداد والنذور، فإنّ الطغيان السياسي ضروري للطغيان الديني؛ يدمّر الأوّل رخاء الشعوب ويدفعهم إلى أن يصبحوا متنذّرين، ذلك أنّ الأمم السعيدة والميسورة، الأمم الحرّة والمتعلّمة والمتنوّرة تتجاهل الكهنة

وشعائرهم لتنشغل بالأمور النافعة. على شعب تعيس يكون للدين سلطان أعظم؛ فالكهنوت على يقين دائم أنّ المحن والويلات تأتي بالعبيد تجثوا تحت أقدامه وأنّ الخير يجعلهم جريئين ومتمرّدين على أحكامه وهكذا فإنّ الاستبداد والنّذور يمدّون يد العون لبعضهم البعض، يتوحّدون لتدمير كلّ شيء، التعصّب يخدمهم ولا يقوى هناء الشعوب ورخائها على صدّ مساعيهم المجتمعة.

يكفينا ما أتينا على ذكره لكي نبيّن أنّ كلّ ديانة هي في جوهرها متعصّبة بأصولها ومبادئها وغاياتها؛ وبالتالي بقدر ما سوف ننظر للعبادة على أنّها الشأن الأهمّ، بقدر ما سوف نضحّي بكلّ شيء حتى بنماء ومناعة الدول وأمنها. سوف تغلب الحميّة والتعلّق بالدين على أحكام العقل والكياسة. عندما تصبح الشعوب مسالمة ومتسامحة فلن تدين براحتها المؤقّتة إلاّ إلى حسن لامبالاتها أو إلى مشاغلهم الحاضرة التي ستجعلهم يتغاضون عن المبادئ والأصول الخليقة بأن تجعلهم قساة ووحشيّين. سوف تنتصر إذا، إلى حين، مشاغل هذه الحياة الدنيا على فضائع الآلهة وأهوالها؛ سوف يكون كهنتها محمولين على كبح أنفسهم ولجمها أو على ألا يتفوّهون بمقولات مناهضة للخير العام؛ سوف تستطيع الدولة أن تنعم بسلام عابر إلى أن تستعيد الرجعية، المنبعثة من رمادها، قواها الجديدة، أو تلائمها الظروف فتقيم أتانين جديدة. لا

يملك الكاهن أن يكون عفوًا إلاّ عندما لا يُسمحُ له بالقهر؛ وكلّما أحسّ في نفسه القوّة لا يتهاون أبدا في الإكراه أو أنّه سوف يجد أنّ الجرم لا مفرّ منه للتغطية على الدجل والخداع[1].

تلك هي المزايا المشؤومة التي منحها الدين ولسوف يمنحها دوما للحكومات وللآداب التي يتبجّح بأنّه يحفظها؛ وليس لغير الطغاة مفيد لبرهة من الزمن، يلحق الدين الأذى بالملوك الأخيار وبالأمم، قلق ومضطرب يخلق على الدوام الخلافات والنزاعات، متغطرس ومتعجرف مزهوّ يرى في الاحتكام إلى العقل الرشيد جريمة. سوف يكون أتباعه، وهم في غيّهم يعمهون، متهيّئين دائما لأن يتقاتلوا دون أن يعرفوا السبب.

---

(1) يعلن العديد من اللاهوتيين لدينا في كتاباتهم، منذ زمن غير بعيد، أنهم يناصرون التسامح. أنا لا أتّهمهم بالنفاق، أو أقول أنّهم يتودّدون، ولكنّي أتّهمهم بالتناقض. إن المسيحي المتسامح هو الإنسان الذي يتخلّى عن مبادئه؛ والكاهن المتسامح هو الإنسان الذي يتخلّى على مصالحه وهو الذي يخون منظّمته. ليس علينا، لكي نقتنع بهذه الحقيقة، سوى أن ننتبه إلى صرخات الشجب التي أثارتها كتابات العلاّمة الدكتور هادلي لدى زملائه من رجال الدين. لقد أعلن القدّيس أوغسطينوس نفسه مناصرا للتسامح ولكنّه سرعان ما غيّر رأيه. تُعتبر حريّة الضمير بند أساسي في الديانة البروتستانتيّة، ولكن كهنتنا البروتستانتيين سوف يضطهدون ويحرقون عن طيب خاطر كلّ أولئك الذين بدوا لهم بعد البحث والنظر أنّهم لا يفكّرون مثلما يفكّرون.

وكهنته، وهم في تناقض دائم مع أنفسهم لا يتّبعون سوى مصالحهم الحاليّة، يدعون للتسامح تارة وللإكراه تارة أخرى، للطاعة أو للتمرّد، إلى اللّطف واللّين أو الاغتيال. ولكنّ مبادئه نفسها مُخرّبة هدّامة؛ فهي لا تصلح سوى لشحن النفوس وتهييجها وإثارة الفوضى؛ سوف يكون الدين على الدوام قاس لا يرحم، لا يقدر أن يصفح بصدق النوايا عن أعدائه؛ فإذا ما أقام الهدنة معهم فسوف يرى في نقضها فريضة كلّما سنحت له الفرصة لذلك، والربوبية سوف تسوّغ دائما خروقاته وجرائمه وتباركها.

ما حكم العقل والسياسة الحكيمة، بعد كلّ هذا، في حقيقة المحاسن والمزايا التي يمكن أن تنتج عن النظم الدينية؟ أصحيح حقّا أن الدين أو وصومه المقدّسة ضروريّان لحكم الشعوب؟ هل من المفيد التغرير بهم وتضليلهم واخفاء الحقيقة عنهم؟ هل من الخطر عليهم صحوتهم وتنبيههم وتحذيرهم من هاته الأوهام التي هي مصدر الجرائم والصراعات والفظاعات؟ هل سيشقون إذا ما حُرِّروا من أغلال هؤلاء الكهنة الذين يستعبدونهم تحت ثنائي من النير كلاهما مضني؟

سوف يعترف الأشخاص ذوي الإيمان الصادق، بدون شكّ، بحقيقة الجدول الذي أتينا على رسمه، سوف يقرّون بأنّ كلّ الأديان المبتدعة حتى وقتنا الحاضر والقائمة إلى اليوم هي غير نافعة وخطرة.

ولكن ربّما سوف يُطلب منّا هل يستطيع الدين، وهو الذي له التأثير الجليّ على الناس والقدرة على إفسادهم، وإذا كان في أيادي بارعة، أن يكون دافعا قويّ ليحملهم على أن يكون فضلاء خيّرين. سوف يتساءل الناس هل سيعجز مشرّع، أمين شريف وأكثر تنوّرا من أولئك الذين أتوا بالعبادات للأمم والقائمة إلى يومنا هذا، على إدراج إله مُتشكّل على شاكلة رجل خيّر وصالح حقيقة، منصف وينبع حكمة. وخلاصة القول، سوف الناس هل سيكون بالإمكان أن يُقدَّم للبشر الفانين دينا نافع عن حقّ، قادر على جعلهم طيّبين ومنصفين، مسالمين وأخيارا؟

لقد أجبنا على آنفا على هذا السؤال[1]. لقد أتينا على تبيين أنّه إذا افترضنا وجود إله ساخط هو الذي خلق كلّ شيء، فإنّه من المحال أن نحمل عليه البرّ والإحسان، الحكمة والإنصاف والبصيرة التي لا تخطأ أبدا. وبالتالي لن يكون هذا الإله للبشر أبدا نموذجا يُحتذى به. سوف نضيف أيضا على هاته الإجابة قائلين بأن كلّ دين لابدّ أن يكون قائما لزوما على إله يتضايق، يغضب ويستكين؛ في واقع الامر، إذا لم يكن تارة ساخط وتارة أخرى منعم ميمون، فماهي الروابط التي من المفترض أن تجمعه مع البشر؟ ماذا سيكون نفع الصلوات والعبادات والأضاحي

[1] الفصل الخامس من الكتاب الأوّل.

والكهنة في دين سيعتقد في وجود إله منعم منّان على الدوام؟ فلابدّ إذا من إله يغضب في كلّ الأديان، ويجب أن نجد الوسيلة في استرضائه لكي نحمله على اللّطف والكرم. وبناء عليه، فإنّ شدّته لن تحقّ سوى على الخيِّر من الناس التي ستشغل باله، بينما سيَطمئنُّ بلطفه الشرّير الذي سوف يأمل دائما في استرضائه بسهولة. لا يمكن أن يكون للدين أبدا، الذي هو من عمل الخيال، مبادئ ثابتة وأكيدة، وسوف يهدم دائما بيد ما ستبنيه اليد الأخرى؛ سوف تقضي الكفّارات على مفعول الخشية التي يمكن أن تُنشئها فكرة الإله ذي البأس الشديد في القلوب.

علاوة على ذلك، فإنّ جهل الناس الدائم بالجوهر الإلاهي سوف يجعل من الربوبية بروتيوس* حقيقي تتنوّع رؤية الناس لها ويرسم ملامحها كلّ انسان على طريقته الخاصّة؛ سوف يفرّخ هذا الكائن الجائر لزوما الخلافات والضغائن بين أولئك الذين يهتمّون لأمرها، خصوصا بسبب ما يولون لآرائهم من أهميّة. وحتى أولئك الذين يأتون للناس بهذا الإله والذين ينصّبون أنفسهم مفسّرين ومترجمين لمشيئته السماوية، هل سيكونون مرّة مُتّفقين فيما بينهم؟ ألا نرى أنّ خيالاتهم لا تفعل سوى أن تُفرّقهم وتشقّ صفوفهم؟ أليس من الجنون أن تصطفّ الأمم معهم في خلافاتهم دون حتى أن تفهم شيئا؟ أليس وزراء الربوبية مفوّضين في كلّ البلدان لكي يقلقوا ضمائر الناس ويؤجّجون كلّ

الأوضاع؟ حالما نعتقد في وجود رب سريع الغضب، فلابدّ لنا من العبادة ومن التكفير، لابدّ من وجود الكهنة ومن مفكّرين ينشغلون به ويتدبّرون في أمره ويحدّثون الآخرين عنه؛ وبما أنّ الناس دائما هي الناس، فسوف يخدعون أنفسهم أو يخدعون غيرهم، سوف تكون لهم الأهواء والمصالح والمشاغل والحماقات، وأولئك الذين يتّخذونهم مرشدين، وهم معتقدين أنهم يرضون بذلك ربهم، لن يكونوا سوى مطايا لحماقات أو لخدائع كهنته.

وفي نهاية المطاف، فإنّ كلّ دين متأسّس على نبوءة هو عبارة عن دين متأسّس على أكذوبة ولن يبقى متماسك إلاّ بالكذب والاكراه. وأولئك الذين يخدعون الناس، لن يكون لهم أبدا وهم أنفسهم أشرارا أن يجعلوهم طيّبين، أخيارا وشرفاء. فمن أهمّ غايات الدجّالين هو أن يجعلوا الناس مرنين ومعتوهين، وليس لغير العقل والحقيقة من يقدر على جعلهم سعداء ثابتين في سعادتهم؛ فإذا كان في الكذب منفعة لهم، فلن تدوم هذه المنفعة سوى لحظات عابرة. سوف يحصدون العواصف عاجلا ام آجلا أولئك الذين يزرعون الريح[1].

[1] سفر هوشع، الإصحاح الثامن، آية 7.
"«إِنَّهُمْ يَزْرَعُونَ الرِّيحَ وَيَحْصُدُونَ الزَّوْبَعَةَ. زَرْعٌ لَيْسَ لَهُ غَلَّةٌ لاَ يَصْنَعُ دَقِيقًا. وَإِنْ صَنَعَ، فَالْغُرَبَاءُ تَبْتَلِعُهُ.». (المترجم)

وإذا ما يحدّثونا عن الدين الطبيعي الذي يمدح كثير من عامة الناس منافعه، فسنقول بأنّه لا وجود أبدا لدين طبيعي، وبأنّ الطبيعة لا تخبرنا شيئا لا عن الروابط التي تجمعها بكائنات الجنس البشري ولا عن وسائل ارضائه. خلاصة القول، إنّ الطبيعة لا تستطيع البتّة أن تكشف لنا عن أيّ نظام دينيّ، ولا تستطيع الخبرة والعقل أن ينتجوا لنا أحد النّظم؛ فكلّ دين هو في جوهره متناقض مع الطبيعة ومع نفسه.

* بروتيوس هو إله البحر والأنهار في المعتقدات الإغريقية، له القدرة على التحوّل وتغيير شكله. (المترجم)

الفصل العاشر

في تأثير الدين على الأخلاق
لا يمكن للأخلاق أن تتأسّس على الدين

إذا كان الدين، كما أتينا على تبيانه، لا يستطيع بحكم مبادئه نفسها وبحكم تبعاتها اللاّزمة لها، أن يكون نافع بل هو ضارّ بالسياسة الحكيمة وأنّه ينزع عاجلا أم آجلا إلى القضاء أمن الدول وراحتها، فإنّه من الجليّ أنّنا نخطأ حين نمدح مزاياه على الأخلاق التي ندّعي أنّه يشدّها ويدعمها. إنّ ما يؤذي المجتمع لا يمكن أن يكون مفيدا للأعضاء الذين يكوّنونه، وما يتقاطع مع غايات كلّ حكم رشيد لا يمكن أن ينفع في شيء الرعيّة التي عليه أن يحميها ويجعلها تعيش في سلام ووئام؛ فمن يقصي الوفاق بين الأمم ومن يجعل الإنسان عدوّ لأخيه الإنسان ومن زرع الفتنة والشقاق بين الحاكم ورعيّته ومن يحكم دون هوادة قبضته على الأهالي و ما يتهيّأ في أذهان الناس بشتّى الأشكال، لا يمكن أن يكون أبدا أساس للأخلاق وقوامها، الأخلاق التي ليس لها من هدف لا يتغيّر سوى تقريب البشر لبعضهم وخلق الألفة بينهم والدمج بين غاياتهم والهامهم العدل والإنسانيّة وتوحيد مقاصدهم وجعلهم يعملون مجتمعين على الخير والنماء المشترك

تلك هي الدوافع والواجبات التي تأتي بها الأخلاق للناس؛ إذا ما دعّمها الدين وكان لها حصن منيع وجعلها مقدّسة، فمهما بدت إذا معتقداته غير مفهومة أكثر ممّا هي عليه، فيجب علينا ألاّ ننبذها أبدا بسبب ذلك. سوف يكون هناك التزّمت والحماسة اللّذان يعزمان على مهاجمة الأخلاق إذا ما أسهمت فعليّا في تحسين حال الناس، وسوف تكون محاولة القضاء عليها بمثابة التآمر على المجتمع بأكمله. ولكن هل يجب علينا أن نراعي نظم الآثام والوصوم التي تمنع مبادئها الأوليّة استعمال العقل وابصار الحقيقة، وتدعوا لأن نكره أنفسنا ونبغض كلّ أولئك الذين لا يرون مثلما نرى الأوهام والسراب، وتثملُ البشر الفانين بالآمال السخيفة وبالمخاوف المثبّطة دون أن تجعلهم فاضلين وأبرارا؟ أليس مسموحا لكلّ من يهتمّ من الناس لسعادة بني جلدته ويستشعر بها يدينه للجنس البشري بأن يقارع الأشباح التي أُستخدِمت كذريعة لأهواء وبطش الطغاة والدجّالين، والمتعجرفين والمستكبرين، والبخلاء والمتزمّتين الذين يزعمون أنّهم يقودون الأمم والذين يظنّون أنّهم منوط بعهدتهم خداع عبيدهم وشقّ صفوفهم وجعلهم أشرارا وتعساء؟

إنّ من يستنهض بني جلدته ويدفعهم للصحوة وتنبيههم من هذا النظام المهلك، يكشف لهم بطلانه ويشعرهم بخطر مبادئه وعواقبها الوخيمة، يستبدله بالحقائق التي تنوّر الناس فتجعلهم أكثر إنسانيّة أكثر

رجاجة، لا يمكن للناس اعتباره مجرما أو منتهكا معتدي عدى أولئك الذين يجنون ثمار ضلال الجنس البشري.

وحتى لو نفترض، مثلما رأينا للتوّ، امكانيّة ابتداع دين يتوافق مع مصلحة الناس وما ينوط بعهدتهم، وبما أنّ هذا الدين سيكون دائما ولزوما قائما على الخيالات وعلى الخداع، فلابدّ أنّ يتحوّل إلى باطل وجدال وفظاعات، وأنّه سينتج عاجلا أم آجلا الغلوّ والحماقات على قدر ما ستوليه له الشعوب من أهميّة. وحتى وإن كان الجسم الكهنوتي سيتكوّن منذ بداية تشكّله من الناس الأكثر طيبة وفضيلة والأصدق نوايا، فلا بدّ لهذا الجسم المخوّل له حكم السذّج أن يستخدم الدين والربوبيّة في التشريع لأهوائه وبسط نفوذه، مضاعفة ثرواته وخدمة مآربه. وشيئا فشيئا سوف يقنع الكهنة أتباعهم بأنّه ليس هناك ما هو أهمّ من الاستسلام والتسليم الأعمى، ومن الاقتداء بالعقل وبالفطرة السليمة لأجل الربوبيّة التي لن تنطق أبدا إلاّ بما تقتضيه مصالح ومشاغل من إستنطقوها.

وبعد أن جعلوهم هكذا معتوهين، سيكون من السهل على الكهنة دفعهم لأكبر قدر من الجرائم والآثام أو جعلهم يخلّون بأقدس الفروض والواجبات لدى الإنسان بذريعة أنهم يمتثلون لمشيئة الرب. هكذا فإنّ كلّ دين سيزعم أنّه يدخل الإنسان في ملكوت الرب، فإنّه سوف يدخله

في واقع الأمر في حكم وطاعة الكهنة. كلّ دين سيعرض على الإنسان الإرادة الإلهية كقاعدة ومنهاجا لسلوكه، فلن يعرض عليه في واقع الأمر من قاعدة سوى رغبات النظام الكهنوتي الذي له وحده أن يكشف أحكام الربوبية وأن يفسّرها.

وهكذا فإنّ أُناس مهتمّين سيصبحون الحكّام الفاصلين في آداب وسلوك الشعوب وسوف يجعلونهم ظالمين وأشرارا عندما تقتضي مآربهم الحقيرة ذلك. لن تكون الأخلاق الدينيّة سوى أخلاق تلائم غايات الكهنوت، ولن يجد هذا الكهنوت ما هو أهمّ من تضليل الشعوب والتغرير بها من أجل جعلها تعمل بلا هوادة على إعلاء شأنه وذلك بأن يقنعها بأنّها ستتمّ بذلك جميع فروضها تجاه الرب.

لنرى أوّلا إذا كان بإمكاننا تأسيس أخلاقنا وضبط واجباتنا على السجيّة الأخلاقية للربوبيّة التي تُقدَّم لنا كنموذج. عل سنقول إن الرب خيّر؟ ولكنّه ليس كذلك البتّة إذا ما أخذنا في الاعتبار المآسي التي يبتلي بها الجنس البشري؛ فكرمه إذا لا يثبت ولا يدوم والرب متغيّر تتبدّل أحواله، غالبا ما ينسف بهذا الانسجام وهذا النظام البديع الذي نعجب به في الكون. إنّنا نسمّي استعداد الإنسان الدائم لفعل الخير لأمثاله بالطّيبة، وحالما يتغيّر هذا الاستعداد فيه أو حالما يفعل الشرّ فنحن نخلع عنه حسن تقديرنا له ونسمّيه بالشرّير. عل سنقول أنّ الربّ عادل؟

ولكن بالمثل لا يثبت هذا العدل والحال أنّ، وهو ما نحن مجبورين على الاعتراف به، الخير والعفة معدمان، والحال أنّ في هذا العالم الذي نعيش فيه يكون الأشخاص الأكثر صدقا وأمانة هم غالبا الأكثر شقاء وتعاسة. نحن نقول أنّ الانسان عادل عندما تكون له الإرادة الدائمة في ارجاع ما يعود لغيره من أمثاله وفي معاملتهم بما هم جديرين به؛ وهكذا حالما يعزّ الخير تحت حكم إله قدير، نكون محمولين على اتّهامه بالظلم، ولا يكون لنا مثالا للفضيلة التي نسمّيها "الإنصاف". وإذا ما قيل لنا بأنّ الرب لا يدين لمخلوقاته بشيء، فإنّنا نقضي بذلك على خصلته الأخلاقية، ولا يكون بعد ذلك مثالا للعدل، ولا يكون بعد ذلك طاغية متعجرف ومعتوه[1].

إذا ما أثّرت التأمّلات اللاّهوتيّة على الدوام في سلوك الناس، فلا شيء سيكون مدعاة لتدمير كلّ فكرة عن الفضيلة في أذهانهم أكثر من الخصال الخطيرة التي يعزيها كلّ دين في الأرض إلى الربوبية التي يرجع

[1] لقد شكّلت الفضيلة على أنّها شبيهة بالربوبية. أكان الوثنيّ، الذي سوف يقدّم له جوبيتير (المشتري. المترجم) على أنّه مثالا للفضيلة، فاضلا عن حقّ؟ أيكون لليهودي أو المسيحي، اللذان سوف يقتديان بإله التوراة، أيكونان لهم أخلاق نقيّة؟ ومع ذلك، فإنّه من الجليّ أن جوبيتير الوثنيّين كان إلها أقلّ شرّا من إله المسيحيّين؛ فإذا كانت سيرة الأوّل تدعوا للمجون، فإنّ سيرة الثاني تدعوا للتقتيل والاغتيالات. فالأوروبيون لم يجنوا شيئا بتغيير آلهة أسلافهم.

إليها. إنّ البشر الفانين، الذين أقاموا الاعتقاد في كمال ربّهم الذي لا تجب محاسبته أبدا عن تصرّفاته، والذي يجب الاقتداء به واتّباعه عن بعد، عليهم أن يسعوا في ارضائه بأن ينهجوا منهاجه في سلوكهم وتدبّرهم: ما الذي ينتج عن ذلك؟

إذا ما أُكِّد لي بأنّ الرب الذي أعبده غيور، منتقم حقود وسريع الانفعال، فبأيّ حق سيُقال لي بأنّه لا يجب أن أكون حسود وأن أمتنع عن الانتقام، وبأن أكبح غضبي وبأنّه من الأنسب لي أن أكتم الغيرة في قلبي؟ وإذا ما أُشير لي بالجسورين وبالمتحمّسين الشرسين وبالسفّاحين وبالمتمرّدين وبالغزاة وباللصوص وبقتلة أباءهم وبالزناة على أنّهم شخصيّات لطيفة ومحبوبة لهذا الإله، كائنات ملهمين بوحيه، وأناس خُلقت حسب قلبه؛ فكيف يمكن أن يُقال لي بعد ذلك بأنّه يجب أن أمنع نفسي عن أملاك غيري، بأن أحب وطني وأن أحترم القانون الأممي؟ إذا أقنعوني بأنّ الربوبية تطربها الهدايا، تطلب حصّة من أملاكي وبأنّها عبد للمصلحة الخسيسة، فكيف سيقدرون على إثبات أنّ الإيثار محمود؟ بأيّ حق تستطيع الوثنية التي يُعبَدُ فيها زحل الذي يخلع أباه وجوبيتر (المشتري) يصلم ويبتر أباه والذي ملأ الدنيا بزناه وفجوره؛ بأيّ حق، لأقولها، يستطيع مثل هذا الدين أن يوصي ببرّ الوالدين وبالحشمة في الآداب؟ وإذا ما زعمنا أن الرب الخبيث والمغوي، الذي يعبده المسيحي،

يطيب له أن ينصب المصائد لمخلوقاته الضعيفة، ألا يجب علينا أن نستخلص أنّ الخيانة والغدر والخداع مسموح بهم وأنّ الزيف تباركه الربوبية؟ وإذا ما أكّدوا لنا أنّ هذا الرب الخطر يستاء من أفكار وأقوال وأفعال الناس وإهمالهم، ألا يجب علينا أن نستخلص أنّ لا شيء يعفينا من أن نشارك مشاعرنا وأنّه لكي نكسب رضاه لابدّ علينا أن نغمس سكّينا في صدر كلّ من ينتهك حرمته؟ بمقتضى هاته الأفكار المشؤومة يصبح كلّ بشر لزوما عدوّ لأخيه البشر: وعلى كلّ أمّة أن تدمّر وتقاتل وتزعج كلّ الأمم التي يستاء منها ربّها، فمجتمع الجنس البشري ووحدة العائلات والأسر سوف يكونان في حالة اضطراب وارتباك ولابدّ لأواصر الوطن والدم والمودّة أن تنحلّ في كلّ لحظة وتنقطع.

لقد شكّلت مختلف الديانات في العالم الأفكار البشعة والمبهمة والسخيفة حول الربوبية، ويمكن أن نعزو هاته الأفكار إلى الجهل والارتياب الدائم الذي يتملّك الناس فيما يخصّ الواجبات الأخلاقية. فبتأسيس هاته الأخلاق على القوى الغيبية التي غالبا ما يعاني الجنس البشري من حيفها، وبتشييدها على الكشوفات العجيبة وعلى النبوءات الغير مفهومة وعلى التعاليم الربّانية المتناقضة باستمرار والمدمّرة للمجتمعات، عوض أن يحصّن مرشدونا الروحيّين الأخلاق والقيم فقد نسفوا كلّ أركانها.

لا يعرف المتنذّر أبدا ما الذي يرجع إليه: إن الرب، الذي يقدّم له على أنّه أقسى الطّغاة واعتاهم، على أنه كائن ماكر مستبدّ ومتعجرف معتوه، يأمره بالطّيبة والإنسانية والصدق: ونفس الرب الذي يحرّم عليه أن يسرق، يأمره أن ينهب المصري بالغش وأن يستحوذ على بلاد جيرانه: ونفس الرب يوصيه باللطف واللّين ويلهمه الحمّية والتعصّب والغضب.

إذا ما أردنا الرجوع إلى المصدر الحقيقي لفساد الآداب لدى العدد الأكبر نت الشعوب، سوف نجد أن الأمر يعود إلى التصوّرات اللعين، التي مدّهم بها الدين حول الربوبية التي يدينون به. إذا ما وجدنا ما وجدنا لدى أمّة بعض العادات اللاّإنسانية والبغيضة والمفزعة، فسوف لن ننخدع إذا ما رجّحنا بأن النُّذر هي التي جعلتهم في الأصل يعتمدونها. فمن أجل إرضاء ربّه ضحّى الفينيقيّ الفاسدة سليقته بأبنائه، ومن أجل إطفاء غيرة ربه حمل اليهودي بحميّته الحديد والنار لأعدائه، ومن أجل إشباع نزوة ربها الشبقيّ ذهبت المرأة البابلية للبغاء في معبده، وبنيّة خدمة خصلة الحقد والنقمة لدى ربه ارتأى للمسيحيّ منذ قرون عديدة أن من واجبه أن يعذّب ويقلق ويُفزع ويحرق كلّ من يظنّ أنّهم أعدائه. من أجل إشباع جوع صنمه العتي يحرق المكسيكي له سكان بلدة بأكملها وفي آن واحد.

يمثّل الدين عموما أساس كلّ العادات والأعراف المرعبة، الأكثر غرابة والأشدّ تعارضا مع الطبيعة؛ فللدين وحده القوّة على كتم المشاعر الفطرية في قلوب أمّة بأكملها، على تحويل الناس إلى وحوش ضارية ومعتوهة[1]. إنّ الاخلاق، التي ليس من غاية سوى خير الناس ولا تحتوي على غير العدالة والألفة، محمولة على أن تختفي في حضور إله شديد البأس عتيّ وأسمى من الفطرة والعقل، والذي لا يمكن أن تُناقَش أوامره. ليس لنا سوى أن نكون لاإنسانيّين ظالمين ومخادعين وذوي النيّة السيّئة تحت حكم الربوبية التي نعزو إليها هاته الشيم والسجايا البشعة؛ لن تتوافق أيّ أخلاق مع أيّ دين سوف تتّخذه أسوة. فإذا وجدت فضائل لدى الناس المتشبّعين بتلك التصوّرات المرعبة، فذلك لأنّ جبلّتهم تحملهم في كلّ حين على أن يتغاضوا عن أسوتهم البذيئة وتقهر بداخلهم البشاعة التي يتحلّى بها ربهم. إذا ما أمر هذا الرب

[1] في جزيرة فرموسا يأمر الدين النساء، اللاّتي تحبلن قبل سنّ معيّنة، بأن يجثون على ركابهنّ تحت أقدام الكاهنة. يريد الدين لدى البجا (أو البجّة)، شعب أفريقي، من المحاربين، لكي يصبحوا لا يقهرون، أن يطلوا أجسامهم بشحم أبنائهم المطحونين في مجشّة. يقضي الدين في كامل إندونيسيا تقريبا بأن النساء أنفسهنّ فوق جثث أزواجهنّ. وفي ساحل كوروماندیل، يريد الدين أن يفتضّ الوثن بكارة البنات. وفي البلدان الكاثوليكية الرومانية يطالب الدين من الفتيات التعيسات أن تقبع طوال حياتهنّ في الحزن والأغلال.

المتقلّب بالإثم تارة وبالخير تارة أخرى، فإنّ أخلاقه تصبح مشبوهة لدى من يعبدونه؛ كلّ واحد منهم سوف يتّخذُ لنفسه نظام سلوك لا يتقيّد فيه بقاعدة غير مزاجه الخاص. وبالتالي، سوف يكون هادئ أو مضطرب، انساني خيّر أو شرّير، ورع مندفع متهوّر أو ورع مسالم، عادل أو ظالم، صادق أمين أو متستّر مخادع؛ سوف يجد في ربه المقلّب وفي أحكامه المتضاربة الذرائع القويّة أيضا لكي يبرّر أي من السلوك. وبأمانة، كيف ستكون إذا الأخلاق التي ترتهن لنزوات كلّ انسان وغايته، والتي لن يكون لها من قاعدة سوى مزاجه أو تكوينه الخاصّ وسوى حركة الدم التي تسرع وتبطئ وسوى الأفكار الخاطئة أو الصحيحة التي أُلهِمت له؟

لكي تكون الأخلاق حقيقيّة عليها أن تكون هي نفسها وصالحة لكلّ الأفراد ولكلّ الأمم: عليها أن تتأسّس على الفطرة، على الاحتياجات والمتطلّبات، وعلى مشاغل واهتمامات كائنات السلالة البشرية التي تعيش في مجتمعات. إنّ الناس، التي نادرا ما تتّفق حول آلهتها وحول الخصال التي تنسبها لها وحول العبادات التي تقيمها لها، مجبرون على أن يتّفقوا في أمر المبادئ العامة للأخلاق. وإذا ما أخلّوا أحيانا بتلك المبادئ في سلوكهم، فإنّ مأتى ذلك أخطائهم ووصومهم وأهوائهم، ومأتاه أيضا فساد المؤسّسات الدينيّة والسياسيّة التي تصمّ آذانهم على سماع نداء الفطرة فيهم وتصدّهم عن معرفة ما يستوجب منهم العقل.

إنّ الأمم غارقة في الجهل بسبب الحكومات المتّفقة مع الكهنة، وهذا الجهل هو العائق الأعظم الذي على الأخلاق أن تزيحه؛ فالناس ليسوا سيّئين وأشرارا إلاّ لأنّهم جهلة، وليسوا جهلة تتحكّم فيهم الأهواء إلاّ لأنّ آلهتهم وحكّامهم، ومرشديهم الروحيّين والدنياويّين ومعلّميهم، الذين هم أنفسهم عميانا وأشرار، لا يفكّرون البتّة في تنويرهم وارشادهم على واجباتهم، في تنمية عقولهم وإلهامهم طعم الخير والفضيلة، وفي توعيتهم بالروابط التي تجمعهم بأمثالهم وفي جعلهم قادرين على شقّ الدرب الصحيح المؤدّي إلى السعادة الحقيقيّة.

إذا كان بإمكاننا أن نتصوّر ربّا نصير للجنس البشري على الدوام، بمعنى أنّه ثابت في كرمه وإنصافه وحكمته، وأنّ مشيئته وهداه لا يأمران من يعبدونه سوى بالأفعال الشريفة أو النافعة للمجتمع، وأنّ يتكلّم دائما المفسّرين لأحكامه لغة العقل والحكمة، وأنّ لا يأتي ممثّليه في الأرض إلاّ بما يعضد تعليماته بسلطة القانون؛ يمكن لمثل هذا الرب أن يكون أساسا للأخلاق، وستكون عبادته عزيزة وغالية على الناس، ولن تكون نبوءاته سوى قوانين الطبيعة وقد جُعِلت أكثر أصالة وأكثر قداسة، ولن يفعل الدين سوى أن يفعّل هاته القوانين ويرسمها بتعليماته للشعوب، والحكومة تدعوهم أو تجبرهم على الامتثال لها. ولكن ربُّ، يتمثّله كلّ إنسان وكلّ شعب بطريقتهما، لا يمكن أن يكون مقياس الفرائض

والواجبات لكلّ الجنس البشري، ومقاصده، التي تختلف تأويلاتها من منطقة إلى أخرى وتتعدّد وتتناقض في نفس الدين الواحد، لا يمكن أن تمدّنا بالقواعد الثابتة. وأخيرا، لا تعاليم المفسّرين الذين هم في خصام وجدال دائمين، ولا قوانين الحكّام الذين هم في أغلب الأحيان ظالمين ومتحيّزين، ولا العادات السخيفة للشعوب الجاهلة التي يساءُ حكمها، يمكنها أن تكون قواعدا حقيقيّة للآداب ولا يمكن أن تتوافق مع المصالح والغايات المشتركة لسكّان المعمورة.

لو أجوب الأرض سائلا كلّ واحدا من سكّانها عن فكرته عن الخير، عن العدالة، عن اللّين، عن الألفة، عن الإنسانية، عن الإيمان الصادق، عن الأمانة، عن الوفاء بالالتزامات، عن العرفان، عن برّ الوالدين، إلخ..، سوف تكون الإجابة واحدة، وكلٌّ منهم سوف يبارك هاته الخصال وسوف يمتدحها حكم عليها بأنّها ضروريّة. ولكن إذا سألته عمّا يفكّر بخصوص ربّه وعمّا تأمر أحكامه وعما يدرّسونه كهنته وما تقوله قوانينه وحكّامه وعمّا تطلبه منه العادات والتقاليد، سوف لن نتفاهم أبدا ومحال أن نتّفق حول أيّ شيء. لو توجّهت بالسؤال لبني إسرائيل، سوف يقولون لي بأنّه يجب أن يسرقوا ويبيدوا الوثنيّين الذين لعنهم ربهم؛ سوف يقول لي المسيحيّ المتحمّس بأنّ كلّ ما يوصي به ربه هو عدل وأنّ أحكامه لا يمكن البتّ فيها، ويجب أن تُقدَّس أوامره حتى وإن أمر بالإثم.

سوف يقول لي شعب متوحّش وغازي بأنّه يمكنه أن ينهب ويفتكّ بجيرانه دون خوف، وسوف يؤكّد لي شعب من التجّار أنّ كلّ شيء مباح من أجل ازدهار الدولة ونمائها، سوف يزعم الهمجي أن الانتقام مسموح به ويجب أن يكون انتقام وحشي، أمّا المواطن المتمدّن فسوف يدّعي أن الانتقام أو الثأر شرّ. سوف يقول لي الهندي أو الفرنسي بأنّ الزنا لا ضير فيه، أمّا الإسباني والعربي فسوف يقولون لي بأنّه جريمة نكراء، وسوف يزعم التتري الرحّال بأنّه يحقّ له أن يقتل أباه عندما لا يعود يصلح لشيء، والإسبرطي سوف يؤكّد أنّ خير الدولة وصالحها يقتضيان بأن يقتل أبنائه المشوّهين. وإذا ما رجعت إلى رعيّة مستبدّ، سوف يقولون لي بأنّ إرادته هي القانون وبأنّه عدل كلّ ما يأمر به ولا يمكن أن تكون طاعته جريمة.

ولو أسترشد بالعقل أخيرا، سأعلم ما يجب الأخذ به من كلّ هاته القرارات المتنافرة؛ سوف يخبرني بأنّ كلّ ما هو نافع على الدوام للجنس البشري هو خير، وأنّ كلّ ما هو، في ذاته أو بتبعاته اللاّزمة له، ضارّ بالمجتمع، هو شرّ حقيقي؛ إنّي على هذا الأساس أُقيم الأخلاق، وبالنظر إلى الأفكار المختلفة التي أجدها شائعة بين الناس، يبدوا لي أنّ لا الآلهة ولا الكهنة ولا الحكومات ولا القوانين الجائرة، يستطيعون أن يضعوا لنا الواجبات المنافية للفطرة وإلى جوهر الجنس البشري وإلى خير

المجتمعات؛ وإنّي أستخلص أنّ نبوءاتهم، التي تمليها غالبا الأهواء والعته و الخباط وانعدام الخبرة، لا يمكن أن تكون قواعد راسخة لسلوك الإنسان.

وجب أن تتأسّس الأخلاق إذا على الفطرة. طالما سيكون الإنسان كائنا يحسّ وقادرا على التفكير، فسيكون مجبولا على حبّ الخير وكره الجرم والشرّ؛ سوف لن ينخدع في تقديراته إلاّ عندما يمنعه الجهل والهوى والتسرّع من أن يكون له حكما حصيف. في كلّ الأوقات التي سنرى فيها الإنسان شرّيرا، سوف نجد بالرجوع إلى أصل سجاياه واستعداداته بأنّها تعود إلى وصومه السياسية والدينية، إلى تربيته، إلى عاداته السيّئة وإلى آرائه المغلوطة التي تشبّع بها ذهنه؛ فالشرّير هو إنسان إمّا سيئ التنظيم وإمّا أفسدته وصومه.

لقد اختلقت الديانات الحميّة والدّجل؛ فوصوم كلّ شعب قد أنشأت عبادته، وأنتجت وغيّرت الاحتياجات والظروف لكلّ أمّة في حكومتها، عاداتها وقوانينها. ولكن التجربة والخبرة، التي يدعمها الإنسان بالتدبّر في طبيعته الخاصّة، الاحتياجات الثابتة والمستديمة للجنس البشري هي التي تحدّد أخلاقه وتضبطها.

ومثلما قلنا في عديد المرّات، ففي الجهل المدقع المسلّط على الناس وفي الوصوم التي يُدفعون إلى تقديسها وفي شرور حكوماتهم ودياناتهم،

وجب علينا أن نبحث في أصل هذا الفساد والانحلال العام اللذان نجدهما في الآداب؛ سوف يكون من واجبنا أن ننوّرهم، أن نكشف لهم الحقيقة، أن ندرّبهم على استعمال عقولهم، أن نحكمهم بالعدل والإنصاف، أن نربّيهم على المبادئ الصالحة، نجعلهم يستشعرون مصالحهم الحقيقيّة وردعهم بالقوانين الصائبة. وهكذا لن نكون أبدا في حاجة إلى خداعهم.

في كلّ مكان يُعامَل الناس مثل الأطفال، يُرعبونهم بالأشباح أو يهدئونهم بالخيالات التي لا يمكن أن تحلّ محلّ السعادة الآنيّة والفعليّة. يا حكاّم والأمم وساداتها! هل تريدون رعايا أخيارا وفاضلين، أنيروهم، علّموهم، أدعوهم لفعل الخير واجعلوهم خاصّة سعداء؛ فالإثم لا يكون ذي نفع عابر وخدّاع إلاّ لأولئك الذين إمّا يعجزون على توفير الرفاهيّة الحقيقيّة لأنفسهم أو ليست لهم الإرادة لفعل ذلك.

في واقع الأمر، لقد عزمنا حقيقةً حتى وقتنا الحاضر على التعويض عن فساد الأخلاق بدمج الأخلاق مع الدين؛ لقد خُيِّل إلينا باطلا بأنّه من روائع الأعمال للسياسة بأن تجمع سلطة الآلهة مع سلطان العقل، فهذا التحالف الشنيع لم يقام لكي يدوم. وبهذا التعاضد الغير متكافئ، كان العقل-سليل الفطرة والحقيقة- مكبّلا بالدين – سليل العجاب والقوى الغيبيّة التي لها الطبيعة تابعة خاضعة- أو مغيّب.

أينما كانت الاخلاق متّحدة مع النُّذر، فإنّ النُّذر تعلوا على الأخلاق وتجعلها دائما خادمة لهواها. لم تستطع الأخلاق أن تمشي حذو صاحبتها المعتدّة بأصلها السماوي؛ لقد كانت مجبرة أن تنحني أمامها وأن تنسب إليها عجائبها وافتراءاتها، وهكذا أصبحت الأخلاق التي حطّ الدين من شأنها محض هراء لا يهمّ الإنسان، الذي دوّخته مفاهيمه المجرّدة، في شيء.

الدّاعية الأخلاقي قد انصرفت أنظاره عن الأرض، فكره لم يعد منشغل سوى بالأواصر الوهمية التي أفترض أنّها تصل البشر الفانين بالربوبية التي ليس له أيّ فكرة عنها. الإنسان لم يعرف أبدا، ودروس الكاهن ترشده، ما الذي يدين به لأمثاله من الناس، لم يعر أي اهتمام بالمجتمع، تغافل حتى عن نفسه، لم ينظر إلى الأرض إلاّ باعتبارها مرحلة عبور، شغلته أوهامه التي لا طائل منها فتبلّد احساسه وفترت همّته فتورا مهلكا؛ وأمّا إذا حمى دمه وأخذته الحميّة، لا تقوى همّته إلاّ ليحيق برفقائه وأهله العذاب أو ليلحق بنفسه الأذى. عيناه على الدوام إلى الأعلى ناظرة، في ضوء مشعّ محدّقة، شاخصة لم ترى غير ذلك من حوله شيء. كلّ أخلاقه انحصرت في ألاّ يغفل بنظره لحظة الأشباح التي أعمته وأعمت بصيرته. وهكذا لم تصنع الأخلاق الدينية شيئا سوى أناسا مخدّرين ومسعورين ناقمين، ومتكهنين دون أن تصنع كائنات عاقلة ولا مواطنين حقيقيّين.

إنّ الإنسان، الذي تعلّم بالعقل وأنشأته تربية صالحة وشريفة وتحكمه قوانين عادلة صائبة، يمتلكه الرعب لرؤية أو لسماع فعل إجرامي ضارّ. أمّا الذي يوجّهه الدين والذي أفسدت ذهنه منذ صغر الوصوم، فلا يرى الإثم إلاّ فيما يُقالُ له أنّه منافي لأحكام الدين وفيما يضرّ بمصالحه، فلا يرى أبعد من ذلك؛ يخاف إذا أغفل الشعائر أو أبطل الأعياد والمواسم فيصيبه ذلك بالندم والوجل أكثر ممّا تصيبه الخطايا الفعلية والآثام المتعمدّة. واثق الإيمان أنّ أيّ انتهاك لحرمة دينه هو أعظم الكبائر، نجده يجعل من التقصير الطفيف أمرا عظيم، وتُشعره الانتهاكات الصبيانية بالندم بينما الأوزار والذنوب الجسيمة فسريعا ما يغفر لنفسه أمر ارتكابها.

والمتديّن الورع المذعور بحمقه من تهديدات كهنته لا يرى شيئا أهمّ من طاعة أوامرهم؛ مفتون بوعودهم كلّ شيء عنده يهون، فهو متيقّن من عونهم ومددهم في نيل الرضا من الربوبية التي يظنّ أنها أكثر تساهلا على الشرّ الذي نلحقه بمخلوقاتها من ازدراء قوانينها المزعومة. فخورا بصغائر الأمور التي تصلح حاله مع ربه، يكره الأرض وما عليها ويظنّ نفسه مثالاً وقدوة للخير والفضيلة، حتى وإن ارتكب الظلم والشرور والآثام.

وعلى هذا المنوال يقيم الدين مقام الأخلاق فيعدمها تماما ولا يأتي بغير متديّنين ورعين لا خير فيهم ولا فضيلة. نادرا ما يكون الناس الأكثر تديّنا هم الأكثر صدقا وأمانة والأكثر ألفة؛ أمّا بالنسبة للطّامة الكبرى من الناس، فيتركهم الدين على حالهم ويظلّون رغما عنه على العادات التي ينهى عنها. فهو لا يقوى على الأهواء الجيّاشة والمألوفة، إنّه ليس له قوّة العادة والرأي وأضعف من المصلحة الراهنة[1].

والناس عندما تدفعهم المصالح لا يمكن للدين أن يقاوم السيل الجارف الذي يحملهم؛ حالما يبدوا لهم الدين مزعج، فإنّهم يرفضونه يرمون به عرض الحائط، يزدرونه ويتخلّصون من نيره دون أن يتّبعوا مع ذلك قواعد الأخلاق الحميدة ودون أن يرجعوا إلى أحكام العقل الذي سوف يقلقهم أكثر ممّا أقلقهم العقل؛ وهكذا فإنّ الطغيان الديني غالبا ما

---

[1] ونفس الديّن الذي كان يسمح بالمعارك الفردية في الماضي ويباركها، أصبح اليوم يحرّمها بدعوى أنّها تجلب اللعنة الأبديّة؛ ورغم ذلك فإنّنا نرى المبارزات في البلدان الأكثر تنذّرا، لأنّ الرأي العام -الأقوى من الدين- يجعل من أولئك الذين يهانون ويمتنعون عن الثأر جبناء ويلحقهم الخزي والعار: من هنا علينا أن نستخلص بأنّ الفكرة التي يحملها الرأي الشعبي أقوى من الدين. إنّ الحاشية عموما هي الفئة من الناس الأكثر فسادا وأكثرها استعدادا لأن تضحّي بشرفها وبضميرها من أجل رقيّها؛ فهم على نهج كبار مملكة أو سلطنة آتشيه أنّ الرب بعيد ولكن الملك منّا قريب. (تقع مملكة آتشيه في الجنوب الشمالي لجزيرة سومطرة. أنظر كتاب "تاريخ سومطرة" لويليام مارسدن. المترجم)

يخلفه الجنون التام. فالشرّير، الذي تعوّد على اعتبار أنّ الأخلاق لا تتأسّس على غير الدين، وبعد أن يتم التخلّص من هذا الدين، يتباهى بأنّه لن يوجد له بعد ذلك رادع وسوف ينغمس في ملذّاته ويستسلم لسيلها الجارف دون أن يعاقبه أحد. لقد بحث، عن صواب أو عن خطأ ولكن دون حياد، في النظام الذي يعرقله، وبعدما ارتأى له أنّ دينه ليس سوى حماقة، فقد تسرّع في استخلاص أنّ الأخلاق ليست أحسن وأوثق أسسا من الدين.

وآخرون وهم عاجزون على الحوار، لا يقدرون على دفع الأفكار الدينية التي تغذّوا عليها منذ نعومة أفكارهم، فيقيمون مع النُّذر اتفاق؛ يطوّعونها لفجورهم، وإذا ما انفصلوا عنها لبعض الوقت فإنّهم يعدون أنفسهم مع ذلك أن يرجعون إليها عاجلا أم آجلا ويلتجئون في ذلك للوسيلة التي تعدّها للمنشقّين الذين يعودون إليه.

وعلى هذا النهج، ورغم قناعتهم بأنّ النهب والظلم والإكراه والفجور يغضب ربهم، فإنّ أغلب الناس سيسمحون لأنفسهم بالضلوع فيها، يدفعهم في ذلك إيمانهم الراسخ بأنّهم قادرين على أن يتصالحوا ذات يوم مع السماء التي أساءوا إليها متعمّدين[1]، أو عندما يتهالكون عقولهم

---

[1] يقول المسيح في الإنجيل: افعلوا الـ؟؟؟؟؟ في السماء بالثروات التي جمعتموها بالباطل. أليست هاته الكلمات مطمئنة لكلّ أولئك الذين ينهبون الشعوب والمتيقّنين بنيلهم الغفران عن سرقاتهم بالعطايا والهبات التي يغدقونها على الفقراء؟ ـــ

بعدما تهدأ الأهواء والغفلة وتسكن الملذّات، يطلبون الغفران من الربوبية على الآثام التي ارتكبوها، والتي سوف يرتكبونها من جديد كلّما دعتهم إلى ذلك. تعجّ الأمم بالأشرار والسّيئين الذين يبرعون في ضمّ النّذُر إلى الإثم، والذين يراوحون بين إغاظة السماء وبين ارضائها أو يمنّوا أنفسهم بأن يكفّروا في آخر عمرهم أو عند الموت عن المعاصي التي ارتكبوها في حياتهم المليئة بالجور. يُمنّون أنفسهم بأن يعوّضهم ذات يوم تعلّقهم الساذج بالدين وبمعتقداته العجيبة وشعائره الصبيانيّة عمّا يدينون به للناس، وأنّه سوف يرضي الربوبية فيحلّ عليهم كرمها وبركتها.

على هذا النحو يكون الخسران هو مآل الاخلاق عندما يعاضدها الدين؛ فالدين كان دائما سريع الصفح ويغفر الخروقات التي نلحقها بهذه الأخلاق، فالدين بطبيعته يريد أن يشغل وحده الإنسان ولا ينازعه فيه أحد؛ يعفو على الجرائم التي تهمّ الناس وحدهم ولا تعنيه في شيء، ولكنّه يغالي في الخطايا التي يبتدعها ويتعامل بكلّ حزم مع الانتهاكات البسيطة لقواعده والتقصير في شعائره، وفي كلمة، هو شديد العقاب مع كلّ من يتعدّى على الفرائض الوهمية التي يأمر بها.

وإنّنا لنرى، كنتيجة لذلك ربّما، العدد المهول من مختلسي المال العام والسرّاق لدى المسيحيّين. الملوك تنهب الشعوب، المنشغلة بدورها بسرقة بعضها البعض، والتجّار الأكثر ورعا وتقوى يبيحون لأنفسهم الربا والغش.

عندما يكون الكاهن بيده ميزان أفعال الناس، فإنّه يرجّح دائما الكفّة التي تتماشى مع مصلحته؛ فتراه يقضي بأنّ الذنوب المنكرة والأحقّ بغضب السماء وقصاص البشر هي تلك التي تضرّ بسلطانه. يجعل من الأفعال التي لا تضرّ البتّة بالمجتمع آثاما لا تُغتَفر، يعوّد أتباعه على أن يفزعوا لرؤية الأشخاص الذين لا يمتثلون تماما لمعتقداته ولا يتجاوبون مع نزواته ويشمئزّون من أحاجيه وخدعه ودروسه ولا يسكنهم التبجيل والتعظيم لأوهامه ولكلّ ما يشير له بالإكبار والتعظيم.

إنّ الشعوب التي شبّت على هاته الوصوم تفزعها جملة من الآثام الوهمية أكثر من تلك الآثام الفعلية الضارّة حقيقة أو التي تخلّ بأمن المجتمع؛ فتفعل عبارات مبهمة، مثل تدنيس، هرطقة، كفر وشرك، في النفوس أكثر ممّا تفعله كلمات مثل الاغتيال، الخيانة، الظلم، السرقة والزنا[1]. يعتاد العاميّ الأحمق على النظر إلى من لا يؤمن بما يؤمن كاهنه

[1] عندما نفحص عن قرب معنى الألفاظ المرعبة التي تعتقد الشعوب عموما أنّها تشير بها إلى الآثام البشعة، سوف نجد أنّ هذه الألفاظ لا تدلّ سوى على الأشياء التي يبغضها الكهنة ولا تعني شيء لدى باقي الناس. إنّ الهرطقة ليست سوى مجرّد طريقة تفكير مختلفة عن تفكير رجال الدين؛ ونفس الشيء لألفاظ الإثم، اللعنة والكفر، التي لم تكن تتعلّق سوى بالأشياء التي اقتضت مصلحة رجال الدين أن تجعلها من المقدّسات والحرمات.

أو الذي لا ينصاع لأحكامه على أنّه أكثر إثما وإجراما من ذلك الذي يدنّس الفطرة والعقل أو الذي يأتي بإجحاف جليّ لبني جلدته. وإذا ما كانت هاته الوصوم مفيدة للدين ولوزرائه، فإنّها حليّة بأن تخمد في الشعوب كلّ فكرة عن الأخلاق؛ وهكذا تتشبّث الأمم بالنُّذر دون أن يكون لها أدنى فكرة عن الخير والفضيلة.

وبمقتضى مثل هاته المبادئ، لا يجب علينا أن نتفاجأ إذا ما وجدنا جهلا مدقعا بالأخلاق، فسادا مشين في السلوك، النسيان التام لقوانين العقل البسيطة وللإنسانية في البلدان المستسلمة للنّذُر ولكهنتها؛ ففيها تختصر الفرائض المزعومة للدين كلّ الواجبات الأخرى، وتلقى الأفعال الشنيعة المغفرة والحظوة لدى الكهنة، والمعابد تُفتحُ أبوابها للقتلة واللصوص والمجرمين، يجدون فيها الملاذ الآمن يحصّنهم من القوانين الصارمة. وهكذا يجعل الكهنوت من ربه الحامي للجرم والشريك، أمّا الأهالي الصالحين والأخيار، وبسبب أراء غالبا ما تكون مضمرة، فيتجرّأ بكلّ وقاحة على ذبحهم أو حرقهم.

كيف يمكن أن تكون أفكار الإسباني عن الأخلاق أو البرتغالي أو الإيطالي الذي يرى السلطة الزمنية والسلطة الروحية تتّحدان من أجل إلحاق الأذى والعذاب الأليم لمهرطق تعيس سيئ الحظ، ليهودي، لإنسان قد تفوّه عن استخفاف بكلام طائش عن الدين، أو قد خالف

بعض المراسيم الكنسيّة، بينما السفّاح، الذي لا تزال يديه مخضّبة بدماء بني جلدته، فيجد الملجأ الآمن في الكنيسة التي يتعبّد فيها لربّه؟

وبعد رؤية هذا السلوك الذي يسرّ أعداء المجتمع الفعليّين والقاسي والعنيف على الذي يخطأ في حقّ الدين، ألا يقتنع الشاهد على ذلك من الناس بأنّ القتل والسرقة والخيانة هي خطايا صغيرة مقارنة بتلك الخطايا التي يعاقب عليها الدين بكلّ حزم وقسوة؟[1] ومن جانب آخر، إنّ البلدان التي يتمتّع فيها النظام الكهنوتي بسلطان واسع، بسلطة لا ينازعها أحد وبحصانة تامّة، والتي لا يكون للسلطة الزمنية فيها الحق في أن تردع الكهنة تكبح وإسرافهم وتماديهم، أو التي يغرق فيها هؤلاء الكهنة في البذخ والثراء ويعيشون في عطالة مُخجلة، سرعان ما تفسد فيها الآداب؛ فالسيّئة تصبح صفاقة عندما لا يلقى مرتكبوها العقاب، والكهنوت المغترّ بجبروته يتخلّى عن كلّ حياء، ويُقدِم على كلّ صنوف الإجرام، أمّا الشعب، الذي تعوّد على أن لا يشجب أبدا سلوك مرشديه

[1] في اسبانيا والبرتغال، يُقال أنّ الشعب يبذل كلّ جهوده من أجل أن يخلّص مجرما من الملاحقة القضائيّة؛ فيجعله يحظى بالهروب واللّجوء في كنيسة أو دير. ومن ناحية أخرى، عندما تلاحق محاكم التفتيش أحدهم، فتجد كلّ شخص يسارع بمدّ يد العون وفي القبض عليه؛ يسلّم الأب رغما عنه ابنه والزوج يسلّم زوجته خوفا من أن يعاقبا بتهمة تحريض المهرطقين.

وعلى الاقتداء بهم وعلى أن يُسوّغ لهم ما يفعلوه، يفسده من يقتدي بهم؛ كهنة جهلة وغرباء عن الأخلاق، بدورهم مجرمين وخليعين، يتركونه يقبع في الجهل المطلق بواجباته الحقيقية ويبدون له الصفح على الآثام التي هم أنفسهم مدنّسين بها، مستعدّين أن يطهّروه من المعاصي التي هم بدورهم ظّالعين فيها والتي أصبح التكفير عنها مربح على الدوام لهم[1].

---

[1] يعلم الناس جميعا درجة الانحلال والفسوق والمجون التي يتحلّى بها الكهنة والرهبان الإسبانيّين والبرتغاليّين؛ ينساقون دون رادع، وهم محميّين من الحكم الدنيوي الذي يخشونه ويهابونه، وراء المعاصي والأهواء الآثمة. فالسلطة الدنيوية لا تستطيع عقابهم حتى على الجرائم النكراء التي يتواطؤون فيها مع السلطة الاكليريكية – سلطة رجال الدين– التي لا تقبل إلاّ نادرا بأن تُعاقب رعيّتها خوفا من الفضيحة بطبيعة الحال. ومن ناحية أخرى، إنّنا نعرف بأنّ هاته الأمم الأوروبية لأكثر ورعا هي الأمم الأكثر انحلالا والأكثر سخطا، والتي يكثر فيها القتلة والسفّاحين وتكون الأخلاق الحميدة فيها غريبة، والشعب فيها أشدّ بؤسا ورجال الدين أكثر قوة وسلطانا. إنّه لمن صالح الكهنة أن يكون الشعب بلا أخلاق وآداب لتُتاح لهم الفرصة كي يُقيموا الكفّارات المتواترة..

الفصل الحادي عشر

- في الفرائض المزعومة
- في شعائر الديّن وفضائله المزيّفة
- مخـاطـر الكفّارات

تلك هي الخدمات العظيمة التي تقدّمها النُّذُر للأخلاق. دعونا الآن نرى النفع الذي يمكن أن يجنيه علم الآداب من الفرائض والشرائع التي يعلّمها الدين للناس؛ ولنعكف على تحليل هذه الفضائل السامية التي يعطيها الكهنوت كلّ الأهمية، فلا تنزل رحمة السماء بدونها والتقصير فيها أو اهمالها يُحتسبُ عنده من أفظع الآثام وأشنعها.

إذا كانت الأفكار التي كوّنها المفسّرين المزعومين للربوبية عن الكائن الأسمى مغرضة ومتناقضة، وإذا لم تكن نظمهم اللاّهوتية وتكّهناتهم الغامضة سوى هراء وكوم من السخافات، فإنّ العبادات التي سنّوها والفرائض التي أوجبوها لم تكن أقلّ غموضا ولا أقلّ سخافة من الإلهيات التي يدرّسونها.

لا يوجد أغرب من نزوات النّذُر، ولا أشدّ غموضا وتفاهة من التدابير التي تأمر بها، ولا شيء أكثر غرابة وبطلانا من الفضائل التي يعلّق عليها كهنتها رحمة العليّ وكرمه. وإنّ العاقل من الناس ليشعر بالخزي عندما يستمع للتعاليم الغريبة العجيبة التي يتفوّه بها هؤلاء المشرّعين الذين ألهمتهم السماء؛ فهذا يصرخ في قومه يدعوهم لختان

أطفالهم، للاغتسال المتواتر، بالامتناع عن بعض اللحوم التي يبغضها الرب، بترك العمل في أيّام معيّنة، بتقديم الذبائح والأضاحي بانتظام والحرص أشدّ الحرص على مراعاة بعض المناسبات والأعياد التافهة والتقيّد بها. وذاك يوصي، وكأنه أمر مهمّ للخلاص الأبدي، أن يتمّ غسل وتطهير، الطفل المذنب حتى قبل أن يولد، بالمياه وأن يمتنع عن أكل اللحم في أيام معدودات وأن يفي بكلّ إخلاص بالطقوس الغامضة المتوقّفة عليها نعم السماء وأن يمتثل بانتظام لشعائر مقدّسة لا تُفتح بدونها أبواب الرحمة والبركات الإلهية، وبأن ينزّل بالركوع وبحركات منتظمة للجسد والشفتين وبعبارات محدّدة نعمة القدير وخيره.

يقول براهما لأتباعه بأن يغتسلوا بمياه الغنج، ويقنعهم بأنّ هاته المياه لها القدرة المدهشة على تطهير الأرواح من دنسها، ويوصيهم خاصة بأن يحترموا الحياة لدى الحيوانات والحشرات لأنّ قتله سيجلب له حتما غضب السماء.

لن ننتهي أبدا إذا ما أردنا تعداد كلّ الممارسات والبدع الصبيانية التي علّق بها الدين في مختلف البلدان رضا الآلهة أو غضبها. إن العقل السليم لَيحير لرؤية الفرائض السخيفة التي تسلّطها النّذُر المتقلّبة دائما على الناس؛ لا يستطيع الفكر أبدا أن يتوقّع الدوافع وراء العجب العجاب الذي ابتدعه الكهنوت لكي يكسب رضا السماء أو يكون بكرمها وخيراتها حقيق.

لقد كان الدين دائما يلهو بتضليل العقل وتعطيله؛ ظنّ أنّه معني بأن لا يُظهر للعاميّ سوى رموزا وعلامات وأحاجي وألغاز وأعياد يتّبعها وبسذاجته يذعن لها دون نظر أو تحقيق، بحكم التعوّد يألفها فلا يستشعر أبدا تفاهتها ويتشبّث بها بكلّ إصرار وهمّة لأنّ غموضها نفسه قد جعلها عنده غالية فيجلّها ويعظّمها. لم تكن الشعوب سوى أطفال قد سلّموا أمرهم لكهنتهم يرشدونهم؛ ولقد جعلهم هؤلاء الكهنة دوما تحت وصايتهم ذلك بأن ألهموهم مبكّرا منذ نعومة أظافرهم بغض العقل والنفور منه. وبطبيعة الحال، كان من مصلحة هؤلاء الذين أرادوا استعباد الناس أن يقيموا لهم على الدوام الحواجز والعراقيل، أن يختبروا كلّ مرّة طاعتهم وولاءهم ويعوّدوهم على الانصياع لنزواتهم فيصيغونهم على شاكلة النير الذي يستعبدونهم به، أن يضاعفوا من آثامهم ومخاوفهم وكفّاراتهم.

لهذا السبب لاريب، توصّل كهنة الربوبية في كلّ البلدان إلى ربط كلّ الأنشطة الحياتية بالنظام الديني؛ يمدّون من سلطانهم ويضاعفون في سطوتهم، يجعلون من أنفسهم ضروريّين ويجدون في سذاجة شعوبهم نبع لا ينضب من الثروات[1].

---

[1] في البابوية لا يغيب المريد عن ناظر الكاهن للحظة. يعمّده، يربّيه، يزوّجه، يواسيه، يشفيه من مخاوفه، يسكّن فيه تأنيب الضمير؛ حتى الموت لا يعفيه من طغيان الكهنة ــ ــ

إنّ الشعائر والفرائض المزعومة التي تأمر بها النُّذر كانت سوف تكون غير مجدية ولا تعني شيء في ذاتها لو أنّها لم تأخذ مكان الفرائض الحقيقية التي تمليها عليهم الطبيعة، ولكن المتناذر الذي شأن الدين عنده عظيم ولا يرى فيما يأمر به ما هو أهمّ ولا أحبّ إليه، ومتيقّن أنّ الامتثال لأوامر ربه لا يعادله شيء في الأهمّيّة، يذهب به الظنّ أنّه يوفي بكلّ واجباته عندما يتّبع بكلّ وضاعة ودناءة القواعد التي وضعها كهنته وعندما يلتزم بالشعائر الصبيانية ، التي لا يفقه مغزاها، ويطبّقها بكلّ حذافيرها؛ لقد ظنّ أنّه حاز الفضائل وخلص الذمّة تجاه هذه الحياة الدنيا باعتناقه المعتقدات الغامضة التي يُجبرونه بها ويجعل عقله تابعا لسلطة الكهنوت فلا يغفل عن تفاصيل قوانينها التي وُصِمت بالمقدّسة.

ومن ابتزازهم. يجني رجال الدين في بعض الطوائف المسيحيّة الأرباح من عبيده الموتى أكثر من عبيده الأحياء. إنّ ساكن إندونيسيا ليس أقلّ ابتلاءً بكهنته من المسيحيّ؛ فهؤلاء الكهنة مشغولين على الدوام بتطهيره من الذنوب وباختلاس أمواله. وإذا ما فكّرنا قليلا فسوف نظلّ مقتنعين بأنّ ما نسمّيها شريعة الرب ليست في الحقيقة سوى شريعة الكهنة الذين لم يقوموا بابتداع الأديان في كلّ البلدان إلاّ من أجل مصلحتهم الخاصة. إنّ الأذى الوحيد الذي سوف يلحق الدولة من إلغاء الشريعة والنظم اللاّهوتية هو إجبار ثلّة من الناس العاطلين والأشرار السيّئين على البحث عن لقمة العيش بطريقة أكثر شرفا من الدجل .

إنّ الكفّارات والوضوء والأضاحي والاحتفالات الدينية بكلّ أنواعها ليست سوى بدع مهلكة يستعيض فيها الإنسان بحركات جسمانية عن دقّات قلبه الصادقة والمنتظمة وعن العادات النافعة للمجتمع. كلّ دين يقوم بالكفّارة يدعونا إلى أن نكون آثمين، والحال أنّ كلّ دين يضع أساليب جسمانية وسهلة لاسترضاء الربوبية، ممّا ينتج عنه أن كلّ دين هو مصدر إضافي للفساد الذي يجني ثماره رجال الدين دون سواهم.

إذا كان الدين وكهنته هم الغانمين من تقديم الربوبية على أنّها مهتمّة وغيورة ممّا يملك الناس، على أنّها شرهة للحم الحيوانات، على أنّ رائحة شواء الأضاحي تطربها، فإنّ الأخلاق هل التي كانت الخاسرة جرّاء المقايضة الحقيرة التي أُقيمت بين السماء والأرض[1].

---

[1] يلاحظ لوقيان (السميساطي. المترجم) أنّ الأضاحي تفترض وجود آلهة نهمة، جشعة، مهتمّة وشبيهة بالذباب دائما متأهّبة لتنهش البهائم المسكينة وتمتصّ دمهم. لوقيان، جوبيتير المأساوي، الكتاب الخامس، في محاورة أوطيفرون لأفلاطون. وأفلاطون نفسه في الكتاب الثاني من الجمهوريّة لا يريد أن يكون للأغنياء مُصلّى خاص، فهو يشترط أن يقدّموا القرابين في العلن من أجل أن ينزع عنهم القدرة على التكفير عن ذنوبهم سرّا وبكلّ سهولة.

لابدّ للكفّارات، كما رأينا ذلك، أن تشجّع على الإثم، يصبح الشرّير أكثر وقاحة حالما يقنع نفسه بوجود الوسيلة ليرضي ربه: وإذا ما تنعّم بالثراء فإنّه يستوثق مقدرته على أن يشتري منه الحق في إيذاء بني جلدته، يقيم معه تسوية ويتصرّف تجاهه مثل هؤلاء الوزراء لطغاة آسيا الذين يشترون من أسيادهم الجشعين الموافقة على قمع وسلب رعاياهم دون رادع، أو أنّهم يحصلون منهم بقوّة المال على الصفح عن المظالم والاذلال والنهب الذي سلّطوه عليهم. يلاحظ سقراط عن حق أنّ من يعطي لمن لا حاجة له لا يفقه جيدا فنّ العطاء، وأفلاطون يتساءل عن رأي الآلهة من الهدايا التي يقدّمها لها الأشرار، إذ أنّ الرجل الشريف النزيه يستحي من أن يتلقّى العطايا من مجرم خبيث.

ولكن أهواء الناس، عاداتهم الخبيثة، ميولهم الماجنة، نزواتهم الاجرامية والعابرة تجعلهم مهيّئين لإلقاء السمع للنّذر الهيّنة أكثر من الإصغاء للحكمة القاسية أو الأخلاق الحميدة. فهاته الأخلاق تدين بشدّة الأفعال الدنيئة وتُظهر للسيئ فظاعة سلوكه. أمّا النّذر تواسيه وتهوّن عليه بإعطائه الأمل في أن يتصالح مع السماء، فتسكّن من مخاوفه وتأنيب الضمير.

يجد السيّء من الناس والآثم في الدين نبع لا ينضب يحميه من تأنيب الضمير؛ من الأسهل له أن يوافق بطرفي شفتيه على العقائد التي

يفقه معناها، أن ينتمي إلى النظم التي لا يتكبّد عناء النظر فيها، على أن يرجع إلى أخلاق مقلقة ومحرجة؛ إنّه يفضّل الشعائر التي تعفيه دون مشقّة من تغيير سلوكه ومجاهدة ميوله ونزعاته ويترك عاداته. ميّال لخداع نفسه وبمعيّة كاهنه، يمنّي نفسه بأن تصلح يوما، صلواته وحركات جسمه والأضاحي والقرابين وبعض الندم العقيم والعابر، أمره مع ربه الذي سوف يغفر له، وقد تأثّرت فيه هداياه وخسّته ودناءته، الإساءة التي ألحقها ببني جلدته؛ فمن السهل عليه أن يذبح الخرفان، أن يشيّد المعابد، بأن يغدق المال على الكهنة ويعترف لهم بجرائمه، أن يكرّر بعض الصلوات ويقف في وضعيّة التذلّل من أن ينبذ الطموح والجشع، من أن يقارع عاداته الاجراميّة ويكسر الروابط التي تشدّه إلى الإثم.

إذا ما تخلّى الفاسد من الناس، وهو مذعور من توجيهات دينه وتهديداته، عن سلوكه الخليع لبعض الوقت، فلن يتوانى أبدا في الرجوع إليه وهو مطمئنّ بأنّ هذا الدين يستقبله بصدر رحب وبحفاوة، بأنّ ربه، المهتمّ والذي جعلته تضرّعاته رجوعه إليه يلين، سوف يغفر له زيغانه، وبأنّ كاهنه سوف يمنحه الوسيلة تخلّصه من عبء الندم ووخز الضمير.

بسهولة ينزل الإنسان منازل الإثم؛ فجهاد نفسه عن الأهواء يضعف عندما تمنّيه بأنّ له أن يتصالح مع ربه أنّى يشاء. " اذهب إلى

المعبد، تهمس له النّذُر، قدّم الشهداء قرابين، تضرّع وتذلّل في حضور الربوبية؛ ولتتوجّه إليها بصلواتك، اعترف بذنوبك أمام كهنتها فتُغتَفر لك وتُسقط عنك خطاياك". هكذا وبرضا الدين وتواطؤه الجبان، تصبح حياة الآثم حلقة من الآثام والكفّارات؛ الرب الصارم ذي البأس الشديد يستجيب لتضرّعات وزراءه ويمنحهم السلطان في أن يسقطوا باسمه الأوزار التي أُقترفت في حقّه والتي سوف تُبتليَ بها مخلوقاته. التوبة النصوح تكفي ليرتاح الضمير ويَنالُ السيىء الصفح وقلبه لا يزال على حاله[1].

وعلى هذا المنوال، تكفي بعض التراتيل وبعض الندم العابر والدوري وبعض الصلوات لتنعم بالسلام روح الملك الظالم الحافلة حياته بالحيف والجور المتواترين، روح أحد الحاشية الجشع والحقود والماكر أو أحد الابتزازيين الذي يقتات من عرق الفقير والأرملة

[1] كان فيليب الثاني ملك اسبانيا، مثله مثل لويس الرابع عشر ملك فرنسا، فاسق ماجن وطاغية شديد الورع. كان جوفيان الذي خلف الامبراطور جوليان، زيادة على دناءته يفضّل إيمانه على الإمبراطورية، حتى أنّه لم يقبل الحكم إلاّ بشرط أن يحكم أبدا الوثنيّين. لقد استأذن لويس الحادي عشر من مريم العذراء أن يقوم بالاغتيالات التي يكفّر عنها فيما بعد بالهدايا للكنيسة وبالاعترافات والتعميد. يشجّع الاعتراف عند البابويين على الإثم، فإذا ما درأ بعض الناس، فإنّ الصفح الذي يمنحه يفسد الكثير منهم.

واليتيم، أو أحد القضاة الذين لا يحكمون بميزان العدل أو امرأة خائنة تشوّه سمعة زوجها.

لا يجب علينا أن نستغرب إذا وجدنا الفاسدين من الناس، والأكثر انسياقا للفسوق والمجون والعادات الاجرامية والآثام المخزية، متعلّقين غالبا بالدين الذين ينتهكونه بتصرّفاتهم؛ فهم يعتبرونه ملاذا ومتيقّنين بأنّه سيتقبلهم عندما يلتجئون إليه، يعرفون أنّه عفوّ وسوف يطّهرهم من أوزارهم؛ يظنّون أن ربهم الرؤوف لن يتهاون في الصفح عنهم عندما يجثون على ركابهم أمام وزرائه.

أعرفتم لماذا نجد الحميّة لدى حتى من فسدت آدابهم، الذين يتظاهرون بأنّ من واجبهم تسليم أعداء الدين، لا يتوجسّون خيفة أن يُقطعَ عنهم الملاذ الذي يأملون الالتجاء إليه عاجلا أم آجلا، ويخشون أن يُحْرَموا من السبل اليسيرة التي تسكّن تأنيب الضمير لديهم دون أن تقلق أهواءهم. فليلقى الآثم، الذي يصرّ على ألّا يترك مجونه وفسوقه وجرائمه، الخزي والعار وليمزّقه الندم، وليلقى العذاب المهين؛ فمواساته خيانة للمجتمع، لنجعله لا يجد الراحة إلاّ في اتّباع السلوك الحسن والشريف، ولا يسامح نفسه إلاّ بعدما يجبر الإثم الذي يأتي به، وليكفّ الكهنة الوقحين عن الادعاء، باسم الآلهة، الحق في اسقاط الخطايا التي يذهب الناس ضحيّتها.

لقد هوّن الكهنة في كلّ البلدان من ذنوب البشر وآثامهم وجعلوها غير مكلفة. وهكذا زعم كهنة العليّ أنّ بمقدورهم حساب حدوده التي لا يجب تعدّيها! إنّ الاخلاق الحقيقية ليس لها سوى مقياس واحد وثابت نقيس به الخطايا والآثام؛ فالسيّئات العظيمة بالنسبة للأخلاق هي الأشدّ ضررا بالمجتمع، إنّها تأمرنا ألّا نتصرّف أبدا ما دمنا لسنا متأكّدين ممّا يمكن أن ينجرّ عن أفعالنا. إنّها تدين دون تمييز كلّ ما من شأنه، بذاته أو بتبعاته اللاّحقة، أن يلحق الأذى بنا أو بالآخرين. إنّا لا تبيح إلاّ ما يباركه العقل ويستحسنه، والعقل لا يبارك إلاّ ما يتوافق مع طبيعتنا الخاصة ومع صالح المجتمع الذي نعيش فيه ونفعه.

مهما كانت أحكام الدين، القانون، العادة والرأي، فإنّ الأخلاق الحميدة لا تعتبر الأفعال خيّرة وفاضلة إلاّ الأفعال النافعة حقيقة، أمّا الأعمال الآثمة فهي تلك التي تضرّ بالجنس البشري. وآخر الأمر، فإنّ الأخلاق الحميدة سوف تقرّر دون تردّد بأنّ ما يؤذينا هو حماقة وجنون وبأنّ كلّ ما يربك سلم وأمن الناس، كلّ ما يقمعهم ويجعلهم تعساء هو جريمة وإثم لا يمكن أن يباركه حكم السماء ولا يسوغه حكم الأرض.

ما الذي يسبّب المخاوف والندم اللذان يبثّهما الدين؟ ماهي الذنوب والآثام التي يدينها كاهنته بكلّ حدّة؟ ماهي هاته الخزوقات التي، حسب رأيهم، تؤجّج الغضب الإلهي؟ وأسفاه! إنّ السيّئات التي

يدينها الدين بكلّ حزم لا تتعلّق، مثلما رأينا، في أغلب الأحيان بالصالح العام؛ فهو يعلّمنا كيف نرتجف أمام كلمات، أن نتجنّب مرعوبين معاصي وهمية يزعم أنّها تغيض وبشدّة الرب في سكونه. وهكذا، فإنّ أفعال غير مدروسة، كلمات غير موزونة وأراء جزافية يمكن أن تغضب العليّ القدير من مخلوقاته الضعيفة.

إنّ الظلم والنهب والنميمة وادّعاء الباطل والغش ونكران الجميل والغلظة هم ذنوب فعلية وأشدّ خطورة في نظر العقل القويم من الآثام المزعومة المتعلّقة بربّ، يخبرنا الدين أنّ الإنسان لا يقدر على أن يسيء لعظمته وجلاله. إنّ السيّئات، التي تبالغ النُّذر في عظمتها وتدفع أفكارها الناس لأن يعاقبوا مرتكبيها بكلّ صرامة، هي أمور لا تعني عموما البتّة راحة المجتمع وأمنه.

أيوجد ما هو أقدر على جعل أفكارنا عن الأخلاق مبهمة وملتبسة من الكهنوت الذي خوّل لنفسه الحق في تحديد الحسنات والسيّئات؟ ماهي هاته الحسنات التي تثني عليها النُّذر وتعلّق عليها حصريّا رضا السماء ومباركتها؟ تتمثّل أوّل هاته الحسنات في الامتثال الأعمى للعقائد والفتاوي التي يعرضها علينا الكهنوت، إنّها فضيلة الفضائل الثمينة التي كان لبعض شيوخ العلم الوقاحة في أن يعلّمون الناس أنّها تكفي الناس لخلاصهم دون أفعالهم.

وجب علينا أن نتّفق على أنّ هاته الفضيلة أو الحسنة المزعومة هي، في واقع الأمر، الأكثر نفعا للدين ولكهنته؛ لابد أن تكون عزيزة على الأشرار الذين، بمبايعتهم للنظم التي تُفرض عليهم أو بإعفاء أنفسهم من مشقّة التثبّت منها، يجدون أنفسهم متيقّنين من رحمة ربهم وكرمه حتى وإن لم يغيّروا شيئا من سلوكهم الاجرامي أو حتى وإن لم يحسنوا لبني جلدتهم. إنّ هذا الإيمان والضلال التقيّ وهذا التخلّي التام عن العقل هو خصلة ضرورية في مبادئ وأصول الدين الحديث لدى الأوروبيّين الذي يتجرّأ على حظر الفضائل المفيدة كثيرا للجنس البشري والتي يتحلّى بها أولئك الذين لا يمتثلوا لأحكامه ولعقيدته وألغازه؛ إنّه يعتبر بكلّ وقاحة فضائل باطلة وزائفة كلّ تلك التي تدور في فلك عقيدته[1].

أيوجد إذا ما هو أشدّ فتكا بالأخلاق من احتقار وتجريم الأفعال الأكثر صدقا وشرفا، الأكثر شهامة وبطولة والضرورية للجنس البشري؟ أيكون إذا اعتدال ارستيد وحكمة سقراط وانصاف كاتون ،

[1] يقول سينيكا عن الحياة السعيدة، الفصل الثالث: إنّي أتّفق مع طبيعة الأشياء، ليس من أجل النفور منها ولكن من أجل التوافق مع قانونها وأن أحذوا حذوها. تلك هي الحكمة. ويقول في موضع آخر (الفصل الثاني) : إنّ لي نظر ثاقب وموثوق، أحكم به عن الزيف والباطل : دع الروح تجد نعيمها (من اللغة اللاّتينية. المترجم)

والفضائل النادرة لدى أنتونين سوى خطايا في نظر الناس التي تزعم أنّها تدرّس الأخلاق! أتكون القناعة وفعل الخير والإنسانية والإنصاف والاعتدال لدى كافر أو وثنيّ أو فيلسوف هي إذا خصال أقلّ شأن من الظلم والوحشية والهمجيّة لدى متديّن ورع أو كاهن؟ لنحذر من هكذا تفكير. فالفضيلة لا ترتهن بالنزوات ولا بالأحلام اللاّهوتيّة؛ الإنسان الخيّر والفاضل في بكين لا يمكن أن يكون شرّيرا لا في روما ولا في باريس ولا في لندن. إنّ النُّذر هل الوحيدة القادرة على أن تسحر الفكر لدرجة اقتناعه بأنّ الإنسان لا يمكن أن يكون صادقا حتى يؤمن ببدعها السخيفة.

ومع ذلك فإنّ مصلحة رجال الدين اقتضت أن تُسَنَّ الفتاوي التافهة؛ وكلّ من يمانعونهم يصبحوا عديمي الفائدة بالنسبة لهم، ولكي يجعلوهم مكروهين في المجتمع يرجمونهم بالسيّئين وعديمي الآداب والفضيلة. وبالنتيجة، يُخيِّلُ للورع أنّ أولئك الذين لا يمتثلون للدين هم مواطنين سيّئين وأنّ الفضائل الفعلية هي التي تمليها نزوة كاهنه الذي لا يضبط الأخلاق إلاّ وفقا لمصلحته.

إنّ الآمال التي يضعها الكهنوت في الحياة الآخرة ليست موجّهة سوى للذين سوف ينصاعون إليه في هذه الحياة الحاضرة، الذين سوف يتواضعون ويضحّون له بعقولهم، وسوف يعتنقون عقائده دون النظر

فيها، والذين سوف يوفون بكلّ الفرائض التي حدّدها لهم، ويغدقون عليه بالعطايا، الذين سوف يبدون متحمّسين لتحقيق غاياته ومآربه والذين سوف يظهرون الكثير من الحب للربوبية التي صوّرها كهنتها في كلّ ديانات العالم بصفات تنفر منها القلوب.

كيف لنا، في واقع الأمر، أنّ نحبّ بصدق كائن نجهل طبيعته وكنهه ولكنّ كهنته، بمقتضى مصلحتهم، لا يفتؤون يرسمونه في كلّ البلدان على أنّه أعتى الطغاة وأمكرهم؟ بأيّ قدر محتوم يُجبرُ العقل على التنكّر للفضائل كما يوصينا اللاّهوت؟ بأيّ سخف وعته تحظر النُّذر الفضائل التي يباركها العقل؟ إنّنا نهين الآلهة وننتهك حرمتها عندما نأبى أن نعتبر ما ينجرّ لزوما عن الحب الإلهي من الحميّة المتوحّشة والقسوة والاكراه فضائل؛ إنّنا ندنّس الفطرة والعقل ونصبح ضاريّن أشدّ الضرر بأنفسنا وببني جلدتنا حالما نغالي في سعينا للكمال الذي يعرضه علينا الدين.

تدعونا الفطرة لأن نحافظ على حياتنا، أن نستمتع، أن نسعى في اسعاد أنفسنا وبأن نجعل مقامنا في هذه الحياة الدنيا ممتع؛ والعقل يخبرنا بأنّه لكي نتقاسم مع الآخرين مشاعر الحب الذي نكنّه لأنفسنا، لكي نحصل على تقديرهم واعترافهم بالجميل وعونهم، علينا أن نحسن إليهم أو نظهر لهم الفضائل والحسنات: ما الذي يدفعنا لفعل الخير، إذا كان

الدين يأمرنا أن نكره أنفسنا، ألاّ نبالي بتقدير الآخرين ونتجاهله، أن نحقّر من شأن أنفسنا، ألاّ نتصرّف إلّا بنيّة الإخلاص لرب لا نعرفه بتاتا، وأن نمتنع لكي نرضيه عن خيرات الطبيعة وكرمها، وأن نتنصّل من كلّ الأشياء الضرورية لسعادتنا؟ بثنائه على دناءة الروح هذه التي تُسمّى التواضع، ألا يقضي الدين على الحافز الوحيد الذي يدفع الإنسان في هذا العالم الفاسد لفعل الخير، الجزاء الوحيد الذي تبقّى للفضيلة؟ كيف نطلب من الذي فقد تقدير الذات لديه، أو الذي نجعل من حبّه لذاته إثم وجريمة، أن يكون حريص على نيل تقدير وعطف أولئك الذين أختاره القدر أن يعيش معهم؟[1]

[1] دائما ما يقول الكهنة أن الاستكبار هو الذي يجعل الناس مشكّكين وكافرين وأن الله لا يعرّف نفسه إلّا للمتواضعين. لم يوصي الكهنة المسيحيّين بالتواضع إلاّ لأنّهم يشعرون بحاجتهم لأتباع سذّج يغضّون الطرف على كلّ حماقاتهم.

الفصل الثاني عشر

مواصلة في نفس الموضوع
في التقديسات المتزمّتة للنّذر

أن نتخلّى عن العقل، أن نضِلّ عن طواعية، أن نصمّ آذاننا بكلّ عناد عن الحقيقة وننشغل فقط بالخرافات المروّعة دون فهم كنهها، أن نضحّي بما يحبّه القلب ويشتهيه لأجل أوهام وسراب، أن نحارب بكلّ حميّة وندمّر بكلّ شراسة أولئك الذين يرفضون أن يحلموا مثلما نحلم، أن نضحيّ بسعادتنا وبأمن المجتمع لأجل نزوات كهنتنا. أن نظلّ نعيش في التنهّدات والدموع، أن نترك الخيرات حتى التي نظنّ أنّ تأتي من أيادي الربوبية، أن نكبت أحاسيسنا، أن نجعل حياتنا لا تُحتمل، أن ندافع بكلّ حماسة عن الوصوم التي لم نتمعّن فيها أبدا، أن نختم على المثابرة والإصرار الذي في دمنا؛ تلك هي الفضائل الغريبة التي يسمّيها الدين بالفضائل الخارقة للطبيعة والربانيّة، لأنّها قطعا منافية للطبيعة، ولأنّ العقل لا يفقه دوافعها ومبرّراتها أو أنّه سيكون محمولا على استنكارها لو أنّه يتدبّر فيها.

إنّها الفضائل والحسنات التي يفضّلها الدين على تلك التي يسمّيها، عن ازدراء، بشرية أو باطلة، لأنّها تقوم على جوهر الإنسان، نافعة

لسعادته ولأنّها ضروريّة لتماسك المجتمعات ومناعتها[1] . يخصّ الدين بالذكر هاته الحسنات الوهمية والزائفة أكثر من الإنسانيّة، من العدل، من الوئام، من عظمة الروح ونبلها ومن فضيلة العمل.

كن قاسي عنيف، شرّير، لاإنساني، ولكن كن مغفّل وساذج؛ هكذا تنادينا النُّذر. أمّا صوت الحكمة الحقّة فينادينا قائلا: كن ليّن رقيق، فاعلا للخير، متواضع معتدل وفكّر مثلما تريد. عش بلا نفع في الأرض، اجعل نفسك وعن طيب خاطر شقيّا في هذا العالم الهالك، لا تشغل بالك إلاّ

[1] لا يوجد ما هو أكثر اضرارا للدين المسيحي من التشبيه الذي يمكن أن نقيمه بين القدّسيين، الأبطال، أنصاف الألهة، الرجال العظماء والحكماء في الوثنّية وبين القدّيسين الحكماء في المسيحيّة. في الوثنية نجد رجالا شجعانا ممتلئين بسموّ الروح، بالإحسان والإنصاف ودائما منشغلين بتقديم الخدمات للجنس البشري. أمّا الشخصيّات العظيمة التي تُعرَضُ على المسيحيّين كقدوات فلا نرى فيهم سوى وحيدين منفردين ورهبان قذرين، استشهاديّين متحمّسين، كهنة متعصّبين ومتمرّدين، علماء وشيوخ مشوّشين تائبين لا نفع لهم للعالم. ما وجه المقارنة بين سقراط والقديس دنستان، بين سيشيرون والقديس أوغسطينوس، بين كيتون وتوماس بيكيت، بين ماركوس أوريليوس وداوود! لقد كان القدّيس عند الوثنيّين مواطن يتّقد حيويّة ونشاطا وعزيمة. أمّا القدّيس عند المسيحيّين فإمّا جبان روح له أو خبيث لعوب أو ظالم لاإنساني أو استشهادي مسعور أو لاهوتي يهذي. لو نتأمّل ولو قليلا في مبادئ الأخلاق المسيحيّة فسوف نجد أنفسنا مُجْبَرين على الاعتراف بأنّها لا تهدف إلاّ لتفريق الناس وشقّ صفوفهم أو دفعهم للتقاتل والتناحر بسبب الحميّة المقدّسة التي تُلهمها لهم.

بالك إلاّ بما هو آتٍ، هكذا تقول لنا الأولى. أمّا الأخرى فتحثّنا قائلة: كن شهما، نشيط، كادح مجتهد، اعمل على سعادتك الحاضرة، كن عزيز على قومك وكن جديرا بتقديرهم واحترامهم بخدماتك ومناقبك وفضائلك.

يبدوا أنّ السياسة، المتواطئة منذ قرون عدّة مع النُّذر، لم تدفع الناس ليكونوا نافعين للدولة، وبالتالي لم تسعى سوى في تدمير ما قلوبهم من الدوافع الوحيدة القادرة على جعلهم أخيارا وفاضلين. لقد تركت الحكومات أمر الأخلاق لوزراء الدين الذين لم يكن همّهم سوى أن يجعلوا الناس حالمين غير نافعين، مواطنين حقيرين ومتعصّبين خطرين مستعدّين أن يدينون لهم بالطاعة العمياء.

لم ينشغل اللاّهوت الذي لا يبالي بالآداب الفعلية سوى بدقائق الأمور، بالمسلّمات المجانيّة والتعليقات على نبوءات ربّهم؛ فالامتثال لأحكامه كان له أكثر نفعا من استعمال العقل، من البحث عن الحقيقة، من العلوم الصحيحة ومن الأخلاق. إنّ الحكومات، التي ارتأت أنّ الدين يكفيها لتقود الشعوب وتخضعهم ولتلهمهم طعم الفضيلة، أو ربما كانت مبتهجة بقيادة نفوس مُهانة، جاهلة، شرّيرة وغير مؤدّبة، قد اكتفت بأن تجبرهم على أن يكونوا متدّينين تقليديّين دون أن يخطر ببالها أن تعلّمهم واجباتهم الحقيقية.

لقد اعتلّ العالم وأصابه الكدر والأسى جرّاء جدالات اللاّهوت ونقاشاته؛ فلم يخاطب البشر الفانين إلاّ بالعقائد، بالعجائب، بالأساطير والخرافات وبالتعليقات على كتب غامضة. وأُجبِرت الرعايا على تصديق ما غاب عن أفهامهم، على أن تشارك في الأعياد والمواسم، أن تأخذ بعادات منكرة. لم يفكّر الحكّام في وضع قوانين صالحة ولا في إثابة الصلاح والقرائح، ولا في الاقتصاص من السوء والتهاون؛ وحده نهج التدبّر في أمور الدين الذين كان يُرجعُ إليه في أمور الدنيا، ونتيجة ذلك أنّه كان مسموحا أن نكون بلا آداب أو فضائل. بقدر ما سوف نتمعّن في الدين، بقدر ما سوف نرى أنّه يهدم الأخلاق ويشغل الإنسان عن المسائل الجديرة حقّا بأنّ تشغل باله.

ماهي الفوائد العظيمة التي تجنيها الأمم من الناس الذين ينشئهم الدين؟ هل يعتقد الورع أنّه أوفى بكلّ فرائضه، أيعتقد أنّه مواطن صالح، زوج صالح، أب صالح؛ وفي كلمة، هل يعتقد أنّه نافع لأنّه شحن ذاكرته بعقائد لا يفهمها، لأنّه يزور المعابد بانتظام، لأنّه يرتّل ألف مرّة صلوات غير مجدية، لأنّه لا تفوته أبدا المواسم والأعياد التي تتّبعها عقيدته، لأنّه يصغي بانتباه لتعاليم كهنته، لأنّه يحرص على الامتناع عن بعض الأطعمة، لأنّه يهرب من الخلق ويعتزل الناس أين يقتات على التأمّلات العقيمة، لأنّه يتقاسم ماله مع الكهنة والرهبان ويسلّم لهم ما

أخذه من المجتمع؟ أيكون مواطنا من لم ينفع بلده بشيء؟ أيكون أب صالح من فرّط في ثروته؟ أيكون ذي نفع من يضيع كامل وقته في الصلوات؟

ومع ذلك، فإنّ كلّ من يسلك مثل هذا السلوك يبدوا إنسان منضبط ومؤدّب في نظر الدين، في حين أنّ المجتمع لا يجني شيئا من هكذا سلوك[1]، بقدر أنّه لا يجني شيئا أيضا من هاته التقديسات* المزعومة التي تقدّمها لنا الأديان وهي تتشدّق بأنّها نافعة وضروريّة للجنس البشري.

---

(1) لقد درّس علماء ودكاترة أنّ المسيحيّ لا يمكنه أن يكون قاضي ولا جندي ولا تاجر. يعطي الكهنة الرومانيين قيمة كبيرة للعزوبيّة؛ فهذا التقديس (الكمال) السامي له على الأقلّ الفضل في أن يعزلهم عن المجتمع. إنّنا نرى في تاريخنا الحاضر أنّ فكرة التقديس المتعلّقة بالعفّة (أو الطهر. المترجم) كانت سببا في الانقراض المتتالي وزوال كلّ العائلات الملكيّة السبعة

* التقديسات، أو الكمالات، هي إن التقديس مرادف للقداسة، والكلمة اليونانية التي تشير لكليهما تعني "انفصال"، أولاً انفصال لحظي والتصاق بالمسيح عند الخلاص، وثانياً، عملية مستمرة من التقديس في حياة المؤمن وهو ينتظر عودة المسيح وأخيراً انفصال للأبد عن الخطية عندما نصل إلى السماء.

(www.gotquestions.org/Arabic/Arabic-sanctification. المترجم)

ففيها تتمثّل، حقيقة، هذه التقديسات العجيبة؟ أولئك الذين يبتغونها ويسعون في نيلها يسخّرون أنفسهم لعزوبيّة طوعيّة تنقرض بها المجتمعات وتزول، تكسر الأواصر بين المواطن ووطنه وتُعدم فيه الألفة والعطف لذويه وأقربائه، تجعل الفطرة تتعذّب فتنتفض ضدّ الحميّة التي ابتُليت بها. وآخرون يحرمون أنفسهم من الملذّات التي أحلّها الله ظانّين أنّ ربهم سينزعج إذا ما تنعّموا بنعيمها. يظنّون أنّهم يرضون الخالق عندما يكرهون بديع صنعته؛ فيبكون، يئنّون، يعذّبون أنفسهم ويجلدونها، وفي الآخر إنّهم يظنّون أنّهم بالغين غاية الكمال عندما ينعزلون عن كلّ ما يحيطون بهم، يمقتون أنفسهم، يملئون أيّامهم باللوعة والمرارة وبتدمير حياتهم التي وهبتها لهم الطبيعة وأمرتهم أن يكرمونها ويصونوها.

هكذا تشير لنا كلّ ديانات الأرض تقريبا بثلّة من الحمقى الذين بجنونهم يعتبرون أنّ الحقد وازدراء الذات والعبوديّة الطوعيّة والكآبة والبطالة والتنهّدات والقسوة على النفس، وباختصار كلّ الاعتداءات الدائمة على الفطرة والطبيعة دون أيّ نفع فعليّ للمجتمع أو للذات، هي فضائل وحسنات.

وبالرغم من ذلك، فإنّ هاته الأفكار الواهية هي التي يقوم عليها سلوك الكثير من التقيّين والورعين المسعورين الذين تُظهرهم لنا النُّذر

على أنّهم نماذج مكتملة من الكمال. ماهي الفضائل الحقيقية التي يمكن للعقل السليم أن يستشفّها من هؤلاء التائبين التعساء بعد أن ابتدعوا ألف طريقة لتعذيب ذاتهم في هاته الحياة من أجل أن ينالوا النعيم الأبديّ، الذي يفوق الوصف، في الحياة الأخرى؟ ماهي الخصلة التي يمكن لرجل عاقل أن يجدها في هؤلاء المتحمّسين الذين، باعتقادهم أنّهم يتّبعون مقاصد إله ليس لهم أيّة أفكار موثوقة عنه ودين بايعوه شفاهيّة، تحمّلوا الموت بشجاعة تليق بقضيّة أكثر نبلا، الذين واجهوا ألف خطر لكي ينشروا وصومهم العجيبة والذين ظنّوا أنّ الربوبية تعزّهم أكثر عندما يظهرون تعنّتا واصرارا أقوى من الطغاة ومن تعذيب الجلاّدين؟

لقد وُجِد في كلّ ديانات العالم أناس ذي خيال مُتّقِد، عنادا لا يُقهر، شجاعة في كلّ المحن، الذين ظنّوا أنّ ربهم يطلب التضحية بحياتهم التي وهبها إيّاهم والذين بثباتهم في المحن قدّموا عروضا عظيمة ومشهودة ترتعد لها فرائس البشرية ويخجل منها العقل. ولكن الدين يجد فيها حججا وبراهين على رحمته ولطفه، فيزداد تعجرفا بهؤلاء التائبين المشهورين الذين يبدوا أنّهم تجادلوا بخصوص من الذي سيكتشف لهم الطرق النادرة في فنّ تعذيب الذات. ما الذي جنته المجتمعات من الكم الهائل من المنفردين النسّاك عديمي الفائدة والمتزهّدين المتقشّفين ومن الفقهاء المسعورين والتالابوين (أو الراهب البوذي في سيام) الغبيّ

الذين يجّلونهم السّذج في كلّ مكان وتنبهر بهم النُّذر وكأنّهم من أعظم وأروع ما أتت به الفضيلة؟ ما الذي سنشهده في هؤلاء اليائسين وفي سلوكهم الغريب غير الكآبة الدّفينة التي نشأت على فكرة رب همجيّ، وربما غير حب التميّز عن عامة البشر الفانين ولفت انتباههم واعجابهم؟ أيّها التائبين الأغبياء! أ رب كريم تعتقدون أنّكم تعبدون عندما تصبحوا أعداء لأنفسكم؟ فلتعترفوا بجنونكم وعتهكم، إنّه جنّ خبيث، إنّه شيطان، ذاك الذي أنتم له عابدون: إنه أب غريب الأطوار ذاك الذي يبتهج لرؤية أبنائه يتضوّرون جوعا وينتحبون، وأنتم هم الأطفال.

وإنّ الذي تظنّون أنكم أمركم موكول إليه لطاغية مسعور يريد أن يسود الأسى والحزن. وإذا لم يكن دينكم متناقض مع نفسه في كلّ حين، فهل سيقول لكم أنّ الرب الكريم لا يمكن أن يبتهج لعذاباتكم، أنّ الرب العليم بكلّ شيء يعرف ما يصلح بكم دون أن تتعبوه بتوسّلاتكم التي لا تنتهي؟ ألا تستشعرون من تلقاء أنفسكم أنّ تنعّمكم بجوده وكرمه لهو غاية من ضمن غاياته، ألا وهي أنّ تعظّموه وتمجّدوه؟ لو أنّه يحبّ مخلوقاته، ألن يكون في عونهم بقدر ما ينفعهم ويصلح حالهم؟ أليس حب ما صنعت يداه هو من حبّه لذاته؟ ألا يدفعنا نعيم كرمه وجوده إلى حمده والامتنان له؟

ولكن تحت حكم رب نعتقد أنّه عدوّ الجنس البشري أكثر من أنّه صديقه، فإنّ الأذهان تحير وتحملها الأفكار القاتمة على أن تضلّ وتتوه؛ وبالنتيجة اللاّزمة، يُخيّل إلينا أنّنا بالحزن والتنهّدات نعبده ونتّقي شرّه. هكذا كانت بدون شكّ وجهة النظر التي أتت على ذهن ثلّة من المتهوّرين؛ فبالطبع الحاد، وسلوك التقشّف، بالانعزال ويغض البشر، بالمزاج السيء، بالحرمان القاسي وبألف معاناة مقصودة، بدوا أنّهم لم يريدوا أن يعلنوا للناس سوى الطبع الشرّير للسيّد الذي يعبدونه. لابدّ لإله حازم وشديد القسوة أن تتبدّد معه البهجة، ولابدّ أن نتقيّد بمزاجه القاتم والشرس. هكذا اعتقد المُتنذّر في كلّ البلدان أنّه مضطرّ للعيش محتجزا، منفصل عن الملذّات ومفارق للأشياء التي يمكن أن تصرفه عن أفكاره القاتمة.

إنّ الصلف والتكبّر، كما أتينا على ذكره، كان له بدون شكّ النصيب الأكبر في السلوك الغريب لهؤلاء الشخوص الذين جعل منهم الدين أبطاله[1].

إنّ الطرافة أو الغرابة تجلب أنظار العاميّ، يحتار في طريقة الحياة الشاقّة، تبهره قوّة التحمّل والجلد واستعراض القوّة، وينتهي إلى

[1] يمكننا أن نطبّق على التّائبين والكلبيّين في كلّ الأديان ما قاله Quintilienكوينتيليان للكلبيّين في زمانه: أمّا أنتم، في مناخكم الجديد، فقد أسرتكم عبادة البؤس

اعتبارهم ذي شأن وكرامات لدى السماء، ربّانيين وخارقين أولئك الذين يبدون أنّهم قهروا الطبيعة وتساموا على حاجاتها وأصبحوا فوق حكم الضرورة.

لو نظرنا دون تحفّظ للدوافع وراء سلوك أغلب المتحمّسين الذين ينبهر لهم الدين، فلن نجد سوى خيال جامح أو كآبة شديدة قد دفعتهم لاتخاذ هذه الطريقة الشاقة في العيش هذه التي تقوم على الآمال الغامضة زيادة على التكبّر الذي يدعمها وتبجيل الشعوب لهم الذي يدفعون ثمنه أضعاف من الآلام التي يتكبّدونها عن طواعيّة: يُخيّل لهاته الشعوب عن حماقة، follement أنّه لابدّ لربّهم بعدله أن يجازي بني البشر الفانين الذين كانت لهم الشجاعة والعزم على المعاناة وترك الملذّات وهجر كلّ شيء من أجله؛ فهم لا يشكّون أبدا أن هؤلاء الموسوسين بالمرض والمقدّسين لهم الحظوة والمكانة في مجلسه وأنّ صلواتهم له لم تذهب سدى. وأخيرا يقنع التّائب المنيب نفسه أنّه بنعم ربه حقيق وأنّ ربه سيثني عليه ويكون ممتنّا له على جبنه، على كآبته، على تعصّبه وتزمّته وحتى على غروره الصبياني.

لقد تحدّثنا آنفا أكثر من مرّة عن هاته الفضيلة الحائرة والحريصة، هاته الحمّى المقدّسة التي يسمّيها الدين الحميّة؛ إنّها تقوم على التعلّق الأعمى بقضيّة ربه المزعومة وعلى ضرورة مدّ سلطانه. تجلب هاته

الفضيلة، المبجّلة كثيرا والهدّامة، ليس الفوضى للأمّة فحسب بل ولكنّ يكون من يتحلّون بها مدفوعين للمجازفة بأعمال خطيرة يكونون عموما هم أوّل ضحاياها: فالعديد من الطوائف تدين لحميّة هؤلاء المتحمّسين الذين نراهم يجوبون أصقاع العالم دون كلل أو ملل، يحملون نبوءات ربّهم وعقيدته الذي يتهيّأ لهم أنّه، مثل أسياد الأرض الطموحين، يحبّ أن يكتسح العالم ويمدّ في سلطانه، وهكذا يعبرون الصحاري والبحار لكي ينشئون له المستعمرات، وبدمهم وأرواحهم سيذهبون يأتون له برعايا جدد. ورغم ذلك فإنّهم غالبا ما لا يُجازون كفاية على حميّتهم في هذه الحياة الدنيا؛ فالآلهة، التي جعلها أسياد البلد السابقين حوزتهم، تعاقب عليها الجسورين المقدامين الجدد الذين أتوا ليعكّروا صفوها.

لم يجد الدين من كلّ الأهواء ما يمدحه ويجعله لا يُروَّض سوى العجرفة، إنه دم يغلي في العروق، صفراء شديدة اللذعان، إنّه مزاج الغضب الذيّن يشكّلون الغيورين الحماسيّين أصحاب النعرة الدينيّة. أضيفوا لهاته السجايا كثيرا من الجهل من التكبّر والعجرفة والغرور، ويصبح صاحب الحميّة المتعصّب في عناده وتعنّته لا يُقهر.

لا يوجد أكثر تعنّتا من إنسان قد أفسد الدين ضميره، وليس هناك من هو أشدّ تصلّبا من جاهل يظنّ نفسه متعلّم ويتباهى بأنّ له رب يعبده ويدافع على قضيّته، رب يشهد على شجاعته وعلى حميّته. وحتى وإن

يلومونه الناس فإنّه يزداد إصرارا في عتهه وهذيانه؛ فعجرفته واستكباره يسندانه ضدّ العالم بأسره، ويرى في تعنّته أثر من آثار العون الإلهي، ولا يساوره الشكّ أبدا في رجاحة حكمه، يتمادى في غيّه ولا يتدبّر في شيء معتبرا جهالته مقدّسة، يرتمي بتهوّر واستهتار في كبرى المخاطر دون أن يحسب نتائج أفعاله.

إنّ المتعصّب الجاهل وصادق النيّة لأشدّ خطرا ولنا أن نخشاه أكثر من المنافق والدجّال. إنّها شخصيات من هذا النوع، تلك التي نراها في هؤلاء الأبطال الذين يجلبون الفوضى للأمم في عقر دارها ويعكّرون صفوها، الواثقين المتيقّنين من شرعية قضيّتهم، لا تثنيهم أبدا الاعتبارات الإنسانية. حالما يقنعونه أنّه يذود عن ربه، فإنّه دون خوف يثير الفوضى العارمة، والحال أنّه لا يدافع سوى عن غروره، عن جهله المتغطرس وعن وصومه الحمقاء؛ فعلى الكون أن يفنى ونحن وسط ركامه نضحك، سوف يكون الدين بتعنّته دائما قادرا على زعزعة أركان الدول[1].

[1] يتحلّى صاحب الحميّة المتزمّت سوى بالقليل من الأنوار والرأي الصائب. من بين الأمور الأربعة التي يرى اليهود، تبعا لحاخاماتهم، أنّها سوف تدمّر الكون أو تجلب يوم الحساب، نجد الرجل المتديّن جدّا والأحمق جدّا. لقد كان للكنيسة المسيحيّة الكثير من هذه الطيّنة؛ فالأبطال العظماء للمسيحية كانوا طموحين مثيرين للفضول --

تلك هي المآثر القاتلة لمختلف الأبطال التي يزيّن بها الدين رواياته، تلك هي الخصال العجيبة التي يعلن الدين أنّها فوق كلّ الخصال الحسنات، إنّها التقديسات (أو القدّاس) التي يأمر بها الدين بتزمّته ويتعصّبه ضحاياه بالسعي إليها كلّ السعي. التأمّل، الصلاة، العزلة، العطالة، التخلّي عن الدنيا وملذّاتها، ازدراء العقل والخبرة والتجربة والعلوم، التقشّف، استعراض القوّة، وأخيرا الاستبسال في مواجهة الموت أثناء زعزعة أمن المجتمع وتقويض أركانه؛ تلك هي الحسنات العظيمة، التي تميّز بها المؤسّسين والمساندين لعدد كبير من الطوائف، في نظر العاميّ.

تظلّ الشعوب الغبيّة والغشيمة مذهولة لرؤية هاته الشخصيات الفذّة، ولكن اعجابهم بهم لن يكون دون جدوى، بل سريعا ما يغدقون بالأموال والتشريفات والهدايا على هؤلاء المفضّلين من الآلهة؛ فتخلّيهم عن متاع الدنيا يعود عليهم شيئا فشيئا بالثراء الفاحش. إنّ الأمم، التي خدعهم التواضع الراقي لهاته الشخصيات العظيمة، تفقّر نفسها لتثري

ومضطربين أو حمقى متشبّثين بوصومهم ويتعنّتون في التمسّك بها. لقد كان القدّيس أثناسيوس، القدّيس سيريل وتوماس بيكيت دي كانتربري لدينا منشقّين أو مجانين تحرّكهم المصلحة او الحماقة في إرباك الدولة لإرضاء ضمائرهم. إنّ الجهالة أصل الورع والجهالة المتعنّتة والفائرة الملتهبة هي أصل الحميّة.

أولئك الذين نذروا أنفسهم في البداية للفقر؛ تسارع في تشريف واعلاء شأن أناس جعلوا مجدهم في ازدراء الرفعة والعظمة، وفي البذخ تغرق أولئك الذين كانوا قد رفضوا في البداية كلّ ما هو ضروري.

هكذا كان الخلفاء التابعين للمتحمّسين الحمئين المعدمين قد أسّسوا الديانة المسيحيّة، وأصبحوا شيئا فشيئا أمراء نافذين يمشون جنبا لجنب مع الملوك الذين غالبا ما أرغموهم على فسح الطريق لهم [1]. لقد جعلهم التوقير المتوارث منيعين لا يُقهرون في أعين الشعوب التي انتبهت إلى أنّه لا يوجد لديهم أدنى أثر للحسنات السخيفة التي أثارت إعجاب أسلافهم.

[1] كانت جريمة القتل في إنجلترا تحت حكم ملوكنا الساكسونيين يُكفَّر عنها بخطيّة مالية. لقد حدّد قانون ألفريد ثمن الحياة الملك نفسه؛ ولكن حُدّد ثمن حياة رئيس الأساقفة الرئيسيات على أنّه أغلى من ثمن الحاكم. يُمثّل البابا في القانون الكنسي للكنيسة الرومانية بالشمس والإمبراطور يُمثّل بالقمر: على هذا الإمبراطور أن يكون تابع للبابا الذي لا يتبع أحدا. يملك البابا سيفين، أحدهما روحي والآخر دنيوي؛ السيف الدنيوي بين يدي الملوك ولكنّه لا يُستعمَل إلاّ بموافقة الحبر الأعظم ورغبته. إنّ مبرد الإمبراطور لا يمكنه أن يعمل إلاّ بين يدي البابا. مراسيم كراتيان، الكتاب الخامس (مرسوم كراتيان هو مؤلّف جامع للقانون الكنسي تمّ صياغته سنة 1140 ميلادي، يضمّ أربعة آلاف نصّ قانوني. المترجم)

لا يسعنا أن نكرّر القول بأنّ الفضيلة هي المنفعة للجنس البشري؛ فالعطالة لا يمكنها أن تكون نافعة، ولا يمكن للتأمّل والصلاة والاعتزال أن يكونوا مفيدين، والاستشهاد والعذاب الجزافي واعتزال الناس والمرارة والتعصّب والتعنّت لا يمكنوا أن يعدّوا من الحسنات والفضائل.

وهكذا يبدوا أنّ النُّذر، بفضائلها الكاذبة وبتفضيلها إيّاها على الفضائل الحقيقية، بالفرائض الواهية الغريبة التي أحلّتها محلّها، قد أُبتدعت لكي تضعف أو تدمّر الأخلاق التي أبدا لم تعاضدها أو تسندها، وآخرا، إنّ المعتقدات والمبادئ المؤسّسة لدين من الأديان، التي تعبد ربّا يتّسم بمثل هاته الخصال، لا تتوافق مع العقل السليم. سوف تصبح المبادئ والأصول مترنّحة ومشبوهة، حتى وإن أقررنا بوجود إله خيّر، حالما يصبح هذا النمط من الفرائض التي نتّبعها لا يخضع للقواعد المألوفة، أو أنّه ينزاح ولو للحظة عن قيم الإنصاف والكرم والطيبة والبرّ،

كيف يمكن الجمع بين الأخلاق الموثوقة وبين الدين الذي يتمثّل أوّل معتقد له في كون الربوبية قد أحلّت أن يسقط الإنسان، وهو أعزّ مخلوقاتها وأكرمها، في الغواية التي وضعتها هي في طريقه ونشرت الخطيئة في الأرض لكي تعاقبه وتلحق بالخزي والعار عرقه البريء

الطاهر؟ هل من الممكن ملائمة الأخلاق مع دين يخبرنا أنّ رب قد خدع عباده ويعاقبهم بغير عدل ويجعلهم ألعوبة نزواته الفظّة وشطحاته المعتوهة؟ وإذا ما أردنا أن نضمّ دين بشع وفظيع إلى الأخلاق الحميدة، هل ستكون هاته الأخيرة تابعة لهذا الدين أو العكس، أم أنّنا سنكون غير واثقين من كلّ شيء؟

الفصل الثالث عشر

النُّذر تطمس الأفكار الصحيحة عن الخير في المبادئ الطبيعية والفطريّة للأخلاق

ومن التناقض الصارخ الموجود غالبا بين المعتقدات الأساسيّة التي تعلّمنا إيّاها كلّ الأديان وبين المبادئ الحقيقية للأخلاق تنتج عوائق حادّة وملحوظة لهاته الأخيرة؛ فالأخلاق دائما ما تكون صريعة المعتقد، وجرّاء هذا التصادم غالبا ما تكون مُستضعفة أو مُحطَّمة. إنّ العقيدة نازلة من السماء وهي التي يتأسّس عليها الدين، ولابدّ لها بالنتيجة أن تغلّبه على الأخلاق، التي هي من وضع الإنسان ولا يتعدّى غرضها شؤون الجنس البشري في هذه الحياة. إنّ العقيدة لا تتغيّر، والإيمان ثابت؛ فالمتديّن يفترض أنّ الأحداث التي تُروى عن الربوبية صحيحة لا لبس فيها ولا نقاش، وعليه فإنّ هاته الأحداث لا بدّ أن تضبط سلوكه، عليه أن يقتدي بربّه، وحتى وإن ارتكب هذا الرب الأفعال الشنيعة والموحشة، فعبثا سوف يحاول العقل أن يصرفه عنه، ذلك أنّ العقيدة الأكثر تبجيلا هي التي سوف تعلّمه ما الذي يجب فعله.

في دين يعلّم أنّ الربوبية قد كانت في ألف مناسبةٍ الصانعة للإثم أو المحرّضة عليه، تدعوا للظلم، للإكراه والاضطهاد والتعصّب، لا يمكننا أن نرى بأيّ حقّ ستخوّل الأخلاق لنفسها أن تأمر الناس بالامتناع عن

العنف والإكراه وأن يعيشوا في سلام، ألاّ يحيدوا عن قواعد العدل والأخوّة والإنسانيّة. وإذا ما ردّ علينا أنّ هذا الرب نفسه قد أتى بالبراهين عن لطفه وكرمه ورحمته، فستكون النتيجة أنّه يمكن لمن يعبده ويقتدي به أن يكون خيّرا وشرّيرا وفقا لطبعه وسجيّته وللظروف والأحوال التي تسوّغ له ذلك.

وهكذا، فإنّ الأخلاق التي تلقّنها كلّ الديانات، التي تفترض وجوبا إلها متقلّب المزاج، سوف تكون دائما أخلاقا مشبوهة؛ سوف ترتهن لمصلحة ونزوات كلّ متديّن متنذّر ولوجهة النظر التي ينظر بها لمثله الأعلى السماويّ، الذي تارة يظهر له بخصال الخير وتارة بخصال الشرّ. فله أن يختار أيّ ربّ يشبهه ويقتدي به.

أسألوا الديانة المسيحيّة هل أنّ الإنسانيّة والوئام وحب الجار فضائل، وسوف تجيبكم دون تردّد بأنّ مؤسّسها يوصي بأنّ هاته السجايا هي الفضائل الجوهرية لإرضاء الربوبية: اطلبوا من وزراء هاته الديانة نفسها هل أنّ موسى القاسي والعتيّ، هل أنّ داوود وعديد الملوك السفّاحين الغيورين، أصحاب الحميّة الذين ذبحوا اضطهدوا وعذّبوا المهرطقين كانوا ودودين ومرضيّين عند ربّهم؟ سوف يقولون لكم أنّ الحميّة المقدّسة كانت تنهشهم، وأنّها لابدّ أن تغلب على الإنسانيّة وعلى اللطف والرفق وحبّ الجار.

لا يمكننا، رغم ذلك، أن ننكر أنّ الدين يتّفق أحيانا مع العقل. من المهمّ جدّا، من أجل خداع البشر، تغليف الباطل بالحقيقة؛ لابدّ من إقناعهم بأنّه يُرادُ لهم الخير والنعيم، لابدّ من إغوائهم وإبهارهم، سوف ينتفضون لامحالة على دين يتعارض بجلاء في كلّ شيء مع غايات فطرتهم وطبيعتهم ويصرّح أنّه أتى لتقويض الأخلاق.

هكذا فإنّ الدين محمولا على أنْ يتكلّم بلغة العقل، الذي يحرّم مع ذلك استعماله والاسترشاد به؛ إنّه محمولا على استخدام الأخلاق من أجل شدّ البشر الفانين إليه، يغريهم حواريّيه ومبشّرين باعتدالهم وتواضعهم، بالحسنات الظاهرة، بآدابهم الصارمة، بسلوكهم المنضبط وبدروسهم المفيدة التي يمزجونها بحماقاتهم. وبهذه الطريقة تمثّل الأخلاق موطئ قدم يستخدمه الدين أحيانا للاعتلاء على العرش، ولكن حالما يعتلي الدين العرش يزدري الأخلاق ويتجاهلها ويجبرها على التخلّي عن الصدارة لهاته الأخلاق الزائفة التي لا أساس لها سوى ما أتى به خيال الكهنة وما اقتضته غاياتهم ومآربهم.

وهكذا، فإنّ الفضائل التي تتأسّس على الروابط القائمة بين المخلوقات الضعيفة هي فضائل ثانوية؛ ولا يضير الدين شيئا إذا ما قُورنت بتلك الفضائل التي ينشئها على روابط وهمية.

أينما كان النظام الديني هو المهيمن فعلى مصالح الأرض وشؤونها أن تكون تابعة لزوما لمقاصد السماء وغاياتها؛ إذا كان الرب يوصينا بالقسوة والبطش، أن نكون متزمّتين ومتمرّدين، فعبثا تدعونا الأخلاق والسياسة أن نكون إنسانيّين، عفّويين متسامحين وراضين. حالما تكون النُّذر هي الأقوى، يكون العقل مكرها على أن يخرس وتصبح الأخلاق خادمة لها ولا يُسمَعُ صوتها إلاّ بقدر ما تنطق بها يتوافق مع أهداف وغايات سيّدتها المتسلّطة المعتوهة التي دائما ما تنطق بالهراء والهذيان. وحده الدين من يلقى عند الخالق الآذان الصاغية، وحده من يحوي مقاصده المكنونة والخفيّة، لا أحد سواه له القدرة على اغاظته أو إرضاءه؛ وبالتالي، وجب علينا ألاّ نتّبع غير الدين ولا شيء يمكن أن يحلّ محلّ تعاليمه أو يضاهيها في الأهميّة.

ليس علينا سوى فتح أعيننا لكيّ نرى عجز التصوّرات الدينيّة على اصلاح حال الناس؛ فأفكار الناس عن رب يعاقب ويثيب لا تقوى على أهواءهم حتى وإن كانوا على أشدّ الاقتناع بها. إنّ الطغاة والكهنة أنفسهم، الذين يؤسّسون حقوقهم على مبادئ الدين، ليسوا أكثر عدلا ولا أكثر انضباطا في آدابهم وليسوا أخيارا وأكثر فضيلة: ماذا عساي أن أقول، لقد بيّننا أنّ الأمم الأكثر تديّنا وأصوليّة هي عموما أكثر جهلا بالأخلاق الحميدة من غيرها.

لا يجب أن نتفاجأ لهذا؛ فالدين يقنع الناس أنّه يكفيهم ويضع لهم أخلاقا تتلاءم مع مصالح وزرائه؛ يكفّر عن كلّ الجرائم والآثام، يسكّن كلّ إحساس بالذنب ويصالح بين الناس وبين ربهم. بالحظوة العظيمة التي يتمتّع بها، يمنح النعيم الأبدي حتى لأولئك الذين لا يستحقّونه؛ هل يمكن أن يتساوى ميزان هاته الميزات والفوائد التي يوفّرها الدين مع ميزان الميزات التي توفّرها الأخلاق؟

على أيّة حال، ليس هناك أسهل من أن نكون متديّنين، بيد أنّ حسب التكوين الحالي للأشياء، لا شيء أصعب من أن نكون خيّرين وفاضلين. إنّ العالم مليء بالمتديّنين، وفي الأمم قاطبة، التي لم يرتاب فيها أحد في العقائد التي يأتون لهم بها، هل تكون الفضيلة والخير فيهم أكثر شيوعا؟ هل تكون المجتمعات أكثر سعادة وهناء عندما يحرص الطغاة الذين يقمعونهم على ممارسة الشعائر الدينيّة؟ هل تكون الأمة أقلّ استياء لأنّ حاكمها، المستبدّ والورع والمصحوب بحاشية منافقة متزلّفة، يذهب للمعبد يتضرّع ويتوسّل رحمة السماء وعفوها لشعب حكم عليه بقمعه وظلمه أن يعيش في البؤس؟

يبدوا أنّ الدين لم يُقَام إلاّ للتلاعب بالناس أو إلهائهم عن المتسبّبين الفعليين في مآسيهم. ما الذي يهم الأمم إذا كان من يحكموهم متديّنين أو كفّار؟ هل أنّ الطاغية المؤمن والساذج أقلّ طغيانا من الذي لا يؤمن أبدا

بالدين؟ هل أنّ الوزير وحاشية الملك وبطانته والكاهن، الذين ينهبون ويخادعون ويضطهدون الشعوب، إذا أُناس أقلّ ضررا لأنّهم يجمعون الجهل والإيمان مع كلّ جرائمهم؟

إنّ الدين، وهو أبعد ما يكون على جعل الناس أخيارا، يمكّنهم من كلّ ما يعفيهم من أن يكونوا أخيارا وصالحين؛ فهو يبارك احتيال الكهنوت ويضفي عليه القداسة ويُسوّغ لجرائم الطغيان ويكفّر عنها ويُقرّب إلى الرب كلّ أولئك أهانوا وانتهكوا حرمات مخلوقاته التعيسة. وهكذا فإنّ الدين، عوض أن يجعل الأخلاق أكثر تبجيلا، يدعوا لخرق قواعدها ويقتل ضمائر الناس ولكن لا يجعل أبدا الخبيث انسان صادق وخيّر.

فليكفّوا عن الحديث عن هاته التغييرات الرائعة التي يُحدثها الدين في قلوب البشر، عن هذا الهدي والتوبة المبهرين والتحوّل للدين الجديد الذي، حتى باعتراف أولئك الذين يتفاخرون به، لا يعدّ من النعم الربانيّة الواسعة.

وبأمانة، هل تجني الأخلاق الحقيقية الكثير من هاته التغييرات المذهلة ومن هاته الثورات المباغتة التي تحدث في مزاج أو سلوك بعض الناس الذين تأثّروا بالدين؟ هل وقع التعويض للمجتمع عن الشرور والآثام التي عانت منها طويلا، لأنّ مرتكبيها قد قرّروا أن ينحازوا

للمعابد ويضاعفوا صلواتهم، أن يصوموا ويتقشّفوا، أن يعتكفوا ويهربوا من الدنيا ويمتنعوا عن ملذّاتها دون أن يخطر ببالهم أن يصلحوا ما فعلت أيديهم من شرور؟ هل سيتجرّأ الدين على التفاخر بأنّه أصلح الميول والسجايا الشائعة التي تجرّ الإنسان لاقتراف المعاصي؟ هل سيجعل من غازي مزعج، ينكّد على رعيّته وجيرانه، ملك مسالم منشغل بإسعاد إماراته ومقاطعاته؟ هل سيصلح قلب مُتحجّر لبخيل قضّى حياته كاملة في جمع المال؟ هل سيحمل حاشية متعالية ومتغطرسة ووزير ظالم على التراجع عن مضايقاتهم وإذلالهم للناس وعن تكبّرهم المتعجرف؟ هل ستُلزِم سارق الملك العام أن يعيد أملاكه للمجتمع أو أن يكفّ عن السلب والنهب؟

كلاّ، بدون أدنى شكّ، فنادرا ما يأتي الدين بمثل هاته المعجزات. ما الذي نتج إذا عن هاته التغييرات العظيمة التي نعزوها إليه والتي يظهرها وكأنّها قادرة على أن تبهج الربوبية بمجلسها السماوي؟

يرجع كلّ واحد إلى مزاجه في الأخذ بالعلاج الذي يعرضه الدين، فيختار ما يشبه أهوائه وغاياته وما يكلّفه أقلّ. وهكذا، يصبح الإنسان الغضوب اللجوج الملحف والساخن دمه متحمّس صاحب حميّة، يكره الناس ومتعصّب؛ يغدوا الإنسان ذو الخيال الواسع متعصّب متطرّف، أمّا سريع الغضب والمتشائم والكئيب فيذهب للاعتكاف ليغذّي وحشته

باعتزاله للبشر، ويقبل البخيل بتقشّفه وبالصوم المتواتر وسوف يغدق الثري الميسور من ماله على الفقراء، والمرأة التي كانت فيما مضى ماجنة ومنحلّة، وبعدما ضجرت من العشق والغراميّات، سوف تعشق ربّها بكلّ حرارة طبعها المتّقد حيويّة وستصبح على الأرجح ورعة مُلهَمة.

وهكذا، كلّ أولئك الذين أثّر فيهم الدين سوف يُطلقون العنان لأهوائهم المعتادة والشائعة، سوف يعتقدون أنّهم يرضون ربّهم وهم ينساقون، تحت ناظريه، لنزعاتهم ولميولهم.

تتمثّل التغييرات العجيبة التي يحدثها الدين دائما في تغيير وجهة الأهواء من الرغبات والمآرب الاعتياديّة إلى الأوهام والخيالات؛ وتكتفي علاجاته بوضع علاجات نفسية فكرية وخيالية على سقم فعلي.

لا يجني المجتمع شيئا من الورع المضني، من الصلوات والصوم الغير مجدي، من تقشّف غبي أو تزهّد، من هذا الانتشاء التي حلّ محلّ السيّئات والشرور لدى أولئك الذين عكّروا صفوه.

هل سينصلح حال أمّة، قد أشتدّ بها الطغيان طويلا، منهوبة ومعدمة إلى حدّ التسوّل، بالندم والتوبة لملك جبان عاجز يطلب، وهو على فراش الموت لم يعد يقوى على الإيذاء، المغفرة من ربه على الشرّ الذي ارتكبه في حقّها طيلة حياته؟ إذا كان هناك من يستحقّ أن يموت في اليأس والاحباط فسيكون بدون شكّ هؤلاء المجرمين سفّاكي الدماء

الذين لم تكن حياتهم سوى صرح من المعاصي والجرائم؛ ويجب على الدين ألاّ يبعد عن مرقدهم مشكاة الغضب والحنق ليكونوا قدوة عبرة لمن يعتبر أو على الأقلّ يدفع الكبائر من الجرم والسوء، فعذابهم وندمهم سوف يؤثّران ربّما في هؤلاء الوحوش القاسية قلوبهم الذين يلهون بشقاء الشعوب وآهاتها وأنينها.

ولو افترضنا أنّ التغييرات، التي تحدثها الأفكار الدينية في قلوب الناس، نافعة وفعلية ومتواترة أكثر ممّا هي عليه حقيقةً، فسوف نجد دائما إذا ما قمنا بقياسها، أنّ المحاسن التي تحدثها النُّذر في الناس لا يمكن مقارنتها بالشرور المتواصلة التي لا حصر لها، والتي هي توابع آنيّة وضرورية لها.

وإذا ما أثّرت أحيانا تهديداتها ووعيدها وترهيبها في آداب بعض الأفراد وإذا ما ألجمت الأهواء الهيّنة وردعت بعض الناس المستحين المحتشمين، الذين كبحتهم آنفا الخشية من القوانين أو أمزجتهم أو التربية والرأي العام، فهل تستطيع هاته الفوائد القليلة أن تعوّض للجنس البشري عن الجراح المتكرّرة والمستجدّة التي سبّبها له التعصّب على مرّ الأزمان؟

إنّ الفوضى والفتن التي يحدثها الدين شاسعة متّسعة ويومية وتعاني منها في كلّ لحظة أمم بأكملها؛ فالخير الذي يمكن أن تحدثه، إن وُجِد،

قليل وشخصي وخاص وينحصر في ثلّة من الأفراد الذي لا يميلون بطبعهم لفعل الشرّ. مقابل يد تكفّها تشكمها الخشية من الآلهة، يوجد مئة ألف يد تسلّحها وتشحذها للتدمير. إنّ الفظاعات الدينية آفات لا يمكن، أبدا إذا ما أُوقدت، للعقل ولا القوانين ولا القوّة السيادية للدولة أن يوقفوها.

وصفوة القول، إذا ما قمنا بتقييم مكاسب الدين وعيوبه، سوف نرى أنّ الشرور التي تسبّب فيها هائلة كبيرة كبر المحيط، وأنّ الخير الذي يمكن أن يحدثه قليل كقطرة ماء. فلنقارن إذا الحروب، الملاحقات، المضايقات، الفتن، الاغتيالات والإكراهات التي ارتكبوها من يحملون اسم الرب على كوكبنا؛ فمع الخير، الذي كان له أن يحدث في كلّ قرن بفضل السلوك الحسن لبعض الرجال الذين كانوا، حتى بدون وجود الدين، أُناس شرفاء، هل يكون هذا الترياق، الذي لم نندّد به باطلا لأنّه سمّم أمما بأكملها، مفيدا لأنّه أبرأ مواطنيْن أو ثلاثة، أو لأنّه لم يهلك بعض الأفراد ذوي البنية السليمة والقويّة أكثر من غيرهم؟ إنّه قطعا من السموم القادرة على أن تشفي أحيانا، أو بالأحرى تسكّن الآلام مؤقّتا، بعض الناس الأصحّاء ذات البنية القوية، ولكنّها تهلك في النهاية العدد الكبير من الذين يستعملونها.

بقدر ما سوف نتفحّص واقع الأمور بقدر ما سوف نكون محمولين على الاقتناع بأنّ الدين كان في كلّ الأزمان المشعل المنارة التي لم يفعل ضوءها الخادع سوى أن أضلّ البشر وألهب معيشتهم. لم يفعل هذا المشعل الذي رفعه التعصّب والدجل والطغيان سوى أن أذكي الأهواء العاتية، الفظاعات الجامحة التي لا تهدأ، الفتن والنزاعات المميتة، ولم يفعل سوى أن أتى بالثورات الدامية.

وبسبب النزاعات الدينية، الناتجة لزوما عن النظم التي لا أساس لها سوى ما احتوت عليه مخيّلة أصحاب الحميّة المتحمّسين، أو ما اقتضته مصلحة الماكرين المخادعين الذين لا ضمان لهم سوى تعنّت الجاهلين المتعجرفين ولا برهان لهم سوى التسلّط والإكراه، كان الإنسان دائما منفصلا عن أخيه الإنسان وقلبه تمزّقه الأحقاد الدفينة ولم يمنحه التطيّر والتنذّر النشاط إلاّ لإلحاق الأذى بنفسه والتنكيد على المخلوقات العزيزة عليه بحكم الطبيعة. عوض أن يلهمه الخير والفضيلة، فقد جعله الدين بالأساس ظلوما ولاإنساني ومتحامل مندفع وشرّير، وإذا ما جعله مسالما فلأنّه لم يفعل سوى أن أغرقه في الحزن والقنوط والخمول والكسل والتقاعس.

ورغم تبجّحه بأنّه يحصّنها، فقد قوّض الدين فعليّا الأسس الحقيقية التي تقوم عليها الأخلاق؛ فهو يجعل منها بناء صرحا عائما في الهواء

عندما يؤسّسها على آلهة لا تدركها الأفهام، على نبوءات لا يصدّقها العقل، على تعاليم باطلة سخيفة ومتناقضة، على تنبؤات غالبا ما تهاجم الطبيعة والعقل ومصالح الجنس البشري. إنّ الفضائل التي يوصي بها والفرائض التي يأمر بها ليست فقط صبيانية وغير نافعة، ولكنّها غالبا ما تكون أيضا غير محبّبة للحكمة. وأخيرا، فإنّ كلّ شيء يبرهن لنا أنّ المتديّن لا يمكنه، إذا كان غير متناقض مع دينه أو إذا لم يتخلّ عن المبادئ الهدّامة في دينه الذي يطلب منه أن يضحّي بالغايات البديهية والبيّنة للفضيلة وللعقل نفسه حالما يتعلّق الأمر بالغايات الخفيّة للربوبية، أن يكون إنساني ومتسامح وخيّر.

فلنفرّق إذا ونهائيّا بين الأخلاق وبين الدين الذي لا ينسب نفسه إليها إلاّ لتدميرها، ولنكفّ عن الخلط بين هاته الأخلاق البيّنة الجليّة وبين كتلة من الأوهام والخرافات التي تشوّهها منذ قرون عديدة إلى أن جعلتها غريبة مجهولة، ولنفصل الحقيقة عن الخليط النجس بين الزور والدجل؛ فلنظهرها جليّة برّاقة للناس وليستنيروا بنورها ويهتدون بها، وبخطى ثابتة يمشون نحو المنفعة والخير الفعلي اللتان بهما ترتهن سعادتهم في هاته الحياة.

لنطفئ المشاعل الداكنة للنُّذر التي، بعدما أعمت أعيننا، تجعلنا نمشي نتحسّس الخطى وتجعلنا نترنّح في كلّ خطوة والتي، بتعلّة أنّها

تقودنا لسعادة بعيدة المنال نتخيّلها في السماوات، لا تسمح لنا أبدا أن ننظر تحت قدمينا وأن نستمتع بما بين أيدينا من السعادة. لنقدّم للناس، عوض تلك الأخلاق الغامضة القاتمة والخارقة للطبيعة، أخلاقا واضحة ومؤنسة وطبيعية؛ فالدين يقوم على الحميّة وكلّ عجيب وبديع، أمّا الاخلاق فتهتمّ بمشاغل الناس بينما الدين يهتمّ بمشاغِل أعداء الناس. الأخلاق لها الخبرة والتجربة، العقل والحقيقة كضمانة، أمّا الدين فليس له من ضامن غير الجهل والكذب والخداع والجور.

تُربّي الأخلاق قلب الرجل، تدلّه على عزّته وكرامته، تعلّمه حقوقه، تبعث فيه الحركة والنشاط والجرأة والإقدام، أمّا الدين فيذعره ويحطّ من شأنه ولا يشغله سوى بحقارته، يكبح جماح روحه الفيّاضة، يلقيه في اليأس والقنوط وينتهي عموما بأن يجعله مسعورا. تدعوا الأخلاق الإنسان لأن يعمل على اسعاد نفسه والدين يأمره أن يحرم نفسه من كلّ ما من شأنه أن يجعله سعيدا مخافة أن يجرّ على نفسه غضب إله يبتهج لرؤية مخلوقاته المنكوبة تئنّ. تدعوا الأخلاق الإنسان ليحبّ المخلوقات التي تحيط به، أمّا الدين فيدعوه أن يحب قبل أي شيء طاغية بشع حقير يجعل من عطفه على المخلوقات الوضيعة جرم عظيم. الأخلاق تدعوه أن يكون رقيق وإنساني، مسالم ومتسامح، والدين يجعل الحميّة فريضة عليه ويأمره أن يكون ظالم وحقود ومنشقّ ومثير للفتنة كلّما تعلّق الأمر

بقضيّة ربّه أو قضيّة كهنته. تحثّه الأخلاق على تحكيم عقله والدين يجعل منه آثما لو أصغى لصوت عقله. لابدّ إذا أن تكون هناك حدودا ثابتة تفصل للأبد بين مملكة الأخلاق ومملكة الدين، فلا يمكنهما أبدا أن يتّحدا، ولا يمكن أن تكون لهما نفس الغايات والأغراض، ولا يمكن لرعاياهما أن تتّحدان، وأهل الأخلاق لا يمكن أن تكون صديقة لأهل الدين ولا يمكنهما أن يقاتلان تحت نفس الراية.

لينتهوا إذا من القول لنا أنّ الأخلاق بدون عون الدين ستكون ضعيفة قاصرة على جعل الناس أخيارا وطيّبين. هل سيكون إذا، تلقين كائنات عاقلة الحقائق النافعة والملموسة منذ نعومة أظافرهم أصعب من تلقين أضغاث أحلام وأوهام مضرّة وخالية من كلّ مصداقيّة، المتناقضات المتضادّات المحسوسة والألغاز والخرافات الصادمة والمروّعة والمقزّزة؟

أيكون من الأيسر علينا أن نجعلهم يفهمون ماذا يعني إله محتجب في السحاب من أن نجعلهم يعرفون الإنسان وطبيعته الحقيقية؟ أضيرا نجده في جعلهم يستشعرون واجباتهم وفرائضهم الحقيقية ويتبيّنون السلوك الذي عليهم أن يسلكوه فيما ينفعهم ويصلح حالهم، عوض ملأ أذهانهم بفرضيّات غير مفهومة، بمعتقدات عجيبة أو تكليفهم بمواسم واحتفالات تافهة وشعائر مزعجة وطقوس لا يفقه العقل السليم نفعها

ومغزاها؟ أيكون الإنسان مجبولا بطبعه على اعتناق الآراء الباطلة والمهينة أكثر من الأخذ بالحقائق التي من شأنها أن تسمو بروحه وتجعله يرى النبل في ذاته، أن تواسيه وتعطيه الدفع؟ أيكون إقناعه بأن يحب نفسه ويقدّر ذاته وبأنّه مخلوق لكي يسعى في اسعاد نفسه أصعب من إقناعه بأن يكره نفسه ويلحق الأذى بها وأن يحزنها وينكّد عليها؟ أنجد سهولة في تدميره وفي استرقاقه وفي تحقيره، ولا نجدها في اطْلاعه على صلاحيّاته وحقوقه؟

خلاصة القول؟ هل يمكننا أن ندّعي، عن أمانة وصدق النوايا، أنّ كائن عاقل قد صعب عليه أن يشحن في ذاكرته الدروس البسيطة والجليّة والبديهية للأخلاق الأصلية أكثر من التعاليم الغامضة، أكثر من الخرافات والحكايات العجيبة، أكثر من العقائد الباطلة والألغاز والأسرار وعقود الإيمان التي احتوى عليها دينه؟ هل أنّ مفهوم الفرائض الأصيلة للإنسان وتطبيقها أصعب في فهمها من مكوّنات أيّ فن من الفنون، من مبادئ علم من العلوم أو حتى من المعارف والخبرات المعقّدة التي تقتضيها غالبا أيّ صنعة أو حرفة؟

علينا أن نهاجم اللاّهوت وسفسطته الجوفاء الذي بسببه أصبحت الأخلاق علم غامض، يعجّ بالأحاجي والألغاز والتناقضات، يصعب فهمه حتى من أولئك المتبحّرين في العلم. وبسبب اللاّهوت، كان علم

الآداب القائم على مبادئ ثابتة لا تتغيّر خاضعا لنزوات الآلهة أو بالأحرى نزوات أولئك الذين تمكّنوا من استنطاقها[1].

لقد بيّنا على امتداد هذا الكتاب الآثار المشؤومة للتصوّرات المحبطة التي أُلهمت للبشر الفانين حول الربوبية، التي كانت تتغيّر وفقا لأغراض الحميّة والدجل وحسب مقتضيات المصلحة؛ فهي دائما مستبدّة وظالمة وغير-أخلاقية، دائما ما كانت مثالا يُحتذى به رغم الصفات البشعة والفظيعة التي كان يحلوا لنا أن نسمها بها. لقد تحوّلت هاته الربوبية إلى البذرة النواة الأخرى لكلّ ضلالات الجنس البشري وانحرافاته، فالطبيعة بحضورها اختفت ولم يعد العقل لنا مرشدا، لم يعد للإنسان من إخلاق غير التي يفرضها اللاّهوت المرعب والغامض والمتناقض مع نفسه. لقد كان الدين وحده الذي يشدّ انتباه الناس، فظنّوا أنّهم مؤدّبين وأخيارا فاضلين وأنهم يوفون بكلّ فرائضهم عندما يتمّمون بإخلاص ما أُمروا به من أحكام الشرع الغير نافعة والجائرة التي تُنزَّل عليهم من السماء.

---

[1] إنّه من السهل علينا أن نرى أفلاطون وفيثاغورس اللذان نهلوا أخلاقهم الغامضة من الكهنة المصريين. إنّ الأخلاق هي العلم الأشدّ وضوحا وبساطة من كلّ العلوم الأخرى؛ فجعلها غامضة يعني جعلها غير نافعة، ونجعلها غير مفهومة عندما نخلطها نمزجها بالدين الذي ليس سوى نسيج من الحكايات ومن الإيحاءات والمجازات والألغاز.

عبثا تناديهم الفطرة والحقّ أن يتفكّروا في الأرض وأن يهتمّوا بسعادتهم في الحياة الدنيا ويسعوا في نيلها، أن يقطفوا ثمار العقل الذي يدعوهم أن يكونوا أخيارا وعادلين، متسامحين ومسالمين. لقد أرادوا العجب العجاب فكانت لهم النبوءات الإلهية والغامضة والخارقة للطبيعة، ولقد حوّلتهم هاته النبوءات المذهلة إمّا حيارى، انطوائيين وتعساء، أو عاجزين على معرفة ما الذي عليهم أن يأخذوا به.

وخلاصة القول، إنّ أخلاق الفطرة والطبيعة كانت مسحوقة تحت سلطة الدين الذي كان يحظى بالتفضيل، والعقل البسيط كان مجبرا على التواري وأن يترك المجال لكلّ ما هو عجيب، وصوته لم يكن أبدا مسموع كلّما خُيِّل إلينا أنّنا نسمع الصوت المخيف للقاهر مالك الملك مدبّر كلّ شيء. لقد أصبحت الأخلاق علم معقّد لفّه اللاّهوت بالغموض وأحكم سيطرته عليه. لقد كانت مشبوهة ومتقلّبة، ولم يكن لها أبدا مبادئ ثابتة وموثوقة، وغالبا ما كانت تصطدم مباشرة بقوانين الطبيعة؛ وكانت بالتالي المصلحة العامة وخير الشعوب مكرهان على التنازل وترك المجال للتعصّب أو الالتجاء إلى التعقيدات اللاّمتناهية تجعلها في وفاق مع الأحكام الغريبة والغير معقولة لهذا الملك الخفيّ الذي احتكر لنفسه الحق في حكم الأرض عن طريق وزرائه وممثّليه البشعين.

لقد تمّ الدوس على حب الإنسان الفطري لنفسه وعلى الرغبة في المحافظة على بقائه وفي جعل حياته سعيدة، على مشاعر العطف والألفة التي يدين بها لبني جلدته، على مصالح الدولة ونمائها وأمنها بأوامر رسميّة من الربوبية التي تريد من الإنسان أن يجتهد بلا هوادة في جعل نفسه تعيسا وشقيّا في عالم قيل له على أنّه مجرّد ممرّ عبور لعالم آخر.

لقد قوّض الملوك، الذين ألهتهم النُّذر، أركان الأخلاق، ولقد أُعتبرت نزواتهم وأهوائهم وهذيانهم قرارات ومراسيم منزَّلة من السماء؛ لقد أُجبِرت شعوبهم على الإذعان وكانت المؤسّسات والأجهزة المناهضة للأخلاق الحميدة والوصوم الخطيرة والقوانين الظالمة غالبا ما تضبط سلوك الرعايا وتصرّفاتهم. والرعايا لم تكن لهم أدنى فكرة على الخير أو الشر، فيظنّون أنّهم مُخوّلين لفعل السيّئات حالما يَسمَح بذلك الحاكم أو حكم الرأي والظنّ والعادة.

وهكذا بدت الحرب والمجازر، السلب والغزو والنهب والنيّة السيّئة والمكر والخداع السياسي وكأنّها أمور مشرّفة ومشروعة وضرورية عندما يأمر بها الملك أو تقتضيها مصلحة الدولة المزعومة وحالما يدعوهم أهل القدوة لفعل ذلك.

وبالنتيجة، فقد انعدمت العدالة من فوق الأرض وأصبحت منبوذة وقلّ فيها الخير والفضيلة؛ على هذا النحو لم تعد السرقة جريمة عندما يجد فيها الملك مصلحته، وتحوّلت الاعتداءات الدامية على الفطرة

البشرية في ذهن الشعوب إلى أفعال مشرّفة ومحمودة حالما يأمر بها أو يباركها الحكّام الذين ذهب بهم الظنّ أنّ إحلال بيدهم الحلال والحرام، والأخلاق أصبحت تبعا لذلك خادمة لمآربهم، مثلما هي تابعة لمشيئة الآلهة.

ومع هاته العلل القويّة التي أفسدت الأخلاق وجعلتها مشبوهة ومترنّحة، لنلحق لنضيف إليها أيضا هاته العادات الضارّة والآثمة، هاته الوصوم المهلكة التي تشكّل الرأي العام والتي أثّرت على الدوام في سلوك المواطنين وأفكارهم والتي أحلّت أو سوّغت للأفعال الأشدّ للخير والفضيلة ولمشاغل الجنس البشري ومصالحه.

وكحصيلة لهاته التصوّرات الفاسدة، كانت الفضائل الفعلية مُحتقرة ومحلّ سخرية واستهزاء وتجلب العقاب والخزي والعار لأولئك الذين يتجرؤون على الاقتداء بها رغم كلّ الآراء التي تلقّونها وشبّوا عليها.

وعلى المنوال، .كان يُعتبرُ اللّين والصبر والعفو عن الشتيمة والإهانة، في الأمم التي ألفت الحروب وأعلت من شأن الذبح والتقتيل، جبن وخذلان ويُوصم الذين يتحلّون بها بالعار وبالوضاعة والحقارة. وهكذا كان حب الصالح العام، في أمم مذعنة ومنصاعة منذ أمد بعيد لحكومات فاسدة، يُعتبر حماقة، وحبيب أمّته يعتبر منشقّ يحقّ عليه العقاب. وهكذا كانت الآثام والسيّئات المخزية عند الشعوب الفاسدة

في غالب الأحيان مباركة تبرّرها القدوة وتؤدّي للتشريف والتكريم والأوسمة؛ كان وفاء الأزواج والحشمة والتأدّب العفوي والبريء ضعف وعجز محلّ سخرية واستهزاء.

تلك هي العلل الحقيقية التي دمّرت الأخلاق أو على الأقل جعلت منها علم ظنّي تخميني افتراضي مليء بالشكوك والريبة، يصعب تبيّن فيها المبادئ الأصيلة من الزائفة. لقد جعل منها الدين علم رومانسي عاطفي بالأسس الخيالية الوهمية التي أرجعها إليها؛ لقد دمّرها بتناقضاته وبخصال التزمّت والإجرام التي يصفها للناس ويدعوها إليها، لقد جعلها غامضة بالتعقيدات والأسرار وبمساعيه في التوفيق بينها وبين خيالاته الفظّة وبالأفكار الصادمة المفزعة التي أنشئها عن ربه.

وأخيرا، لقد خلط الدين بين كلّ الأفكار المتعلّقة بالأخلاق ذلك بأن جعل الآراء السخيفة والكفّارات والأعياد الجزافية أكثر أهميّة من الخير والفضيلة. لم تكن السياسة أقلّ عداوة للأخلاق بالقوانين والعادات التي أنشأتها، وبالمعاصي التي أحلّتها وبالآداب الفاسدة التي سنّها الحكام في المجتمع بالأسوة والقدوة السيّئة، بالجرائر والشرور التي نشرتها الحاشية الفاسدة في الأمم. وآخر القول، إنّ كلّ شيء يتآمر ويتواطأ في جعل الناس جاهلين وأشرارا وفي جعل أفكارهم حول الأخلاق دائما مشوّشة.

ليس غريبا إذا أصبح هذا العلم المشوّه غريبا وغير معروف، وإذا كان موضوع أبحاث معمّقة وجدالات لا تنتهي لأولئك الذين يدرسونه. لقد أصبح كلّ ما فيه اشكالي ومحلّ نزاع، وكان من الصعب منذ الوهلة الأولى الاتفاق على ماذا يمكن تأسيسه.

لقد أسّسه الكهنة على مشيئة الآلهة التي لم تكن نفس الآلهة لكافة سكّان المعمورة ولا نفس النبوءات المزعومة التي تنوّعت بتنوّع أفكار وغايات أولئك الذين استنطقوها. وآخرون كانوا قد أسّسوا العدالة على القوانين المتنافرة والمتضاربة التي سنّتها الأمم، التي لم تكن عموما سوى تعبيرات عن الأهواء والعته والهذيان وانعدام الكفاءة والأهليّة للقادة، أو تصوّرات ومفاهيم سخيفة، ومصالح آنيّة ومنعرجات وانعطافات متهوّرة لمختلف شعوب الأرض.

من هنا غالبا ما شهدنا كيف أنّ الجرائم البشعة والأعمال السوداوية والشرور المشينة مقبولة ومشروعة في بلد وممقوتة في بلد آخر؛ إنّ أخلاق الشعوب كانت لا تتجاوز حدود السلطة السياسية والجغرافيا المتّفق عليها؛ فما كان بشع ومرعب فيما وراء نهر أو جبل كان أمرا مشرّفا ومباركا داخل حدودهما، وما كان مسموحا به من الآلهة والحكّام والقوانين في دولة ما، كان محظورا في دولة أخرى وتعاقبُ عليه آلهتها وحكّامها وقوانينها. لقد كان التتاري يقتل أباه والإسابرطي يقوم بوأد ابنه المشوّه، وكان اليهودي لصّا قاطع طريق والمسيحيّ وحشيّ في

قساوته، كان الروماني آفة على الأمم[1] والهنديّ ماجن خليع، والاسباني كان قاسي فضّ غليظ القلب متزّمت.

ورغم ذلك خُيِّل إلى كلّ شعب من هاته الشعوب أنّ آلهته أو مصلحة الوطن أو عاداته المبجّلة أقد أحلّت له أن يسلك السلوك الفظيع المرعب. يا لها من أخلاق جميلة، تلك التي ليس لها قطعا أيّ أساس سوى الأفكار الغير مدروسة لشعوب قد أضلّها مرشدوها الدينيّين والسياسيّين! ويا لها من آداب غريبة تلك التي تُحِلُّ المعاصي المروّعة، المجون والفسوق والأفعال الصادمة التي تفزع الإنسانية جمعاء!

لنا شمس واحدة تشع فوق كلّ سكّان المعمورة جميعا، وعليهم أن يقتدوا ويسترشدوا بأخلاق واحدة. ورغم اختلاف وتنوّع آرائهم، مؤسّساتهم، قوانينهم وعاداتهم، ورغم التنوّع اللاّمحدود للمناخ وللأمزجة والسجايا التي يطبعهم بها، فإنّ طبيعتهم هي نفسها ولهم نفس الحواس ونفس الاحتياجات ونفس الرغبات، ولإشباعها هم محمولين على نهج الأسباب ذاتها وابتغاء نفس الوسيلة.

---

[1] إنّه من الجليّ أنّ الدين هو الذي جعل الروم الرومانيّين غزاة، أيّ أنّه قد جعلهم ظالمين ودمويّين سفّاحين؛ فالنبوءات الربانية كانت قد وعدتهم، مثلما وعدت اليهود، حكم العالم. إنّ الفضيلة تعني عند الرومان الشجاعة البأس والشراسة اللاّزمتين لقطّاع طرق عازمين على احتلال غزو واجتياح كلّ شيء.

يولد الناس، يتغذّون ويقتاتون، يحافظون على البقاء يدمّرون بعضهم البعض بنفس الطريقة؛ فكلّهم مأخوذين بحبّ أنفسهم، كلّهم ينشدون السعادة ولنيلها هم جميعا يحتاجون العون والمساعدة، كلّهم يسعون في كلّ ما يبدوا لهم مرغوب فيه وجذّاب ويتهرّبون ويتحاشون ممّا يظنّون أنّه ضارّ، وكلّهم مجبولين على التعلّم واكتساب الخبرة بالتجربة وقابلين بدرجات متفاوتة على التعقّل والتدبّر. وهكذا، فهم كلّهم قادرين على أن يعرفوا قيمة الخير والفضيلة وأن يعرفوا مخاطر الشرّ وخواتيمه.

تلك هي المبادئ والأصول الوحيدة التي يمكننا أن نؤسّس عليها أخلاقا كونيّة صالحة لكلّ أفراد الجنس البشري؛ يجب أن نؤسّسها على الجوهر الذي يشترك فيه جميع الناس، على الفطرة التي خلقها الله عليها، على احتياجاتهم الملحّة والدائمة. على التجربة والخبرة والممارسة أن يثبتوها على الدوام ولا يناقضوها أبدا أو يكذّبوها أو يبطلوها وينفونها؛ لابدّ عليها أن تمنح في كلّ الأمكنة وفي كلّ الأزمان السعادة، التي هي مبتغى كلّ شهواتنا وأمانيّنا. وأخيرا، إنّها الأخلاق الصالحة لكلّ الناس وعلينا جميعا أن نحميها ونتشبّث بها ونسندها. ذلك أنّ الاخلاق القائمة على هاته المبادئ الثابتة لهي الوحيدة التي تصلح بالناس، إنّها الوحيدة التي يحتاج إليها الجنس البشري[1].

---

(1) عن حق يقول سيشرون: إنّ الطبيعة لا تخدعنا أبدا إذا استرشدنا بها. وترتليان، الذي كان شديد التزمّت، ارتأى له أنّ القانون الإلهي يصلح للأخلاق.. ابحث إذا، يقول --

فليكفينا إذا أن نعرف بأنّ الخير هو كلّ ما هو مفيد ونافع على الدوام وبأنّ الشرّ هو كلّ ما يضرّ بالكائنات التي تبحث عن المتعة وترغب فيها وتفرّ من الألم وتتجنّبه.

إنّ الخير هو الفرح البهجة والشرّ هو الألم المتسبّبة فيه عن قصد أفعال الناس ونواياهم. لكي نضبط أفعالنا ونصلحها يكفينا أن نقتنع بأنّ كلّ الناس، بما فيهم أنفسنا، تبحث عن خيرها وسعادتها الخاصّة، وبالتالي لا يحب الناس سوى أولئك الذين يساندونهم في تحقيق رغباتهم، وهم محمولين على كره أولئك الذين يعارضون هذه الرغبات ويعرقلونها.

إذا ما تمعّنا في الأمر، سوف يتبيّن لنا في كلّ يوم أنّنا نعجز، ونحن وحيدين بلا أزر وعون بني جلدتنا، على تحقيق سعادتنا وفرحنا الخاص بنا، وبأنّ التعاون مفيدا لنا جميعا، وبأنّه لكي تكون الحياة في جماعة مفيدة لنا حقيقة يجب على شركائنا أن يتواطؤون في مساعدتنا: فالتجربة سوف تعلّمنا كيف نحمي أنفسنا ونحافظ عليها، كما أنّها سوف تبرهن لنا أنّ تحفيز واستثارة كائنات، قادرة على المساهمة في تحقيق سعادتنا الخاصة، هو ضرورة ملحّة لنا.

ترتليان، عن قانون الرب، فستجده عند عامة الناس، في الجلسات الطبيعيّة. أنظر، ترتليان في تاج المحارب.

يتلخّص ترميز "جفر" الفطرة الإنسانيّة في مبادئ بسيطة، وليست دروس الأخلاق إذا مجرَّدة أو مخصوصة لمفكّرين متعمّقين راسخين في العلم؛ إنّها دائما ما تكون متناسبة مع فهم الإنسان وادراكه، ماذا عساي أن أقول! إنّها تتناسب حتى مع الطفل.

على الأخلاق أن تخاطب كلّ الناس بنفس اللغة، وسوف يسمعونها عندما تقدّم نفسها لهم بوضوح، أو عندما لا يصمّ الوصم لهم آذانهم.

هل يصعب علينا إذا أن نبيّن لكلّ إنسان بأنّه بمفرده لا يمكنه أن يكون سعيدا، وبأنّه لتحقيق سعادته يحتاج مساعدة الآخرين وعونهم، وبأنّ عونهم لا يأتي إلاّ مقابل الخير الذي نمنحه لهم؟

هل علينا أن نكون شديدي التنوّر واسعي العلم لكي نستشعر بأنّنا ندمّر سعادتنا الخاصّة عندما نلحق الأذى بمن يحيطون بنا؟ هل علينا أن نبذل جهد العباقرة لكي نتبيّن أنّه على المخلوق الذي يحبّ نفسه ويقدّرها أن يسعى بسلوكه في أن يشارك الآخرين الأحاسيس التي يشعر بها وأنّه يبحث على اعتراف بني جلدته وتقديرهم؟

إنّه لصحيح أنّ هاته الأصول والتعاليم الجليّة والواضحة قد أصبحت غامضة ومعقّدة عندما نبذتها نظم جبّارة تمنعنا بأن نحب أنفسنا، بأن ننشغل بتحقيق سعادتنا، بأن نتعلّق بالمخلوقات الأخرى وبأن نغفل عن السماء، التي غالبا ما يظهرونها لنا على أنّها غاضبة مغتاظة

حتى من الخير الذي نقوم به ومن العطف الذي نكنّه للمخلوقات المحيطة بنا والعفو والرفق الذي نعاملها به.

وهاته الأصول نفسها قد دمّرتها أيضا حكومات تبدوا وكأنّها أخذت على عاتقها أن تجعل الإنسان عدوّ لمعاونيه وشركائه وخلاّنه وتجبره على أن يكره وطنا لا يحسّ تجاهه سوى بالبغض والاحتقار، لا يشعر فيه سوى بالظلم والقهر والقسوة، وحتى إذا سعى في اسعاد نفسه، فإنّه لا يهتمّ لأمر الذين يدفعون ضريبة سعادته بتعاستهم وببؤسهم.

لن يكون للناس أبدا مبادئ مؤكّدة وموثوقة تقوم عليها أخلاقهم، ما داموا سيجعلونها مرتهنة لدين تكون أحكامه محترمة ومبجّلة أكثر من أحكام الطبيعة ونبوءاته مسموعة أكثر من حدوسات العقل وبديهته، وتكون نزواته القاعدة الوحيدة للحق والباطل، للعدل والظلم، وقوانينه مفضّلَة على قوانين الخير والفضيلة، وأغراضه المزعومة أعزّ وأحبّ من المصالح الحقيقية للمجتمع، وكهنته الجشعين يكفّرون عن الآثام والمعاصي، ومفسّريه وشرّاحه تارة متملّقين للحكّام يؤلّهونهم ويحوّلونهم إلى طغاة، وتارة أخرى منشقّين ومتمرّدين يدفعون الرعيّة للذبح .

لا يسعنا المجال، أخيرا، لنكرّر ذلك، لن تكون للناس أخلاقا أبدا طالما أنّنا سنقدّم لهم كمثال وانموذج ربّا كلّه شرور ونقائص وعيوب. ربّا متقلّب، دائما ما يكتنف سلوكه الغموض، مثل الذي تعبده كلّ

الديانات وتدعونا أن نقتدي به، إله مغتاظ دائما من الإنسان، ربّ مستبدّ أُحلَّ له أن يكون ظالما لأنّه هو القدير المكين، لا يمكن أن يكون أساسا للأخلاق ولا يمكن أن يُقدَّم للناس كأنموذج للخير وللفضيلة[1].

لن تكون الأخلاق سوى علم خرافي وستكون دروسها محلّ ازدراء باستمرار طالما أنّ الحكومات الفاسدة المستبدّة، الغريبة وقليلة الخير، والغبية مثلها مثل آلهة النُّذر، ستعارضها. عبثا سوف تخاطب الرعيّة طالما أنّ أسيادها سيستغلّون حقوقهم الربانية ليمنعوها من التنوّر، لجعلها شرّيرة واكراهها على أن تكون تعيسة بائسة إذا امتنعت على مشاركتهم أهوائهم وحماقاتهم وجنونهم ومساعدتهم في تحقيقها.

رغم كلّ ذلك، فالأخلاق قد جُعِلت لكي تنظّم وتضبط أقدار الناس وتصلح حالها على حدّ السواء؛ فالفضيلة هي أهمّ شيء لديهم، وعلى الملوك أن تأتمر بأمرها وهي التي يجب أن تضبط عمل الحكومات وتسنّ التشريعات وتحافظ على تماسك المجتمع، أن تضبط حقوق الأشخاص، وتكون البوصلة الحقيقية للأمم والأفراد.

---

[1] يقول لنا اللاّهوتيّين بأنّ عدالة الربّ ليست نفسها عدالة البشر (عدالة السماء تختلف عن عدالة الأرض). ولكن في هاته الحالة ماذا تراهم يقصدون بالعدالة الإلهية؟ إنّه ليس بإمكاننا أن نفهم فكرة أخرى عن العدالة غير تلك التي نراها متداولة بين عامة الناس: إذا كان الرب غير عادل البتّة من وجهة نظرهم، فإنّه ليس بإمكانهم معرفة ما إذا كان عادلا أو معرفة كيف يمكنه أن يكون كذلك.

إنّ الاخلاق تكفيهم ليكونوا سعداء، وهي بالتالي الوحيدة التي لها الحقّ عليهم في أنّ يكرّموها ويقيموا لها العبادة، وهي الوحيدة التي تستحقّ طاعتهم وتقديرهم. كلّ أولئك الذين يعارضونها هم مخادعين، متمرّدين وآثمين كفرة لا يمكننا أن نصغي إليهم دون أن نعرّض أنفسنا للمخاطر.

وخلاصة القول، لأكرّر ذلك، إن الأخلاق هي الدين الوحيد الضروري للإنسان؛ فيصبح الإنسان متديّن حالما يكون متعقّلا، حالما يكون نافعا، حالما يكون خيّرا وفاضلا؛ يتمتّع الإنسان بالعقل حالما يتّبع نبضات فطرته الخاصة المتناغمة والمنسجمة مع فطرة المخلوقات التي جمعه القدر معها.

تلك هي الأخلاق التي قدّرتها الطبيعة لكلّ الجنس البشري؛ فسوف يعرف كلّ إنسان نحلته عندما يروم أن يؤوب إلى أعماق قلبه، وبالرجوع إلى كنهه وكينونته وبالتدبّر في أمره وفيما يريد وما يشتهي، سوف يعرف ما يدينه لنفسه وما يدينه للآخرين. إنّه لا يحتاج إذا أن يلتجأ إلى الدين ولا إلى نبوءات كهنته لكي يعرف ما يجب فعله. فهو ليس في حاجة أن يحمل بصره إلى ما وراء وجوده الراهن لكي يجد الدوافع القوية التي تجعله يسعى في نيل سعادته الحاضرة؛ إنّه يشعر أنّه من هذا العالم وهو محاطا بمخلوقات تشبهه، مخلوقات مستعدّة لمدّ يد

العون له لو أنّه يظهر لهم المشاعر التي يستحسنونها، ولأن تكرهه حالما يعارض التوجّه العام.

إنّه لا يحتاج إلى المكافئات ولا إلى التهديد والترهيب في الحياة الأخرى لكي يفعل الخير في هاته الحياة الدنيا؛ ففي كلّ لحظة تثبت له التجربة أنّ الشرّير كائن مكروه ومحتقر وأن الإنسان الخيّر محبوب ومحترم حتى من طرف أولئك الذين ليس لهم نفس السيرة الحسنة.

لو يفتح الإنسان عينيه قليلا، سيرى أن المجتمعات والأفراد الذين يألّفونها ليسوا بؤساء إلاّ لأنّهم يجنون ثمار أفعالهم الشرّيرة. سيرى كيف ينزل عقاب الفاقة والهوان على الحكومة جزاء الشرور التي ألحقتها بأمّتها التي استنزفت، بالجشع والطموح والطمع والنزوات والفساد، ثرواتها وقضت على العزم والهمّة وفتكت بالعمل والنشاط. إنّ التجربة اليومية تثبت له قطعيّا أنّه إذا يفعل شرّا ويشطط أو يفسد فسوف يشعر بالندم ويجرّ على نفسه الندم ودون أن يضرّ بوجوده.

يتحدّث هذا الدين البسيط والنّقي بلسان واحد لكلّ الأمم، وهو مفهوم وواضح لكلّ مخلوق يحسّ؛ إنّه ليس من عمل الخيال أبدا بل أنشأته الفطرة الإنسانية التي نعرفها جيّدا لكي نعلم غاياتها ووجهتها الثابتة، ودوافعها وامكانيّاتها وصلاحيّاتها.

هذا الدين لا يكتنفه الغموض ولا يتخفّى أبدا تحت قناع قصص الخيال وتحت الايحاءات والرموز. لا يتفاخر أبدا أنّه أتى من أماكن نائية أو أكوان علويّة، بل يقرّ أنّه إنساني ومخصّص لأهل الأرض. إنّه ليس دين قد خصّصته الربوبية المتحيّزة لبعض البشر المحظوظين ولبعض المختارين، بل هو دين مشترك لكلّ المخلوقات العاقلة قد قدّرته الطبيعة لكلّ أبنائها منذ أن أتت بهم للوجود وزرعته في كلّ القلوب ونقشته بحروف لا تُمحى. إنّه دين يؤسّس مصداقية براهينه وأصالتها على رضى كلّ البشر وعلى الشهادة الموحّدة يسنده اجماع كلّ سكّان المعمورة على نفعه، وعلى حب الإنسان لذاته وعلى حاجته الدائمة لبني جلدته.

لا تتغيّر أحكامه ومراسيمه ولا تُبطل ولا تطالها ثورات العالم وتقلّبات الزمن وتغيّرات العرف والعادة. عبادته التي يوصي بها ليست أبدا أبّهة عقيمة لا تخاطب سوى الأعين، ومعتقداته ليست أبدا تخمينات وتكهّنات ضبابية غامضة ومحلّ جدل ونزاع؛ إنّه دين يخاطب القلوب وتعاليمه هي أن نتصرّف بالاسترشاد بالعقل ونفعه ظاهر في كلّ حين. إنّ هذا الدين، الذي لا تشوبه الحميّة أو الانتشاء الساحر العجيب الذي يطرب الإنسان ويحلّق به خارج عالمه، أو هاته الحالة من الهوان والذلّ التي تلقيه فيها النُّذر، يتوافق مع فطرة الإنسان ولا يقدم على تشويهها؛ فهو يترك له أهوائه ولكن يوجّهها ويباركها عندما تجعله حقيقة سعيد،

فيسمّيها حسنات أو فضائل عندما تكون نافعة لبني جلدته، ويعجب بها عندما تمنح الفائدة والنفع للمجتمع. إنّه دين يكون كلّ إنسان فيه كاهن، ضحاياه الآثام والمعاصي، الكون معبده وهيكله والفضيلة هي الربوبية لديه.

الفصل الرابع عشر

- في تأثيـر الدين على سعادة الأفراد؛ إنّه يصيّرهم تعساء للغاية

لقد فحصنا، إلى حدّ هنا، الأثار العامّة التي يحدثها الدين في السياسة والأخلاق، وتبقّى لنا أن نفحص أيضا كيف يعمل تأثيره على الأفراد الذين يمتثلون لقوانينه أكثر من غيرهم، أو على أولئك الذين يكبّدون أنفسهم عناء التعلّق به.

فلنرى إذا هل أنّ الناس الأكثر تديّنا في كلّ مجتمع هم أكثر الناس سعادة، ولنتأكّد إذا كان الأشخاص، الذين خصّتهم السماء بالتبجيل والتفضيل وحقّ لهم أن يكونوا المكرَّمين الأكرمين عند العليّ القدير، يتمتّعون ببعض الصلاحيّات والامتيازات الفعليّة التي تميّزهم عن الآخرين.

في كلّ ديانات العالم لقد تضمّنت العبادات على الربوبية في جانبها المرعب والشرّير؛ فإذا كان الخوف هو الذي أنشأ من رحم المآسي والنكبات الآلهة وعباداتها ، فإنّ الخوف هو الذي أدام حكمها وسلطانها، وإنّ الكروب والمصائب هي التي كانت قد أتت بالناس، الذين فارقهم الفرح والراحة إلى أعتاب معابدها؛ فجائحة أو مجاعة أو زلزال أو فشل

وسوء حظ كانوا دائما كافين لكي ترتمي الأمم في أحضان النُّذر، والسقم أو العسر وسوء الحال أو الكآبة غالبا ما يأتون بالناس للدّين حتى بأولئك الأشخاص الذين بدوا أنهم يحذروه ولن ينخدعوا به مرّة أخرى.

وبناء عليه، فإنّه من السهل علينا التكّهن لماذا الدين، وهو الذي جُعِل لإيقاظ الأفكار المكدّرة للنفوس وهو الذي يتكلّم دائما بلهجة كئيبة وعابسة عن الأشياء الموحشة التي يأتي بها، لا يروق عموما للأشخاص المرحين ولا يجد سبيلا على أولئك الذين ينساقون وراء المجون والتبذير والملذّات، ولا يلقى آذان صاغية لدى أولئك الذين تتسلّط عليهم أهواء الجارفة والجامحة أو الذين تأسرهم العادات القديمة المترسّخة.

لا يترك الدين انطباعات عميقة إلاّ على الكئيبين الغاضبين المستائين والتعساء الذين أخذ منهم الحزن كلّ مأخذ وعلى العجزة والجبناء الخائفين الذين سرعان ما يرتجفوا خوفا ولا يجد العقل فيهم سبيلا ليسكّنهم ويهدّأ من روعهم، ولا يؤثّر هذا الدين إلاّ فيمن أخذتهم الحميّة بخيالهم الواسع والذين في ضلالهم يعمهون. وأخيرا، لا يجد الدين سبيلا إلاّ على الجهلة الذين أبى فكرهم الضالّ أن يرشد بالحكم القويم وحسن التقدير والذين هيّأهم تقاعسهم على التفكير وتدبّر الأمور بعقولهم لأن يتلقّوا الأهواء التي ألهموها لهم.يمكن لأشخاص ذوي الفكر النيّر أن

ينخدعوا في الدين ولكنّهم قطعا إنّهم يفتقرون لحسن التقدير والصواب على الأقل بخصوص هذا الشأن [1]

وبما أنّ الذعر أو الرهبة هو علّة كلّ النُّذر، لابدّ أن نجد مظاهره لدى كلّ أولئك الذين أصابهم هذا الوباء الخطير؛ وإنّنا لنرى كيف ملئت مُخيّلتهم بالأوهام المفزعة التي تلاحقهم بلا هوادة وتفسد أفراحهم ومسرّاتهم وتنكّد عليهم: نجدهم مرتبكين متوجّسين من مخاوف باطلة، يعذّبهم ويؤرّقهم الندم على أفعال هيّنة غالبا ما يجعل منها الدين آثاما لا تُغتفر.

وخلاصة القول، يمكن أن نقارن المُتنذّر بهؤلاء الموسوسين المتوجّسين على الدوام من أمراضهم الوهمية والقلقين باستمرار على

[1] إنّنا كلّنا لمذهولين لرؤية العدد الكبير من الأشخاص، العاقلين في شأن أيّ أمر أخر، يفكّرون بشكل سيّئ أو بالأحرى لا يفكّرون بتاتا كلّما تعلّق الامر بالدّين: فنراهم حتى في الأمور العادية يرفضون الاستماع للحجج التي تُقدَّمُ لهم. ومع ذلك، فإنّ هذه الظاهرة يمكن تفسيرها بدور التربية وبحكم العادة والوصم. كيف لنا أن نطلب من الأشخاص، الذين قيلَ لهم منذ نعومة أضافرهم أنّ الدين فوق العقل وقبله وأنّ الدين ليس من مشمولات العقل. وأنّ الشكّ فيه جريمة وجريمة نكراء ذكره في المحاكم في قضيّة فساد. فما عساي أن أقول! كيف نطلب منهم أن يستخدموا عقولهم في شأن الدين؟ لقد كان العالم، الذي جعل المسيحيّة معقولة ومقبولة بيننا، مضطّرا إلى تشويهها؛ فالعته والعقل الرشيد ليسا مجعولان لكي يتوافقا.

الصحّة التي لا شيء يهدّدها، يرون الخطر محدق بهم من كلّ جانب ويخشون أن يلاقوا الموت في كلّ خطوة يخطونها حتى ينتهوا بأن يتمكّن منهم فعليًا المرض من شدّة الحيرة والكآبة والعلاجات.

في كلّ الأزمان تقريبا كان المُتنذّر هو نفسه: تغيّرت الآلهة والعبادات تنوّعت واختلفت ولكن المُتنذّر يرتعد خوفا وكان يبرع في تعذيب نفسه، دائما ما كان يبذل كلّ جهده في جعل نفسه تعيسا إرضاءً للقوى الخفيّة التي يعبدها ويسعى في تقديسها. " من يخشى الآلهة، يقول بلوتارخ، يخشى كلّ شيء آخر؛ إنّه يخاف الأرض، البحر، الهواء، الظلمات والنور، الهدوء والضجيج، الأحلام الخ...: العبيد، عندما يناءون، ينسون قسوة أسيادهم، فالنوم يسكّن أحزانهم وأحزان أولئك الذين في السجون والمقيّدين بالأغلال؛ إنّ الجراح المسمومة والقروح الخبيثة التي تنهش أعضاء الجسد بكلّ شراسة تهدأ وتستكين ليرتاح الذين يعانون منها أثناء نومهم [.......] إنّ النُّذر لا تسمح أبدا لمن يؤمن بها أن يتنفّس، وحدها التي لا تقيم الهدنة مع النوم؛ فهي لا تترك الروح أبدا لترتاح أو تتخلّص من الأفكار المشؤومة التي كوّنتها عن ربّها فتطمئنّ ويهدأ روعها. بل أكثر من ذلك، يسبّب النوم عند المُتنذّرين، وكأنّه جحيم أو إقامة للملعونين والمنبوذين، التخيّلات المرعبة والرؤى المفزعة والموحشة. يظهر لهم الشياطين والجنّيات والعفاريت وهي تعذّب

أرواحهم البائسة وتحرمهم من الراحة في أحلامهم التي لا يجرأ المتنذّر أن يستهزأ منها حتى في يقظته [.....] إنّ الموت، يقول لاحقا، هو نهاية الحياة لكلّ البشر ولكنّه لا يضع نهاية للنُّذر؛ فسلطانها يمتدّ حتى إلى ما بعد الموت، والمخاوف التي تنشئها أطول عمرا من الحياة، ذلك أنّها تعلّق بفكرة الموت فكرة الشقاء الأبدي [......] يخشى المُتنذّرون الآلهة إلاّ أنهم يلتجئون إليها؛ فيمتدحونها ويتملّقونها ويدينونها، يصلّون إليها وينتهكون حرمتها [......] وبالنتيجة فإنّهم يكرهونها ولا يجدون أحاسيس غير الكره تجاه هاته الآلهة نظرا لقناعتهم أنها هي المسؤولة عن الشرور العظيمة التي تكبّدوها آنفا أو التي يخشون أنّها تنتظرهم لاحقا"[1].

---

[1] بلوتارخ. في النُّذر، الكتاب الخامس. يسمّي اليونانيون النّذر........ أو الخشية من الأرواح الشرّيرة. مادام البشر سعداء، فإنّهم لا ينساقون مطلقا وراء النُّذر. فالبؤس هو الذي يهيّئهم للاستسلام إليها. لقد لاحظ كوينتس كورتيوس أنّ الإسكندر لم يستشر، منذ هزيمة داريوس Darius، العرّافين أبدا. ولكنّ عندما رأى البكتيريين يتمرّدون ويثورون والسكيثيّين يملئون ولاياته وجراحه التي ألزمته الفراش، أمر أريستاندر بأن يقدّم الأضاحي.5 . كوينتوس كيرت، الكتاب السابع. لقد أصبح كليومينس ملك إسبارطة شديد التنذّر عقب مرض عضال ألزمه الفراش طويلا بينما كان طوال حياته يتجاهل الدين؛ وعندما أظهر له أحدهم تفاجئه قال له:" ما الذي أثار استغرابك؟ إنّي لم أعد على ما كنت عليه في السابق ولم أعد نفس ذلك الشخص أبدا، ولست أبدا على نفس الرأي.أنظر. أقوال إيراسموس.

ليس لدينا ما نضيفه على ما أظهره أحد أكبر الرسامين في العصر القديم من الصفات الدقيقة التي نحت بها المُتنذِّر؛ إنّنا نجد فيها صفات المُتنذِّرين في عصرنا أو صفات كلّ هؤلاء التعساء الذي ذهبوا ضحيّة الحميّة والجهل والخوف، الذين جعلهم الدين أعداء أنفسهم. عندما نصّبوا في السماوات العُلى مخلوقات شرّيرة قد خُيِّل إليهم أنّها تحكم الطبيعة وعندما علّقوا بها أقدارهم في هاته الحياة وفي حياة الآخرة، فلابدّ أن تمتلئ أذهانهم بالرعب والوجل والاضطراب؛ لابدّ أن تشغل بالهم على الدوام هاته المسائل الهامة، وسوف لن يهتدوا أبدا إلى السلوك الذي عليهم أن يسلكوه وسوف يثيرون الخوف في أنفسهم وستأتي لهم ضمائرهم الفزعة والجزوعة دون موجب بالمخاوف والهواجس. ستتحوّل الأفعال العادية والبريئة، في أعينهم المتوجّسة، إلى معاصي أو آثام وسوف يظهر لهم خيالهم الواسع الأوتاد والمحارق الأبديّة قد أُعِدَّت لهم جزاء لهم بما عملت أيديهم.

وهكذا فإنّ المُتنذِّر، وإذا كان ثابتا على أصول دينه أو مع التصوّرات المشؤومة التي كوّنها عن الربوبية، ليس له إلاّ أن يعيش في المرارة والدموع والنواح؛ بكلّ قوّة يأخذ بالشعائر الغبية التي تُعرَضُ عليه لكي يسترضي ربه، وتمرّ أيّامه التعيسة وهو يكفّر عن آثام غالبا ما تكون وهميّة، منشغل باله سوى بفرائضه الدينيّة ولا يتفرّغ لما يدينه لبني جلدته

من واجبات وخدمات، ولو غفل عن سيّده الطاغية لحظة من الزمن سوف يحسب أنّه ارتكب جرما لا يُغتَفر[1].

وهو منشغل البال على الدوام بأمر جلل، لا يصبح فقط عديم الفائدة ولكن تجعله الكآبة المعتادة أيضا شرس وصعب المراس وانطوائي، لا يرضى أبدا عن نفسه فكيف نراه سيرضى على الآخرين؟ وهو محمول، بحكم الواجب والفريضة، على أن يهجر كلّ ملذّات الحياة ومتعتها، فهل تراه سيهتمّ بالمحيطين به ويوفّر لهم اللهو التي سوف يغضب ربه؟

وأخيرا هل سيكون، وهو مدفوع لكره نفسه وبغضها، عطوف وعفوّ ولطيف مع بني جلدته وهل سيغفر لهم المعاصي التي تجرّ عليهم الغضب الإلهي؟

[1] يُخيّلُ إلى إمبراطور مسيحيّ أنّه مضطرّ إلى طلب الغفران من الرب على كلّ الوقت الذي ضيّع فيه صلواته لكي يهتمّ بشؤون الحكم في دولته. لقد جعلت طائفة من المسيحيّين يُسمّون EYXITAL أو المصلّين من التقديس متمثّل فقط في الصلاة الدائمة. لم يقوم الكهنة والرهبان البابويين، اليابانيّين، الهنود والمحمّديّين سوى بالصلاة، وهو يطرح فكرة أنّ الربّ لا يعرف ما يصلح بهم أو أنّه شديد المكر لدرجة أنّه لا يريد أبدا أن يخبرهم به.

كلاّ، لا يستطيع المُتنذّر، الذي يسكن الحزن أعماق ذاته، أن يتحمّل رؤية مشاهد الفرح، فالمسرّات تزعجه وطيب العيش للآخرين يرعبه، ولكي ينال الرضى والسلوان من ملك السماوات ذي الجبروت، فإنّه يسعى بلا هوادة في جعل نفسه لا يُحتمَل وفي إيذاء كلّ أولئك الذين يتقرّبون منه

تلك هي عموما، وذلك ما يجب أن يكون دائما، الآثار التي يخلّفها الدين في أولئك الذين تغلغلت فيهم تصوّراته المرعبة ويريدون أن يكونوا ثابتين على مبادئه. لا يمكن لإنسان، يؤمن بربّ مجبول على الغضب وعلى الغيرة وحب الانتقام، ودائما ما يجول بخاطره يرى عيناه البرّاقتين وهي تراقب سلوكه باستمرار، إنسان يظنّ نفسه قادرا على أن يغضب ربه حتى دون أن يشعر أو دون أن يقصد ويظنّ أن هذا الرب الغيور لا يريد أبدا أن يشاركه أحد من مخلوقاته في حبّه أو يقاسمه أحد في قلب عبده؛ وإنّي لأقول إنّه من المستحيل لمثل هذا الإنسان أن يجد إليه الفرح سبيلا ولا يسمح لنفسه أبدا أن تحبّ المحيطين به، ولا يهتمّ بشيء آخر غير الجاسوس المخيف الذي لا يغفل عنه أي شيء: فالبهجة محرّمة على البشر الفاني الذي لا يرى في هذا العالم سوى مقاما للابتلاءات، عالم تحكمه قوانين سيّد شديد البأس لا يغيظه أن يجعل هذا المخلوق الضعيف يخلد في الشقاء والبؤس إذا أخلّ بمقاصده الخبيثة والغير

مفهومة، ففي مثل هاته الحالة يكون الانسياق للفرح قمّة الجنون، والضحك حماقة تحت حكم رب كئيب مميت وتعيس حزين ومتقلّب المزاج؛ سوف يغيظه بدون شكّ فرح عبيده وابتهاجهم، الذين بيده أن يرميهم للعذاب في كلّ لحظة. إله حزين ومتديّن مرح شيئان لا يتطابقان.[1]

لا يجب علينا أن نتفاجأ إذا لرؤية المظهر القاتم والصارم ولا المزاج المتكدّر المهموم اللذان نجدهما لدى الناس الموبئين في العمق بسمّ النُّذر؛ إنّ الدين المكدّر والمحزن ل هو معِدّ لكي يدمّر يهدم ينسف السلام الروحي ويعلن الحرب على الفرح والمسرّات: علينا أن نتألّم ونئنّ ونصلّي لربّ كان هو بذاته قدوة في الشقاء والمعاناة.

---

[1] يكون المسيحيّين الأكثر ورعا عادة حزينين كئيبين؛ فكلّ شيء يحملهم على الحزن. أيحلّ لنا أن نكون مرحين عندما نعبد رب مجلود، تاجه إكليل من الأشواك ومصلوب؟ يعتب أبوليوس على المصريين أغانيهم واحتفالاتهم الحزينة الموحشة؛ مثله مثل المسيح، كان أوزيريس إلاها حزينا جدّا ومرّت عليه المحن الكثيرة. وكان أدونيس، إله السوريين أيضا إلها حزين، وكان التعساء الذين يعبدونه يبترون أنفسهم ويمزّقون ثيابهم مثل كهنة سيبيل أو مثل الرهبان الهنود "اليوغي"، أو مثل الرهبان المسيحيّين لدى الباباويّة. لابدّ لفكرة الرب أن تُحزِن على الدوام من يفكّر فيها وتكدّره؛ فهذا الرب هو عفريت أليف بالنسبة إليه ولا يستطيع أن يتخلّص منه.

فبأيّ حق يعفي المخلوق الضعيف المذنب نفسه من العذاب والحال أنّ ربّه البريء الطاهر قد ارتضى أن يضحّي بنفسه؟ إنّه بدون شكّ وبمقتضى هاته المبادئ كان كلّ أولئك الذين استخدموا الدين لكي تكون لهم السطوة على الشعوب، قد تحلّوا بالشدّة والقسوة وبكثير من المزاج السيء، وهو ما كان يُعتبَر من التقديسات الحقيقية.

كلّما كانت طائفة متزمّتة ومتصلّبة وكانت النُّذر بائسة، كلّما تمكّنت من العاميّ الذي يقضي، وهو محقّ، بأنّها متطابقة مع مقاصد ربه وغاياته. إنّ المتحمّس وصاحب الحميّة المتزمّت، الذي يشير كلّ مظهره إلى التقشّف ووجهه الشاحب والنحيل يحمل أثر التوبة وعيناه الجاحظتين تبدوان قد بلّلتها الدموع وصوته الشجيّ النائح يدوّي صداه الأصمّ في أقبية المعبد المظلم، تحير في فهمه الأذهان، فمجرّد حضوره يساوي خطاب فصيح رنّان[1].

[1] والمتعصّبين، الذين أتوا على الأخضر واليابس وسبّبوا الخراب في الأرض، كانوا قد تمكّنوا عموما من العوام بالقسوة الشديدة والبطش. لم يكتسب المتزمّتين لدينا في القرن الماضي النفوذ الواسع إلاّ لأنهم تحلّوا بآداب التقشّف والتزهّد ولأنّهم كانوا يبشّرون بدينهم وهم يتحدّثون بأنوفهم. وبذلك التجهّم والكآبة ذهب بخلد هؤلاء المتحمّسين أنّهم كاملين معصومين، والمسيحيّين الكاملين ليسوا مُخوَّلين البتّة بأن يخلّوا سبيل أولئك الذين رأوا أنّهم ناقصين وأقلّ كمالا منهم. وإنّ أكبر الماجنين الفاسقين الفجرة لأقلّ خطرا على الدولة من القدّسيّين.

ومع ذلك سوف نخدع أنفسنا إذا ما تخيّلنا أن الدين يؤثّر بنفس الطريقة على كلّ أولئك الذين أخضعهم لسلطانه وأسدل عليهم نير الرقّ والاستعباد؛ فآثاره تتنوّع بتنوّع أمزجة الناس وطباعهم، وغالبا ما يعجز على أن يترك انطباعات واحاسيس عميقة فيمن هم مجبولين بحكم تكوينهم على الفرح. وعلاوة على ذلك يظهر هذا الوهم بملامح مختلفة وكلّ واحد يقف عند الجانب الذي يشبه طبعه. وإنّه لحظّ عظيم للأمم المُتنذّرة، التي ليست سوى لفيف من المواطنين عديمي المنفعة، الخاملين والمتباغضين، أن تؤثّر تخميناتهم الدينيّة فيهم كلّهم بنفس الطريقة.

رغم أنّ بني البشر في أغلبهم لا ينظرون إلى الربوبيّة إلاّ من جانبها المرعب والقاسي، فهناك مثلما رأينا، من يغضّ الطرف على طباعها المفزعة ليتمعّنوا في كرمها وفي رحمتها ولطفها وعفوها؛ كلّ الآلهة هي جانوس*، تظهر لنا بوجهين وكلّ منّا يختار الوجه الذي يناسبه والذي يكون دائما الوجه الذي يتطابق أكثر مع طريقة عيشنا.

---

* جانوس أو يانوس هو هو إله البوابات والمداخل والانتقالات والطرق والممرات والمخارج في الميثولوجيا الرومانية. هو إله ذو وجهين، وجه ينظر للمستقبل ووجه ينظر للماضي. (المترجم)

لن يقتنع العطوف منّا وذي الحسّ المرهف أبدا أنّ ربّه لاإنساني؛ سوف يحبّه مثلما يحبّ أبيه وسوف لن يتراءى له أبدا أنّه يحكم بصولجان من حديد أو يحمل قلب من نحاس. سوف يشعر تجاه هذا الكائن، الذي يسمه بسمات محبّبة لطيفة، بوافر من العطف ومن الورع والتقديس والتقوى. وإذا كانت له مع هاته السجايا والاستعدادات روح طاهرة ولطيفة، فلن تجعله قناعاته الدينية أبدا عدوّا لبني جلدته وسوف يكون متسامحا عفوّا معهم، وحتى وهو يتألّم ويتحسّر من معاصيهم فلن يعتقد أبدا أنّ له الحق في معاقبتهم أو في أخذهم بالشدّة وبالقسوة أو في التحامل عليهم ومجافاتهم. أمّا الآخر ذي الخيال الضيّق والمزاج الحادّ والبنية الضعيفة سوف تكون له تخمّرات ونشوات ورؤى وإلهام يؤتوه من السماء؛ سوف يؤمن بصادق الإيمان بالأوهام التي تنتجها حركات خفقات دماغه الغير منتظمة.

تصنع كلّ هاته الفروق الدقيقة المتّقين والمتحمّسين أصحاب الحميّة، وإنّ الحماسة والورع الديني ليفعل فعله بقوّة خاصةّ لدى النساء؛ فتكوينهم الضعيف فضعف خلقتهم وهيأتهم وطبعهم الخجول ونقص الخبرة والتجربة لديهم تجبلهم على الورع، وخيالهم الواسع الذي نادرا ما يلجمه التفكير يعرّضهم أكثر من الرجال للهذيان والهلوسة الدينيين[1].

[1] إنّنا نجد بين النساء بالخصوص المُلهَمات والورعات والمتنوِّرات. فالتغيّرات الدورات المتواترة التي تمرّ بها أبدانهمّ تجعلهم مجبولين على التخمّرات والنشوات والرؤى ==

إذا ما استحوذ الدين على فكر رجل يتّقد نشاطا أو حامية دمائه فإنّه يجعل منه متعصّب غيور وجنديّ متفاني، وإذا ما فعل فعله في فكر رجل عصبي شرّير وكئيب، وهو عموما حال الأشرار الذين يعذّبهم تأنيب الضمير، فسوف يجعل منه جبان وفضّ غليظ القلب؛ سوف يهون عليه الجرم والغدر الوشاية حالما يُوعَدُ بالتكفير عن المعاصي التي ارتكبها والتي يؤرّقه التفكير فيها أو حالما يُشارُ له بأنّ الرحمة والصفح موعودان في السماء. هذه هي السجايا التي يكون عليها المتعصّبين والمعتدين والمجرمين القتلة؛ بآثام جديدة يرجون المغفرة من أولئك الضحايا الذين ذكراهم تقضّ مضجعهم وتبدّد راحتهم.

لا يملك الدين السلطان ذاته على الناس ذوي المزاج الهادئ، فهؤلاء لا يقوى الدين على برود طبعهم ولينهم ودعتهم، وهو يريد أتباع

والتشنّجات العضلية التي نحسبها خوارق طبيعية. لقد كان الذي يتلقّى الوحي في دلفي امرأة. وكانت فيليدا، حسب قول تاسيتس، هي التي تدير أعمال الجرمانيّين الذين يحترمون كثيرا النساء لأنّهم يعتقدون أنّهنّ تحملن هبة النبوءة. لقد كان لكثير من المسيحيّين نفس الأفكار؛ فلقد جعلوا القدّيسات والنبيئات من عدد كبير من النساء الهستيرّيات والكئيبات والمتنبّئات الرائيات اللاتي اعتقدن أنهنّ ملهَمات وحملن الآخرين على تصديق ذلك. إنّه من الجيّد أن نلاحظ أنّ اعتناق تقريبا كلّ ملوك الشمال في الغرب للديانة المسيحيّة كان بإيعاز من النساء. في النّزاعات الدينية تكون النساء الأشدّ حدّة وتعنّتا إصرارا، وذلك لأنّهنّ الأقلّ دراية بموضوع النزاع.

مندفعين متحمّسين؛ فالدين لا يفعل فعله بقوّة إلاّ على النفوس المتهيّجة والمحمولة على الأهواء العاصفة القوية التي تأخذها كلّ مأخذ. إنّ تفاصيل النُّذر شديدة التنوّع، ويمثّل البديع والعجب الأساس الذي تقوم عليه وهو يمثّل مرتع خصب للخيال؛ هذا هو بدون شكّ السبب في أنّ الورع غالبا ما يأخذ مكان الأهواء المكبوتة التي لم يسعف الحظ أصحابها في اشباعها ، إنّه يستحوذ في العادة على كلّ أولئك الذين ترميهم أهوائهم المشبعة في الفراغ والعدمية الحزن والقلق؛ يعطي الورع حماة ومؤاسين في السماء لأولئك الذين قُدِّر لهم في الحياة الدنيا الخذلان وقساوة العيش؛ في غالب الأحيان يأتي سوء الحظ والقرف والضغينة والعار والندم و حياة البؤس والشقاء والشبع حتى التخمة والهرم بالناس لأعتاب الدين، والورع يعوّضهم عن توهّمهم بالمناصب والرتب وبالثروة والشهرة وحتى بالحبّ نفسه.

يتعلّق العامّي من الناس عموما بالدين لأنّه جاهل وتعيس؛ فالفقير يؤمن أنّه سيجد فيه السلوان عن آلامه، يحبّه لأنّه يجعله يأمل في مصير أفضل، والغنيّ يسلّم له أمره لأنّه غالبا ما يحسّ وهو في أوج الثراء ورغد العيش بالأحزان والأشجان التي تجعله من البائسين، أمّا الجنديّ المحارب فهو مجبول عليه لأنّه يعيش دائما وسط المخاطر، والأمراء والعظماء والحاشية فيجدوه مفيدا، ليس ليمارسوا القمع دون رادع أو

خوف فقط بل أيضا لأنّهم يجدوا فيه دائما المسكّن للندم وتأنيب الضمير. حتى المتنوّر من الناس ينخدع أحيانا بالنُّذر لأنّها توقد خياله الواسع، وغالبا ما يصعب على الحكيم أن يحتمي منها، فنراه في كلّ مرة يستسلم لضرباتها عندما يهدّه الشجن ويشوّش تفكيره، أو عندما يحرمه المرض من مداركه العقلية فيسلّمه لأيادي الكاهن الذي يستجديه فيخدعه بالسفسطة والمغالطات ويقضّ مضجعه في آخر لحظات حياته.

من هنا تأتي الانتصارات المتواترة التي يحصدها الدين على الذين على فراش الموت، حتى أولئك الذين كانوا يزدروه ويتجاهلوه طوال حياتهم. ومع ذلك، وحده الرجل السليم والمعافى راجح العقل الذي يمكنه أن يحكّم عقله ويقرّر[1]، ليس هناك سوى الخداع والدجل والافتراء الذين يكون لهم أن يأخذ بشهادة من يحتضر.

---

[1] لقد أعطانا الدكتور بيرنيت تفاصيل كثيرة عن الموت التاريخي للكونت دي روتشستر الذي، بعدما قضّى حياته في المجون والفسوق اعتنق المسيحيّة قبيل وفاته؛ فيستخلص منها الأدلّة والبراهين لصالح دينه، ولكن هذا التحوّل للديانة الجديدة لا يُثبت شيئا سوى أنّ ماجن خليع لم يتّبع طوال حياته الرشاد يستطيع أن يتعقّل ويتّبع الرشاد وهو في سكرات الموت.

الفصل الخامس عشر

في بطلان واستحالة تقويم النُّذر أو إصلاحها العلاجات والبدائل

إنّ الديدن، أو العادة هي من أقوى الأواصر التي تربط الناس بالدين؛ فالتربية تطبع فينا وتصبغ الآراء الغريبة علينا، وأفكارنا الأولى التي نتلقّاها في صغرنا تترسّخ في أذهاننا طوال حياتنا، ولا تفزعنا ولا نصدم لها حالما نتلقّاها في صغرنا وحالما نراها عند أسوتنا ومن نقتدي بهم، يتّبعها الرأي العام والقوانين والأعراف وخاصة عندما نراها مختومة بخاتم السلف والأقدمين[1].

[1] هل يوجد رجل بيننا من تمّ إقناعه، وهو في سنّ الرشد، أنّ ثلاثة لا تساوي إلاّ واحد وأنّ الربّ قد كان له أن يموت في سبيل إرضاء نفسه وأنّ هذا الإله يستطيع أن يتحوّل إلى خبز Pain إلخ.؟ ومع ذلك، فإنّ التربية تتمكّن من زرع مثل هاته الأفكار في أذهان الأشخاص الأكثر حصافة الذين، إذا ما كانت لهم الحميّة على أي حال، سوف يذودون عنها بأرواحهم؛ ففي رأيهم، الغبيّ هو الذي يرفض تصديق هاته المعتقدات العجيبة. ورغم ذلك، يوجد سبب وجيه يجعل الآراء الأشدّ حماقة وجنونا مستدامة؛ يكمن هذا السبب في كوننا لا نتفحّصها أبدا، وحتى إذا تمعّنّا فيها فإنّ الفكر لا يجد سوى كلمات لا معنى لها أو أفكارا لا نجد فيها ما يمكننا أن نناقشها فيه. إنّ ألغاز الدين ومعتقداته بطبيعتها لا يستقرون على حال مثل الآلهة أو الاشباح التي يقومان عليها؛ أرباب لا يدرك كنهها العقل، أرواح خالصة، وأوهام لا تولد سوى أوهام. وبما أنّ الآلهة تطلب الأضاحي الذبائح، فقد ذهب بخلدنا أنّ العقل والحسّ السليم هما أعظم ما يُقدَّم من الاضاحي والقرابين. أو أنّ الجميع قد

وعلى هذا النحو، فإنّ كلّ شيء يؤدّي لجعل النُّذر عزيزة على الناس أو لجعلهم في حالة من الفتور المخزي والمشين تمنعهم من تدبّر أيّ شيء. أمّا فيما يخصّ الدين، فإنّ كلّ الناس؛ فالكبار والأثرياء المنشغلين بأعمالهم أو بملذّاتهم لا يفكّرون، مثلهم مثل العاميّ، في أن يتمعّنوا في الأسس والأصول التي تقوم عليها أفكارهم. لا أحد فيهم تقريبا يجد في دينه ما يدعوه لأن يثور عليه؛ فإمّا أن يهجروه أو يأخذوا به حسب ما تمليه عليهم أهوائهم، وتخميناته تبدوا مقدّسة للجميع ولكن المصلحة والاهتمامات الأقلّ شأنا في الواقع المعيش يمكن أن تحملهم على لتركها. لا تؤثّر هاته التخمينات في سلوك الناس إلاّ عندما تتلاءم مع أهوائهم أو أنّها تسوّغها. وهكذا أصبح الدين سلاح قويّ وفعّال في الإضرار بالناس دون تمكينهم من العلاجات النافعة. الرب الكريم يدعوهم لفعل الشرّ، والرب المنتقم والشرير والماكر يجعلهم أغبياء معتوهين وقساة دون أن يصلح حالهم ودون أن يصيّرهم أخياراً.

كثير من الناس من هم على قناعة تامّة بأنّ الدين نافع وضروريّ، وقليل منهم على دراية بمخاطره: يعتبره الحكّام الأسياد، أو المُتنذّرين أو

قال: وما أدرانا إذا كانت الآلهة، التي لا يسعنا تصوّرها، لا تستطيع أن تتصرّف بالنحو الذي لا نملك عليه أدنى فكرة؟ هكذا بدأنا، على ما أظنّ، نميل لتصديق كلّ الألغاز.

الطغاة سندا ودعامة لحكمهم ولا يرودون أن يتبيّنوا أنّه يصبح عدوّ لهم حالما يرفضون أن يستعبدهم

على أيّة حال فإنّ الأشخاص الأكثر تحوّطا من الوصوم الدينيّة يأبوا أن يسلّموا بأنّ الدين ضروريّ لكبح الشعب واحتوائه، ومع ذلك فإنّ هذا الشعب، ودون أن يتدبّر في أيّ أمر، دائما ما يكون على أهبة الاستعداد لينتفض بمجرّد كلمة من كهنته أو حالما يقولون له أنّ دينه في خطر. خلاصة القول، إنّ المغالطات الدينيّة تكتسب صلابة ورسوخا لأنّه لا يمكن مهاجمتها دون التعرّض للمهلكة، بينما أولئك الذين يستميتون في الدفاع عنها فيلقون الهتاف والتصفيق والتشريف والمكافآت.

يبدوا إذا أنّ الكلّ يتواطأ في تزويد الدين بمن يدافع عنه بشراسة وفي تثبيط عزم من يناصبونه العداء؛ كلّ تجديد، كلّ رأي متجاسر مغامر، كلّ تغيير في المواسم والأعياد يصبح جريمة نكراء وجرم عظيم في أعين الشعوب التي يتهيّأ لها أنّ صواعق الغضب سوف تنزل عليهم من السماء شظايا عقابا لهم على الكفر والألفاظ النابية لبعض المنظّرين منهم. وحتى إذا ما أدركت أمّة حجم المآسي التي أوقعتها فيها النُّذر، فإنّها لا تملك الأنوار ولا الشجاعة لكي ترجع إلى أصل هذه المآسي وعلّتها لكي تحطّم الخميرة التي سوف تنتج عاجلا أم آجلا اضطرابات وبلابل جديدة.

لا يفعل الناس سوى أنّهم ينوّعوا في حماقاتهم الدينيّة، فيهجرون نذر من النُّذر بعدما سئموا من غلوّه لكي يعتقدوا في نذر آخر يفدونه بدمائهم ويصبح في أغلب الأحيان أكثر شؤما من الأوّل. إنّها الآلهة الفظيعة والخرقاء التي أُنشِئت على هيأة الناس الأشدّ شرّا وخبثا، إنّها صفاتها الغبيّة والمتناقضة، إنّها نبوءاتها المخاتلة التي يأتي بها الدجل والتعصّب التي ملئت الدنيا آثاما ومعاصي وبؤسا: إنّه عرش هاته الأوثان الشرّيرة الآثمة وإنّها هاته الأشباح الخطيرة التي علينا الإطاحة بها وتدميرها، إذا ما رمنا أن نجعل النبع الذي أغرْق الجنس البشري في الشرور والآلام ينضب.

وفي واقع الأمر، ماذا جنى بني البشر الفانين الكثير من التغييرات المتتالية التي طرأت على دياناتهم؟ وأسفاه! لم يفعلوا سوى أنّهم غيّروا في عتههم وهرائهم، لم يكونوا أقلّ عبوديّة ولا أقلّ غباء وحماقة ولا أقلّ ميلا لإيذاء أنفسهم. الحقيقة الصافية هي الوحيدة التي تبقى على حالها لا تتغير وهي التي تمنح على الدوام الحريّة والسكينة والوئام. أمّا أعمال الكذب والافتراء المزخرفة والحماسة فتدمّر نفسها بنفسها: الدهر نفسه لم يراعي أبدا هاته الآلهة التي أرعبت، طوال قرون متعاقبة، الأمم وأذلّتها.

إنّ أوزوريس وبيلوس وجوبيتر الذين كان يُخشى أمرهم في السابق، هم اليوم أضحوكة بعض الشعوب الفخورة جدّا بكونها أفاقت

من خديعة كلّ أنواع هاته الربوبيّة السخيفة، إلاّ أنّهم قد استعاضوا عنها بربوبيّة أخرى أكثر سخافة. هل لقارّتنا أوروبا إذا أن تفتخر أنّها هجرت آلهة السلتيك والرومان من أجل حرفي وضيع من يهوذا، قُتِل مصلوبا والذي كان في عديد المرّات رمزا للتمرّد والعصيان والتقتيل في نظر أتباعه المسعورين؟

فليكفّ بني البشر عن الحديث عن عراقة وأصالة عباداتهم؛ فهم لم يعبدوا على مرّ الأزمان سوى نفس الأشباح، ولكن ألبسوها ألبسة مختلفة حسب حاجيّاتهم وبمقتضى نزواتهم وحسب بديع طرائق عصرهم وأهوائه، وآرائهم وحماقاتهم. دائما ما كانت الأصنام هي التي تحكم بنفس المسالك والسبل؛ لقد كان عرشها يقوم أركانه على الخوف والسذاجة.

إضافة إلى ذلك فإنّ الضلال، وإن كان موغلا في القدم، لن يكون أبدا حجّة وجيهة في نظر العقل: فالشهادات والأدلّة المتتالية والمتعدّدة للسذاجة والغباء والدجل والخداع، وديدن الافتراء والكذب والزور، والخرافات والعجائب المرويّة أب عن جدّ التي يسردها الآباء للأبناء على امتداد آلاف القرون، لن تجعل أبدا الحماقات جديرة بالاحترام. سوف يجد الفيلسوف دائما في الآلهة أقواما من الأرواح الشرّيرة التي، مثل بصيص الضوء الخدّاع الذي يتبعه المسافر التّائه، لم تصلح سوى في جعل الناس يحيدون عن طريق السعادة والهناء.

وهاته النّظم الدينيّة التي أتى بها المشرّعون للأمم، هل جعلتهم حقيقة أكثر سعادة وهناء؟ وهاته الكشوفات والنبوءات العجيبة الرائعة التي نُزِّلت علينا من السماء، هل خفّفت الآلام والأوجاع التي تكبّدتها الشعوب؟ وهاته التعديلات المتتالية التي أحدثوها بحكم الظروف الطارئة على دياناتهم، هل تراها أسعدتهم ويسّرت وهوّنت في أقدارهم؟

كلاّ، فكلّ هذا الزور والبهتان والأكاذيب pompeuses، هاته الأضغاث الأحلام المتنوّعة والتخيّلات، لهي بعيدة كلّ البعد على أن تشفيهم بل إنّها قد زادت من شقائهم ونوّعت في صنوف تعاستهم، وأضافت آثاما وأوزار جديدة إلى أوزارهم القديمة[1].

---

[1] كلّ ديانات العالم هي عبارة عن خليط من المعتقدات والألغاز والشعائر القديمة المزوجة ببدع حديثة. عندما نرجع إلى أصل أغلب العادات والآراء في المسيحيّة، سوف نجدها عند المصريّين والكلدانيّين والفينيقيّين والإغريق والرومان والسلتيك. إنّ هذا الدين هو فوضى نلمح فيها بقايا من كلّ السخافات القديمة. دائما ما تكون النبوءات الجديدة التي يُؤتى بها للناس مطعّمة على نبوءات قديمة؛ ومثل اللّغات تتأسّس العبادات على بعضها البعض، ومثلها تطرأ عليها الفروقات المتواصلة. إنّ أغلب معتقدات وألغاز المسيحيّين تُنسبُ بطبيعة الحال لفيثاغورس وأفلاطون اللذان نهلا مذهبهما من الكهنة المصريّين: وإنّنا لنرى من هنا أنّ الآراء والظنون الأكثر تبجيلا بيننا ليست سوى تخاريف بعض الوثنيّين المتحمّسين والمُخادعين. يرى بلافيشني أنّ لولا أرسطو لما تمكّنت الكنيسة من وضع العديد من بنود الإيمان. أنظر .ديكتون دي بايل. ارسطو .

لم يزداد الإنسان، الذي ذهب به الظنّ أنّ الربوبيّة نفسها قدّ علّمته، سوى التعاسة والبؤس؛ لقد كان محمولا على أن يعظّم الآراء الدينيّة ويراعي الفرائض المزعومة وهو الأمر الذي حوّله إلى مخلوق خطر على نفسه وعلى الآخرين. يبدوا وكأنّ الآلهة لم تظهر في الأرض إلاّ لكي تجعل معيشة ساكنيها أكثر شقاء وبؤسا؛ ففي كلّ مكان تظهر مثل الغزاة الذين لا يتركون في طريقهم سوى علامات الدمار والهلاك ، أو مثل المذنّبات المرعبة météores التي تبقى ذكراها ببقاء آثار الدمار الذي خلّفته.

لقد كانت المجتمعات الإنسانيّة عموما متوحّشة همجيّة، جاهلة ومحرومة من الأنوار والمعارف في زمن قد أتى لهم مشرّعوهم بالآلهة والأرباب، بالقوانين والعبادات: وبقدر ما تغيّرت الآداب والظروف والاحتياجات للأمم، كان لابدّ لأفكارهم الدينيّة أن يطرأ عليها التغيير؛ فالإنسان الاجتماعي والمتمدّن والعاقل لا يمكن أن يكون له نفس الإله مع الإنسان الرحّالة errant الأحمق والوحشيّ féroce الهمجيّ: على هذا النحو، لابدّ للإنسان المتحضّر والأكثر تنوّرا ودراية بما يصلح به أن يسئم من الدين عندما يصبح لا يتلاءم مع آدابه المُهذَّبة ومع الأفكار والخبرات التي تمكّن من اكتسابها ومع عقله الذي أصبحت ثقافته ثريّة.

ذلك هو السبب في كوننا غالبا ما نرى الشعوب تنتفض على نير الاستعباد لأربابها القديمة التي أبلاها الدهر لكي تبايع أرباب أخرى تأمل فيها الخير والسعادة أكثر من سابقيها. وأحيانا، وقد أرهقها صلف

هذه الآلهة وطغيان كهنتها وبعدما لم يعد ينطلي عليها الخداع الضلال والخرافات التي تُروى لهم، فإنّها تأخذ عن عجل بكلّ ما يفد عليها من جديد، أو نجدها على الأقلّ آذانا صاغية لأولئك الذين يعرضون عليهم دينهم القديم في شكل جديد يتماشى مع أفكارهم الحاضرة الحديثة.

ومع ذلك، فإنّ التحويرات التي تطرأ على الدين لا تحدث بسهولة ودون مشاكل؛ فبالحروب والثورات والمجازر دائما ما يكون الناس مُكرهين على الأخذ بما عليهم أن يعتقدوا فيه في هذا الشأن. إنّ الدين القديم، وهو الذي له المكانة والسلطان والمدد والعدد الكبير من الأتباع، يقمع ويضطهد المُجدّدين الذين ينازعونه في ألقابه، ومن فرط معاملاته السيّئة فإنّه يثير تعنّتهم ويدفعهم للتسلّح لردّ العنف والقهر المسلّط عليهم. وهكذا، تشتعل الحرب والأقوى هو من يقرّر من الطائفة التي ستكون لها الغلبة في ساحة المعركة.

أمّا بالنسبة لبقيّة الناس فليس لديهم سوى الأهواء تقارع أهواء أخرى وعته يقارع عته آخر؛ فالهراء الأشدّ تهوّرا هو الذي تكون له السطوة وصوته هو الأعلى. وفي وسط هاته الضوضاء، لا يجد العقل آذان صاغية ولا يُسمَع صوته؛ فالمحاربين الشرسين لا يستطيعون سماعه. حقيقةً! إنّ هذا العقل، الذي يتّفق مع مصالحهم الحقيقيّة، يصرخ فيهم ويخبرهم بأنّهم يتصارعون من أجل أوهام لا تستحقّ اهتمامهم،

حقيقةً إنّه يبيّن لهم تفاهة المسائل التي تُقسّمهم وتشقّ صفوفهم وتفاهة هذا الدين الذي يُفضي إلى نزاعاتهم. ولكنّ المتعصّبين أصمّاء يدمّرون أنفسهم وهم يستميتون في التمسّك بتعنّتهم وعنادهم.

في الخلافات الدينيّة، لا يخطر ببالنا أبدا أن نتناقش في جوهر الموضوع ونتناول صلب المسألة ولا أحد يشكّ في صوابه أو في رجاحة رأيه، ودائما ما يكون المتصارعين منشغلين بظاهر الأمور[1]. وبعد أن أرهقتها صراعات الطوائف المتناحرة والمتكالبة التي تناوبت على التنكيل ببعضها البعض وأراقت أنهارا من الدماء، لم تشفى أبدا الأمم من حماقاتهم؛ إنّها لا تقضي أبدا على أصل الدّاء الذي سوف يُنتج عاجلا أم آجلا مصائب وكوارث جديدة.

[1] لا يوجد ما هو أكثر نفعا من الهرطقات والبدع، قال ذلك أحد.القديسين؛ فالنّزاعات مع المجدّدين تشغل بال عموما العدد الأكبر من عباقرة البلد بين مؤيّد ومعارض. وهكذا فإنّ الناس القادرين أكثر من غيرهم على مقارعة ضلالات الفكر البشري ومغالطات النُّذر، وعوضا أن يكونوا نافعين بفكرهم، يصبحون قادة أحزاب ويضيّعون وقتهم في جدالات تافهة وعقيمة. فياله من خير عظيم كان لمصلحينا أن يفعلوه لو أنّهم، عوض أن يهاجموا بعض المعتقدات السخيفة للكنيسة الرومانيّة، كانوا قد استخدموا ذكائهم في تقويض المسيحيّة التي تتسبّب منذ قرون عديدة في بؤس وشقاء الأمم الأوروبّية! ويا لها من خدمات عظيمة كان في مقدور أُناس مثل لوثر وكالفن وميلنشثون وايراسموس الخ، أن يقدّموها للعقل البشري!

إنّها الأفكار والمفاهيم المشؤومة عن الربوبيّة التي يجب اخمادها في أذهان الناس إذا ما أردنا أن ننزع عنهم إلى الأبد أيّ ذريعة لإيذاء أنفسهم؛ ذلك أنّهم لن يصغون لصوت العقل طالما أنّنا سوف ندعوهم بأن يسلّموه لسلطة هاته الأرباب التي ليست سوى سلطة الكهنة والمفسّرين لأحكامها. فهؤلاء المفسّرين لا يجعلون الألهة تنطق إلاّ بما يتناس مع مآربهم الخاصة وبما تخوّله لهم أنفسهم من عته وخباط.

إنّ ما يشحذ همم الملوك أحيانا ضدّ الدين ليس أبدا العقل ولا ابتغاء الحقّ ولا الرغبة الصادقة في التخفيف عن الشعوب وتمكينهم من العيش الكريم : فإذا ما انسلخوا عنه فذلك لأنّه أصبح يقف حجر عثرة أمام أهوائهم ومآربهم ونزواتهم . لم تكن النيّة في اسعاد أسلافنا، الذين كان يستبدّ بهم، ما دفع هنري الثامن لأن ينتفض على نير الديانة الرومانيّة التي أصبحت منذ قرون عبئا يثقل كاهلهم. لقد كان الدافع وراء ذلك الرغبة في الاستمتاع بامرأة كان هذا الدين يحرّم الزواج منها. لقد اعتقدت الأمّة البريطانيّة باطلا، بعدما تخلّصت من نذر أثقل كاهلهم، أنّها تنفّست الصعداء بالتعديلات الجديدة في المفاهيم الدينيّة التي أدخلتها على النظام القديم.

لقد كان الدين لدينا منقسم إلى طوائف وشيعا مختلفة كانت قد أتت لاحقا بحروب جديدة وكلّفتنا من الدمع والدم أنهارا. علينا أن ننطلق

في إصلاح الدين من فكرة الرب الغيور والمفترس؛ فطالما أنّ الناس سوف ترى أقدارهم معقودة في يد هذا الرب مقدّر الأقدار وقاضيها، فسوف يهتمّون لزوما به وينشغل بالهم بأمره، وسوف يتجادلون فيه دون انقطاع ويتصارعون وهم يدافع كلّ منهم عن رأيه الذي يرى فيه الحق والصواب.

لعلّنا سوف نتّفق أن الكهنة لم يأتوا في كلّ الديانات سوى بمفاهيم زائفة وباطلة عن الربوبيّة؛ ولكن من منّا يقدر على الادّعاء بأنّ أفكاره عن الربوبيّة هي الحقّ؟ من منّا سيقدر على الزعم أنّه عرف كنهها؟ أتكون الفئة الأكثر حكمة إذا هي التي تحجم عن الحديث في شأنها؟ ألا نرى أنّ الناس لا تفتأ أبدا النزاع على أمر لن يكون لهم عليه أبدا أفكارا دقيقة وثابتة؟ كيف تراه سيكون عليه الأمر لو أنّهم اعتقدوا أنّ هناك ربّ يهتمّ لحججهم السخيفة ويغضب على أولئك الذين لا يتدبّرون في أمر لم يُؤتى لهم به من علم؟

سوف يكون اللاّهوت دائما علم التخمينات والظنون التي لا يستطيع البشر أن يتّفقوا حولها؛ وإذا أرادوا أن يتكلّموا في الآلهة، فعليهم أن يفترضوا على الأقلّ أنّها حكيمة بما يكفي لكي لا تتدخّل أبدا في جدالاتهم الخرقاء، وأعظم شأنا من أن تفزعها مواقفهم الصبيانيّة، وعادلة

بما يكفي لكي لا تؤاخذهم أبدا على خوضهم في مسائل لا يستطيعون لها فهما أو ادراكا[1].

بسبب الشعور بأنّ الشرور التي أحدثها الرب العجيب لديننا المعاصر هي قضاء مُحَتَّمٌ، لم يفعل المنظّرين الذين زعموا في كلّ الأزمان أنّهم يصلحونه أو يقرّبونه من الصواب، سوى أنّهم شذّبوا وجدّدوا شجرة قديمة مهيّأة لأن تأتي في كلّ حين بأغصان ضارّة وبثمار مسمومة؛ لقد طعّموا بعدد قليل من الحقائق العقيمة الأفك والزيف والبهتان. وبعد أن اتّفقوا على المعتقدات الأساسيّة لنظام ديني ضارّ، تخاصم كهنة الطوائف المختلفة حول أمور باطلة ومسائل جانبيّة، حول السفسطائيات والمغالطات والمواسم والأعياد وتفاصيل سخيفة.

لم يكونوا يهتمّوا، وهم أنفسهم تحكمهم الأهواء والأغراض الغريبة عن غايات المجتمع ومصالحه أو أنّهم عاجزين بعماهم على أنّ يدركوا حقائق الأمور، سوى بالفتك بأعدائهم وعلى أنقاضهم يشيّدون

[1] « لا يمكننا أن نترك شعب، يقول ثيوفراستوس ، في حمقه دون أن يصبح وحش مفترس ضاري ، وأن نطلق العنان لجنونه ثمّ نعترض على غضبه ». في كلّ الثورات والفتن التي يسبّبها الدين، لا نرى غير ورعين حمقى سفهاء يقودونهم أوغاد منافقين.

بنيانهم، أن يفرضوا أفكارهم وتصوّراتهم وشجب مواقف اللاّهوتيّين الذين لا يفكّرون على نفس نهجهم. ومهما كانت الهيأة التي ظهر عليها، فإنّ الكهنوت لم يكن يراعي سوى مصلحته وغاياته الذاتيّة، ولكن الغطرسة والتعجرف والغيرة والجشع والطمع سوف يشقّون دائما أعضاء الجسم الواحد الذي لا يقوم بنيانه سوى على ضلال الأمم التي يتخاصمون على رفاتها.

وهكذا فإنّ الإصلاحات المختلفة التي أحدثناها على الدين لم تفعل سوى أنّها ضاعفت الخلافات والنزاعات والصراعات ومن بؤس الشعوب ومآسيها: فالمصلحين المزعومين الفخورين بأنّهم اكتشفوا بعض الزور والأخطاء وبعض الانتحال الفظيع، كانوا قد حذفوها لكي يشيّدوا نظم جديدة على بقايا الأصول والأسس.

وعوض أن يتفحّصوا في كشوفات كاذبة وعوض أن يُلقوا عرض الحائط بالكتب المقدّسة أو سجلاّت ومدوّنات الحكايات والخرافات المُبجّلة والمعتقدات المتناقضة والألغاز الغامضة والأوامر التي تُعارض الفطرة والعقل، لم ينشغلوا هؤلاء المنظّرين عديمي النفع سوى بالتعليقات وبالفروقات والتفاصيل الدقيقة؛ وكانت الأمم تشقى وتكابد الانشقاقات الجديدة والتعسّف والطغيان الذي أفضت إليه هاته المواقف المتنافرة والمتضاربة في كلّ مسألة.

مهما كانت مواقفه، دائما ما كان الكاهن يجد إمّا في الحكّام أو في الرعيّة نفوس مُهيّأة لمشاركته في خصوماته، وكانت قراراته العظيمة دائما ما تجد من يناصرها بالحديد والنار. أتراه مضطهد مقموع وقد وجد في نفسه الضعف وقلّة الحيلة؟ إنّه كان يدعوا للتسامح واللّين وحريّة الضمير والمعتقد. وهل أصبح أكثر قوّة ليحشد النّافذين لجانبه؟ فإنّه لم يكن يتحدّث سوى على الحميّة والانتقام وعن إبادة أعداء الرب [1]. وبفعل السحر والحيل التي أعمت الأبصار، لم تكن تُلحَظُ أبدا تبعات أعماله من الهفوات الأكثر وضوحا، وكانت أهوائه ونزواته مسموعة مطاعة دائما وكانت الأمم تضحي من أجله براحتها وأمنها.

وإذا ما سقط أحيانا، أثناء المعارك والصراعات الطائفيّة، قناع الدجل والخداع، فإنّ الشعوب لا تلمح ذلك أبدا لأنّها معصوبة العينين برباط الرأي والظنّ، ولا تملك الشجاعة لتزيحه بالكامل. ورغم الثورات المتواصلة التي كان الدين بذرتها، فإنّه كان على الدوام الحامل للقضيّة والمنتصر، وكان له الحظوة دائما في أن يقدّم أعدائه قربانا لربه أو في

[1] لقد كانت الأطراف المتخاصمة في كلّ الانشقاقات والخلافات حول الدين عموما مخطئين من كلّ الجوانب. فكلّ طائفة تكون متزلّفة متملّقة وهي ضعيفة، وعندما تجد في نفسها القوّة فإنّها تسعى لأن تجتاح كلّ شيء. لقد أشعل سابقا دعاة تجديد العماد "الأنابابتست" أوروبا وهم الذين كانوا السابقين على "الكويكرز" المسالمين.

التضحية بهم من أجل أمنه الخاصّ؛ لقد أصاب الملوك وأثمل الرعايا، لقد جلب الشؤم والفوضى والبلبلة إلى عقر دار الدول.

وحتى إن خجلت الأمم في بعض الأوقات من تكالب أسلافهم وهرجهم ومرجهم، فإنّها لا تدرك أنّها في كلّ لحظة يمكن أن تسقط هي أيضا في الغلوّ المهلك، وهي لا تدرك أيضا أنّ التربية المتعصّبة التي تتلقّاها، وأخلاق الجهل والضلال التي يرسّخونها فيها، الوصوم التي يُلهمونها لها، الأحقاد والضغائن الدينيّة التي تتغذّى عليها ضدّ كلّ من لا يمتثل لعباداتهم، المظالم والاحقاد التي سلّطتها على أتباع الطوائف الأخرى، الثروات والسلطان الذين منحته في كلّ مكان لدجّالين قد أُحِلَّ لهم أن يجتاحوا مثل الوباء الشعوب ويتحكّموا في ضمائر الناس، وأخيرا الأهواء الفالتة للكهنة يمكن أن تزهر كلّها في كلّ لحظة الغيّ والعته ومآسي جديدة.

لقد كان هناك في كلّ الأزمان أُناس قد ندّدوا بشدّة الإسراف والغيّ الذي أتت به للنُّذر، ولكن قليل منهم من كان قد تجرّأ على مقارعتها في العمق؛ فماذا عساه أن يفعل صوتهم الضعيف الخافت ضدّ صرخات الكهنوت وتهديدات حكمه الطّاغي المستبّد وتحفظ الحشود التي يستعبدها الوصم والعادة. كيف لهم أن يقدّموا العلاج لمرضى تعزّ عليهم

آلامهم وأمراضهم ويعتبرونها نافعة ومقدّرة وهم على استعداد أن يفتكوا بأطبّائهم بمعالجيهم؟

لقد كانت السجون والشوكران والمحارق عموما جزاء حماسة واندفاع أولئك الذين أرادوا أن يُبطلوا السحر الذي أخذ بالألباب، والأهالي، التي تشبه طيور الليل التي يقلقها ضوء النهار، تنقضّ بكلّ سخط على بني البشر الخيّرين الذين يقدّمون لهم الأنوار التي لا تلائم الأعين التي اعتادت الظلمات.

لقد كانت السلطة، حتى تلك التي كانت سيّدة نفسها، مُجبرة على أن تتراجع مئة خطوة أمام قوى النُّذر وسلطانها، وكان الأمراء المتنوّرين الذين تجاهلوها وازدروها عموما يعاقبهم المتعصّبين المغتاظين الذي يأبوا أن تُمسّ مقدّساتهم بسوء. وعبثا حاول الملوك الحكيمين، الذين أرهقهم شطط النُّذر وإسرافها، أن يقمعوا هذا الوحش ويروّضوه الذي كان يجد دائما الوسيلة في تفادي ضرباتهم، لقد كانت تنبعث للتنيّن (أو حيوان العُدار) دائما رؤوس تُنبعث من جديد؛ مثلها مثل تلك الحشرة التي نراها تتكاثر تحت ضربات السكّين، تنتج الأوهام المبتورة أوهاما جديدة.

لقد كان لابدّ لهذا أن يحدث دون أدنى شكّ، ذلك أنّ مماطلة الشرّ لا يعني أبدا تحطيمه. غير الحقيقة لا يوجد علاج للزور والضلال،

ولكنّ الطغاة، فضلا عن الكهنة، دائما ما ناصبوها العداء، ولقد ظنّ الحكّام ذوي النوايا الصادقة أنّ هاته الحقيقة خطرة على شعوبهم وهم غير مدركين أبدا أنّها لا تضرّ بسلطانهم إذا ما لم يستعملونها سوى في اسعادهم؛ لا يوجد أمير لا يهتمّ بأن يصبح طاغية[1]، إلاّ أن الزور والبهتان المقدّس وحيله أو سحره لا يلزمون سوى الدجّالين المخادعين أو الأمراء الجهلة والفاسدين الذين يريدون أن يخدعوا الناس ويجعلوهم عبيدا لأهوائهم، ولكن هاته الأهواء تغدوا عاجلا أم آجلا مهلكة للمتهوّرين الذين يكونون عادة أوّل الضحايا لحمق الشعوب وغبائهم.

يا أسياد الامم! أحكموا بالعدل، مدّوا سلطانكم بالأخلاق وبالقوانين وسوف تحكمون دون الكهنة. لن تحتاجوا للكذب عونا ونصيرا في حكمكم للناس، الذين ستجعلونهم برعايتكم اليقظة سعداء. لن يكون لكم خشية من أن تنتفض الرعيّة للحقيقة لأنّ الرعيّة العاقلة هي التي ستقدّر أعمالكم الخيّرة ومآثركم الحسنة. كونوا عظماء، فاعلين ذوي همم عالية، خيّرين ومنصفين، احترموا الحرية وممتلكات المواطن، لا تدعوهم يقمعونه باسمكم وضعوا له القوانين الصائبة والنافعة،

[1] قليل من الملوك ينزلون إلى عشيرة سيريبس دون قتل أو جرح، وبموت الطاغية، جوفينال، هجاء، الكتاب العاشر (ترجمة من اللغة اللاتينية. المترجم)

أحرصوا على أن يُصلحوا له قلبه وأن يُلهموه في سنّ مبكّرة المواهب والمهارات والخير والفضائل الفعليّة، أوفوا الجزاء وأخلصوا لهاته القرائح وهاته الفضائل، وليلقى السوء والإثم من الأفعال العقاب وليلقيا الخزي والعار أينما حلّوا، وسرعان ما سيكون ملككم المُشيَّد على الحقّ والعدل أشدّ صلابة من الملك المُشيّد على الكذب والبهتان والوصوم الزائفة.

يا أيّها الأمراء!، كونوا مواطنين؛ مواطنين أختارهم الناس ليقودوهم، وليكن قلبكم يطربه مجدكم الجميل والرقيق في أن تتولّوا قيادة خلاّن لكم، أناس أحرارا، وطنيّين فاعلين، كادحين ماهرين ومتنوّرين وخيّرين، على أن تحكموا أعداء لكم قد أفسدهم الأسر وأذلّهم البؤس وأفتر عزمهم، محرومين من الأنوار ومن حسن الآداب، فضيلتهم الوحيدة هي الطاعة العمياء للكهنة المناوئين لكم في الحكم.

لا تأمنوا أبدا رجالا متغطرسين، احذروهم وتسلّحوا باليقظة والحيطة لأنّ مآربهم الخبيثة ليست نفسها مآربكم، ولتنتفضوا لرؤية الامتيازات الهائلة التي يتمتّع بها مواطنين، قد أحلّوا لنفسهم أن يثوروا ويلحقوا الأذى بالخلق باسم السماء؛ فلتنتزعوا من أيديهم هاته الأسلحة الخطيرة على أمثالكم، أعيدوا للأمم ممتلكاتها التي تُغتصب منهم منذ

قرون عديدة بالغش والخداع. ولتُصرف الثروات أخيرا، التي وظّفت بالدجل والخداع لكي تُصرَف على الجهل والغطرسة والعطالة، في تعليم الشعوب وتنويرها.

لتكفّ رعاياكم على التباغض والتناحر ولتحجم على الانتفاض من أجل مجرّد آراء وظنون. ولتتعلّم كيف تكون عادلة وإنسانيّة وخيّرة ومتواضعة، لتتعلّم خدمة الوطن ومؤازرة القادة الذين يسعون في اسعاده. لتتعلّم في سنّ مبكّرة كيف تحترم العقل والفطرة اللذان لن يشيرا إليها بأن تكون منشقّة وشرّيرة.

وإذا ما أصبحت الأوهام ، بحكم التعوّد، عزيزة على شعوبكم، فلتسمحوا بالعلوم أن تقوّض أركان التعصّب، ولتقضوا بميزان العدل بين الطوائف ولا تتشيّعوا أو تكونوا مغرضين، لا تحشروا أنفسكم في نزاعاتهم المغرضة لكي لا يجعل منها ثقل السلطة لديكم مهمّة، احرصوا على أن يفكّر كلّ مواطن بطريقته طالما أنّه يتصرّف دائما وفقا لأحكام العقل. هكذا ستكون الحكومات المرشدات الحقيقيّة للشعوب؛ وستكون هاته الشعوب، من أجل منفعتها، خاضعة للحكم الذي كلّ شيء يثبت أنّه لازم وضروريّ لسعادتها.

أيّها المُشرّعين! ليكن حكمكم في أناس سعداء وأحرارا وستكون الآلهة دوما داعمة لرعاياكم: فمهما تكن آرائهم وتوّجهاتهم فلن تكون

خطيرة إلّا عندما نضايقهم بسببها[1]. أمّا أنتم أيّها الطغاة الضّالين الأشرار! المحرومين من العقل والهمّة والفضائل، ألا تجدون في أنفسكم القوّة لأن تحكموا دون عون الكهنة وأوهامهم وتخاريفهم، أنتم! يا من تحكمون، بقلب ميّت خال من الصدق والأمانة، غير عبيدا أغبياء، أنتم! يا من أقمتم سلطانكم وسلطان النُّذر على الخوف والظنّ والسحر والحيل، احترسوا أن تدعوا شعاع من نور يأتي لينير دولكم المخدّرة، أبقوا شعوبكم مطمورة في ظلمات ما لها من قرار وفي خمول سبات عميق أبديّ، وإذا أمكنكم ضاعفوا في عتمة ليل وصومهم وظنونهم؛ لتُكن الحريّة محظورة حتى من مجرّد التفكير فيها، ولتكن الحقيقة، المهلكة لكم على الدوام والمزعجة والمكدّرة لهم، دائما محجوبة عنهم، والعقل مغلول والعلم محظور والحكمة مقموعة ملجومة، فلا يعلوا صوتهم المزعج أبدا كي يكسروا الصمت الرهيب الذي يسود يعمّ أقاليمكم الحزينة.

[1] إنّ الحكومة العاقلة الحكيمة لا يمكن أن تحمل على عاتقها أمر شفاء جسم كامل لأمّة بأكملها من وصومها الدينيّة، ولكنّها تستطيع، بل ويجب عليها، أن تحول دون أن تكون هذه الوصوم مؤذية؛ سوف يكون لها ذلك لامحالة إذا ما احجمت على التدخّل في خصومات الكهنة أو في آراء المواطنين وإذا عاقبت كلّ من سيربك راحة الآخرين بذريعة المواقف والآراء التي يحملونها. عندما يصبح التفكير في الدين حرّ مثل التفكير في العلوم على غرار الفيزياء والهندسة، لن تكون لدينا خشية أبدا من أن يهزّ اللاّهوت الدولة بمثل النزاعات حول هاته المسائل التي لاتهمّ في شيء الأمن العام والسام الأهلي.

أقمعوا كلّ من يتجرّأ على مجادلتكم في حقوق آلهتكم واحترسوا من ألاّ يراعي ألقابكم المنتزعة نزعا. فلتنادوا الدين ليغيثكم وليأمر كهنته رعاياكم بأن يجثوا تحت نيركم ويرتدوا أغلالكم، ولكن ضعوا في خلدكم أنّ نبوءات آلهتهم ستكون دائما أقوى من قوانينكم الجائرة. وهذا الدين الذي تستعينون به سوف ينقلب عليكم ذات يوم بأسلحته الفتّاكة والمقدّسة، ولن يكون لكم من سلطان سوى ما سيقدّره هو لكم، ورعاياكم التي جعلتموها بالإذلال والإهانة أعداء لكم، لن تتهاون في الاصطفاف معه ضدّكم، وسوف يخلعكم كهنته من العرش الذي نصّبوكم عليه حالما تمتنعون على أن تكونوا أوّل عبيدهم.

إنّ الطغيان والنُّذر وحشان لا تقوى عليهما أبدا أيّ امبراطورية، مهما امتدّ سلطانها وكان حكمها نافذ، عندما تتوحّد مساعيهما. ولكن إذا ما فرّقتهم المصالح، فإنّ النُّذر تنتصر عاجلا أم آجلا على الطاغية وأعماله، فهي الوصيّة المستبدّة القاهرة لا تسمح للأمراء بأن يكونوا أشرارا إلاّ شريطة أن يكونوا تحت وصايتها وهي التي توجّه ضرباتهم، ودون ذلك، فسرعان ما تتّخذ لها زوجا وتتنكّر لأبنائها.

إنّ الطغاة أبناء مدلّلين قد أفسدتهم النُّذر: لا تشغلهم سوى ألعاب صباهم التافهة، من أجل نزواتهم وأهوائهم العابرة يضحّون بمجدهم الحقيقي وبسعادتهم الراسخة وأمنهم الخاص. يريدون لرعاياهم المُضلَّلة

المخدوعة أن يحكمهم الكهنة الضالّة الذي يقودون دائما الحاكم وشعبه إلى الهاوية المهلكة.

لقد تعايش الناس في مجتمعات من أجل أن يعيشوا سعداء في هذا العالم؛ ومن أجل أن يعيشوا فيها سالمين مطمئنّين كانوا قد اختاروا من بينهم قادة يحكمونهم وأنشئوا الحكومات وبايعوا السلطة للقوانين التي تحملهم على ضبط سلوكهم وفقا لأحكام العقل وللمصلحة العامة المشتركة بينهم وبين شركائهم من باقي أعضاء المجتمع.

لم يتحمّلوا أبدا ولا أرادوا أبدا أن يُسلّموا فكرهم لسلطة أيّ كان من البشر؛ وإنّ السعي لتقييده بالأغلال أو جعله على نمط واحد لجريمة نكراء وتعدّي صارخ: سيكون الفكر دائما حرّ مثل النسيم وطليق مثل الريح. وحدهم العدل والعقل والخير والقرائح يستطيعون أن يعضدوا عروش الحكّام ويسندوها ويؤمّنوا ازدهار والعمران والنماء للإمبراطوريات. فدون عدل لا يوجد أبدا أمن للحكومات أو حريّة للمواطنين، ودون حريّة ليس هناك إطلاقا عقل ولا أنوار ولا أعمال، ودون عقل ليس هناك البتّة آداب، ودون أنوار وحسن الآداب لا يمكن للدولة أن تكون سعيدة أو قويّة.

في هذا الكتاب الجريء والعميق، يأخذنا الفيلسوف الفرنسي البارون دي هولباخ في رحلة فكرية شائكة عبر تاريخ المعتقدات البشرية، مسلطًا الضوء على أصول الخرافات وكيف تحولت إلى منظومات فكرية ودينية أثرت بعمق في وجدان الإنسان ومسار الحضارات. بذكاء فلسفي ونقد حاد، يحلل هولباخ ما يسميه "العدوى المقدسة"، تلك الأفكار والمفاهيم التي تنتقل عبر العصور لتأسر العقول وتقيدها بسلاسل الوهم، متسترة بعباءة المقدس.

يكشف هولباخ أن الخرافة ليست مجرد قصص موروثة أو نتاجًا للخيال الشعبي، بل هي استجابة إنسانية أولية لمحاولة فهم الطبيعة وتسخيرها، وكيف أن البشر في ضعفهم أمام المجهول سعوا لخلق عوالم روحية تحميهم من الخوف، وتمنحهم إجابات جاهزة عن أسئلة الوجود الكبرى. ومن هنا، ولدت الخرافة كوسيلة لتفسير المجهول، لكنها سرعان ما تحولت إلى أداة للسيطرة الاجتماعية والسياسية، حيث استخدمتها السلطات لتثبيت مكانتها وتعزيز نفوذها على حساب حرية الإنسان وتطوره الفكري.

يناقش الكتاب بأسلوب تحليلي متماسك كيف أن الخرافة قد أصبحت جزءًا لا يتجزأ من النظم الثقافية والقيم الأخلاقية، مسلطة سيفها على كل من يجرؤ على التفكير النقدي أو السعي نحو التحرر العقلي. يرى هولباخ أن استمرارية هذه العدوى الفكرية كانت ممكنة بفضل الخوف، ذلك الشعور الإنساني العميق الذي تستغله الخرافات لإحكام قبضتها، مما يؤدي إلى ترسيخ الجهل والخضوع.

لكن، هل يمكن للبشرية أن تتحرر من هذه القيود؟ هل يمكن للعقل أن ينتصر على المعتقدات المتوارثة؟ وهل يمكن للإنسان أن يستبدل الخوف بالفضول، والوهم بالمعرفة، والخضوع بالحرية؟

"العدوى المقدسة" ليس مجرد كتاب، بل هو دعوة للتأمل وإعادة النظر في كل ما اعتبرناه يومًا حقائق لا جدال فيها. إنه محاولة شجاعة لإيقاظ العقل البشري من سباته الطويل، وللتساؤل عن مصدر اليقينيات التي حكمت حياتنا.

هذا الكتاب يخاطب كل من تجرأ على التفكير، كل من شعر بأن هناك أسئلة أكبر من الإجابات التي تلقاها، وكل من سعى لأن يكتشف إنسانيته خارج أسوار الموروث. إذا كنت مستعدًا لمواجهة أسئلة قد تهز يقينك، ولخوض رحلة فلسفية إلى قلب الحقيقة، فإن هذا الكتاب هو مرشدك في الطريق.

"هل تستطيع أن تواجه الخرافات التي شكلت العالم؟ وهل أنت مستعد للتحرر من عدوى قديمة لا تزال تجري في عروق الحضارة؟"



9 789922 717494

